

نائب الرئيس

تأليف
معين التارح
هربرت فستر
د. معارف إغتراف

ترجمة

محمد مصطفى زايه

مختصر نويس

ليسانس في التربية والآداب

ليسانس في التربية والآداب

و (B. A.) في التاريخ طاعة الشرف من جامعة الفريول
مدرس بالمدرسة العباسية الثانوية

و حرق تاريخ واحد من جامعة الفريول
ومدير التعليم بمديرية الغربية

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧

حقوق الطبع محفوظة لمؤلفين

١٥
١٥
١٥

مكتبة

نابليون

تأليف

هرزبرث فشر

وزير معارف إنجلترا سابقاً

ترجمة

محمد مصطفى زايده

ليسانسيه في التريه والآداب

و (B. A.) في التاريخ ونطقه للشرف من جامعة لفرول
ومدرس بالمدرسة السبسية الثانوية

محمد نوفل

ليسانسيه في التريه والآداب

والجاذي التاريخ والجغرافيا من جامعة لفرول
ومدير التعليم بمجلس مديرية القريه

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧

حقوق الطبع والنقل للمترجمين



الطبعة الثانية سنة ١٩٣٠

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فهذا كتاب نابليون، ألفه (هربرت فشر) ، أستاذ التاريخ بجامعة شفيلد ، ثم وزير المعارف بالملكة سابقا . آثرنا ترجمته إلى اللغة العربية : لأنه من الكتب التاريخية ، التي ألقت عن نابليون بالطريقة العلمية الخالصة — تلك التي تحلل الوقائع السالفة ، وتبني عليها حقائق تلها ، وتستنبط منها وقائع لحقتها ، وتعتمد دائما في أسلوبها على المنطق التاريخي ، الذي يكون من حوادثه حلقات متصلة متسقة ، لا شذوذ فيها ولا اضطراب . على أن هذا الكتاب ، مع صغر حجمه ، يعتبر فتحا مينا في عالم التأليف — تقرأ في صحائفه المكدودات تاريخ نابليون قتي وشيخا ، وإذهو بين الحالين رجل الدنيا واحدها ، فتقف بذلك على آثاره الجلى في تاريخ العالم ، وتفهم نفسه الجبارة التي طالما غلبت الحوادث ففازت منها بخير نصيب . وإنما قصدنا إلى نابليون دون غيره من أعلام التاريخ لاعتقادنا أن التاريخ الحديث لمصر ، وبعض بلاد الشرق الأدنى ، يتبدى يوم تزل الجيش الفرنسى مدينة الاسكندرية ،

(ب)

بإشراف هذا القائد العظيم ، فسلك مصر بين الدول ، ووصل تاريخها بتاريخ العالم ، وبعث فيها حياة علمية تعبد بحق الجذوة الأولى لنهضتها الأخيرة . وأمر آخر ، وهو حرصنا على أن يكون بين أيدي قراء العربية كتاب يشرح جزءا فذا من تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر ، كي يستعين به طلبة التاريخ في زمننا هذا على كتابة المقالات التي يكلفونها ، بدل طريقة الاختبار التحريري القديمة ، التي تمحصر المعارف في نقط أشبه بالرموز الرياضية منها بالتجليل المعقول الوافي .

وقد توخينا في الترجمة كل عناية ودقة فخرج كتابنا العربي مرآة صادقة للأصل الانكليزي . وكثيرا ما حملنا أسلوب المؤلف الموزع على شرح كثير من النقط بالحواشي ، التي في أسفل الصفحات ، مع خلو الأصل منها جماء إلا حاشيتين نسبناهما للمؤلف بصفحتي (٢٧١ و ٢٨٣) وكذلك أضفنا إلى الكتاب سبع مصورات وثلاث صور ليست بالأصل . وإنا لنقدم في الختام جميل شكرنا للأستاذ أحمد الشايب أفندي لتفضله بمراجعة الأصول وللأستاذ مصطفى السقا والإستاذ أحمد الناقص أفندي لمراجعة الصورة التي طبع الكتاب عليها .

ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى ما قصدنا إليه من مجارة الروح العلمي الحديث بمصر ، وإمداؤه بما يناسب خطته ويساعد في نهوضه والسلام
محمد نوفل محمد مصطفى زياده

الإسكندرية في أول مايو سنة ١٩٢٧

(ح)

فهرس

كتاب نابليون

صفحة	
١	الفصل الأول : نابليون في صباه .
٣٠	الفصل الثاني : الحملة الإيطالية .
٦٢	الفصل الثالث : مصر والشام .
٨١	الفصل الرابع : تنظيم فرنسا .
١١٢	الفصل الخامس : مطامع الأمبراطورية .
١٣٩	الفصل السادس : فتوح الأمبراطورية .
١٨١	الفصل السابع : خصائص الأمبراطورية .
١٩٩	الفصل الثامن : الصدمة الأولى .
٢٢٣	الفصل التاسع : انهيار البناء .
٢٥٥	الفصل العاشر : الدور الأخير .
٢٨٩	بعض كلمات نابليون .
٢٩٣	فهرس الأعلام والبلدان المهمة .

فهرس الصور والمصورات

- | | |
|-----------------|-------------------------------|
| أمام ص — ١ | نابليون بونابرت . |
| » ص — ٢٢٥ | نابليون أثناء واقعة واجرام . |
| » ص — ٢٢٨ | نابليون في طريقه إلى المنفى : |
| | مصور قرشقه . |
| | » إيطاليا . |
| | » فرنسا . |
| في آخر الكتاب . | » النمسا والاراضى الالمانية . |
| | » إسبانيا والبرتغال . |
| | » روسيا . |
| | » البلجيك . |

(هـ)

الخطأ والصواب

نرجو أن يصحح القارئ هذه الأخطاء في أماكنها من الكتاب.

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١٠	التاسع	الثامن
٢٣	٨	التار	التار
٢٥	٧	جلمة	جلمة
٤٠	١٣ ج	نابلون	نابلون
٤٢	١٦	يأتسوا	يأتسوا
٤٧	٨	عليها	عليها
٥١	٥	Foubert	Joubert
٨٦	١٣	التفريسين	التفريسين
٨٨	٥	تمهى	انتهى
٩٣	١٨	السيالية	السياسة
٩٨	١	لاضطهاد	الاضطهاد
١٠٣	٨ ج	سياسة	سياسة
١١٠	٥	القانونين	القانونين
١١٣	٥	١٧٧٩	١٧٩٩
١٣٥	١٢	أبلامها	إبلامها
١٣٦	٩	تولى	يتولى
٢٠٨	٧	أخضع بلادا	إخضاع بلاد
٢١٠	١١	ارابع	رابع
٢١٥	٨	زتيه	برتيه
٢١٧	٧	إسنج	إسلاج
٢٥٦	١٣	قلنا	قلنا

(٧)

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٦	١٤	وقوط	وقوطا
٢٦١	٦	بي	نابى
٢٧٩	١٤	خلق	خلق
٢٨٢	٥	إها	إها





نابليون بونابرت

نن صورة كيرة رسم جريفدون (Grévedon)
تفضل فاعلها لنا الاستاذ محمد رفعت صاحب كتاب « تاريخ مصر السيلي » •

نابليون

الفصل الأول

صباه

أذا ذكرنا نابليون بونابرت فكم يحضر الذهن من الأخيلة والذكريات ! من ذا الذي يجمل ملامح أكبر فاتحي العصور الحديثة ، وقائد قوادها ، بجسمه الصغير الذي يكاد يجعله في عداد الأقزام ، ورأسه المستدير ، وخده الزيتوني الشاحب ، وحاجبيه الكثيفين ، وأنفه وشفتيه وكأشها منحوتة مثل أجمل تماثيل القدماء ، وعينه الفاترتين البراقتين الراديتي اللون يتطاير منها شرر كهربائي تارة ، وطوراً يغمرها تفكير لا يعرف مداه؟ وقوامه لا شك مألوف أيضاً ، كما كانت مألوفة تلك الملابس التي طالما لذة المصورين رسمه بها . من ذا الذي لا يعرف تلك القوة الهائلة التي تتمثل في صدره وكتفيه ، وتلك الصولة الباهرة التي تتم عليها كل إشارة وحركة منه ، وتلك الأسنان

اليضاء ، واليدين الدقيقتين ، وتلك القبة المونقة ، والمعطف الطويل
الرمادي اللذين طالما سار بهما إلى الظفر ؟ من ذا الذي لم ير صورته
بطلانجيلا صغيرا يقود الطلائع في واقعة أركولا ، وأمبراطورا جاثيا
أمام محراب كنيسة نتردام رافلا في الحلل الطويلة الفاخرة التي أعدت
لحفل تتويجه ، أوقانداً عابسا على رأس كوكبة فرسان شاحبة تمشي
متشرة على ثلوج روسيا في الشتاء المهلك ، أوشبجا في عبادة واقفاً على
ظهر سفينة بكتفين مقوستين وذقن مرتخ ونظرة في الفضاء مملوءة
أسى تنبعث من عينيْن كئيتين ؟ أن الأفكار والعواطف التي تذكو
لسماع ذلك الاسم المجيد ، لتشبه في تباينها وتضاربها ما لقيه نابليون نفسه
في أدوار حياته ، كما نراها في صور المصورين . ومن المتعذر أن نغثر
في التاريخ كله على رجل مثل نابليون أثار عواطف متضاربة ، أو
ملك ، وهو على قيد الحياة ، مشاعر الإعجاب في الناس ، كما ألقى
في نفوسهم الرعب ، فحق عليه غضبهم ! ولم يقف الأمر عند
المعجبين به ، والناقمين عليه ؛ فإن أكثر النقاد تبصراً لينظرون
إلى تاريخ حياته ، لا بأراء متباينة فقط بل بشيء من الحيرة
أمام ما حوته من مواقف العظمة والدهاء ، التي كان منها ما هو
حقيقي وما هو زيف . فهو في نظر هؤلاء الذين يتعجبهم الفحص
النفسى ، عبارة عن رجل عملى آتى بالمعجزات ، قام ولا جأه له ولا

ثروة ، وارتقى إلى ذروة الأطماع البشرية ، فدحض بذلك الدعوى القائلة : أن السياسة سر لا يدركه إلا قليل من ذوى الأنساب والالقباب . على أن ذلك الرجل الذى قالت عنه مدام دى ستائل (١) أنه « لم يبق لبنى الانسان من مخلفات قوته الهائلة سوى معرفة بعض أسرار جديدة فى فن الاستبداد » ، هو أيضاً وليد الثورة الفرنسية ، وأنصح دليل على صحة المبدأ الديموقراطى : الذى نادى به ناصحاً بفتح أبواب الحياة فى كل مجتمع لأصحاب المواهب . هذا ، وما دام الناس يقبلون صحائف الماضى بحثاً عما يحرك القلوب من تقلبات الزمن ، أو حبا فى استقراء عظيم حوادث السياسة ، أو رغبة فى

(١) ولدت مدام دى ستائل (Madame de Stael) سنة ١٧٦٦ فى باريس وهى لبننة نكر (Necker) وزير المالية الشهير فى فرنسا قبل الثورة . نشأت فى العز وأعجب رواد سالون أبها بذلكها وهى فى سن الحادية عشرة . ولقد بدأت تشتغل بالادب والكتابة وهى بنت بافعة ، وتزوجت سنة ١٧٨٦ من البارون ستائل سفير السويد فى باريس فيما بعد . طلعت مدام دى ستائل ملكة سالونات باريس حتى قامت الثورة ، وتطرف زعمائها فهاجرت مع المهاجرين الى انجلترا . ثم رجعت الى فرنسا سنة ١٧٩٥ ولتشتغل بالسياسة والادب ، لكن حكومة الادارة لم ترض عن مبادئها فهجرت فرنسا ثم طلعت سنة ١٧٩٧ حين كان نابليون فى بدعيته الظلمة . الا أن نابليون لم يعجبها فلم يتحدث بينهما صداقة ، وتقلب تمارقهما كراهية اضطرت معها الى ترك فرنسا .

رجعت مدام دى ستائل سنة ١٨٠٢ ، فأصبح سالونها بركة تجمع الحاقدين على نابليون والساخرين منه ، واستمر كذلك حتى عيل صير الامبراطور سنة ١٨٠٤ . عند ذلك ابتدأ نابليون يضطهدها ، ولا شك أنه صغر من شأن نفسه باستمراره على ذلك . إذ طردها غير مرة من فرنسا ، وصادر مرثأحد كتبها . ولما سقض نابليون رجعت الى باريس حيث لقيت كل حفاوة من لويس الثامن عشر غير أنها اضطرت للهروب لما رجع نابليون من إلبا . ولم ترجع مدام دى ستائل الى فرنسا بل ماتت فى إيطاليا سنة ١٨١٧

الاطلاع على أمثلة من أعمال القوة والأرادة البشرية ، أو استقصاء
 لأسرار ذوى المواقف الحارة ، أو جريا وراء أدراك القوى البشرية
 التى تسيطر على العالم ، فإنهم سيواصلون درس حياة نابليون ،
 وسيجدون فيها دائماً قصة ، لا تقل في عجائبا عن أساطير الجبارة
 والجن ، يظهر فيها أكبر انفجار للقوى البشرية : ذلك الانفجار الذى
 أحدث في المصور الحديثة تغييراً كبيراً في حياة الانسان المتمدن .
 ولد نابليون في «أجا كسيو» في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ ، وكان
 ثانياً أولاد شارل مارى بونابرت ومارى ليتيشيامولينو . وأبوه من
 أصل فلورنسى له فروع في بلدتي سار زانا وسان منياتو في تسكانيا^(١) .
 غير أن أجداد نابليون استوطنوا منذ عام ١٥٢٩ جزيرة قرشفة^(٢) ،
 هناك بين المناظر الساحرة التى أودعتها الجبال الوعرة والغابات
 الكثيفة الحافلة بشجر الكستناء ، والسماء الصافية ، والبحار الزرقاء ،
 عاش آل بونابرت موضع احترام جيرانهم . وعلى الرغم من
 قلة ثرائهم ، فإنهم يحافظهم على نسبهم ، وبموازنتهم بمستوى من
 حولهم الضاربين في السذاجة وشنظف العيش ، كانوا معدودين
 أحسن أسرأت أجا كسيو حالا . ولقد خدم في مجلس الجزيرة خمسة

(١) انظر مصور رقم ٢ لبطاليا

(٢) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشفة للتحقق من مواقع البلاد الواقعة في تلك الجزيرة
 والذكورتنا في هذا الفصل من الكتاب

من آل بونابرت في أوقات مختلفة ، غير أن الأدلة تثبت أن سلف نابليون من جهة الأم كان أكثر مقدرة من سلفه من جهة الأب. نعم كان أبو نابليون رشيقياً ذكياً ميالاً إلى الشعر والبلاغة ، شأن كل إيطالي ، لكنه كان مسرفاً مضطرباً في أحواله المالية ، مغامراً للحصول على ما يريد من المال . أما أم نابليون فكانت امرأة مقطوعة النظر ، وكانت جميلة حفظت لآخر عمرها جمال وجهها وهيتها ، اللذين كانا يكسبانها إعجاب الناس في كل مكان . وكانت ذات عقل سليم خال من الرياء والتصنع . وظلت تلك المرأة طول حياتها لا تتكلم الفرنسية ، أو تتطرق بها ، بدون أن تغلط غلطات فاحشة . وكانت مقتصدة لدرجة الشح ، وعلى خلق قويم راسخ كطود من الصوان ؛ فقابلت تكاليف الحياة أول أيامها بثبات ، ولم يغيرها ما وجدت نفسها فيه من العز فيما بعد . وليس أدل على كل ما تقدم من أن باؤولي^(١)

(١) پاسكال باؤولي (Pasquale Paoli) طل تاريخ جزيرة قرشقة . ولد في سنة ١٧٥٥ وكان زعيم حركة تحريرها من حكم جمهورية جنوا . تم ابتاعت فرنسا الجزيرة سنة ١٧٦٨ . ولقد أن باؤولي تسلم الجزيرة للفرنسيين حتى غلب على أمره علم ١٧٦٩ . عند ذلك فر الزعيم إلى إنجلترا ثم عاد إلى وطنه سنة ١٧٨٩ أبان الثورة الفرنسية . يد أن أعمال الحكومة الفرنسية لم ترشه ، ونفذه من وظيفة الحاكم العام ، فنظم ثورة غرضها سلب الجزيرة عن فرنسا وضمها إلى إنجلترا . تم أخفق في مساعده وطاد ثانية إلى إنجلترا سنة ١٧٩٦ كسير القلب ، ومات قرب لندن في سنة ١٨٠٧ . وقد نقل رفاة إلى قرشقة علم ١٨٨٩ . هذا وسيمر القاري بكثير من أخبار باؤولي مفصلة في متن الكتاب

دعاها في سنة ١٧٩٣ . باسم كورنيليا^(١) ، مشيراً إلى أن تلك المرأة
الرفيعة الحسنة ذات الذكاء والعزم ، خليفة بأن تكون أمّاً للأبطال .
في منتصف القرن الثامن عشر كان من الشرف أن يكون الإنسان
من أهل قرشفة . وكان كل شغوف بالحرية يتبع أخبار النضال المجيد
الذي قام به سكان الجزيرة الصغيرة ، أولاً ضد حكم جنوا المقوت
ثم ضد سلطان فرنسا . في تلك الآونة كان اسم پاسكال پاؤولي
— بطل حرب استقلال الجزيرة وزعيم الأمة وواضع شرائعها —
مشهوراً في كل عوالم أوروبا . وكانت أوصاف الجزيرة البعيدة ،
موضع إعجاب السياح والسّواس الذين أثار بعدها في خيالهم أخبار
بطولة أهل المصور القديمة . لهذا كانت قرشفة في نظر أوروبا كاليونان
فما بعد وهي تحارب الأتراك ، أو كجمهورية البوير في جنوب
أفريقية وهي تقاوم الإمبراطورية البريطانية . أما نابليون الذي ولد
في تلك السنة التي انضوت فيها الجزيرة إلى فرنسا نهائياً ، فإن سنى
حدثه كانت مملوءة بحوادث ذلك النضال ، ولا بد أن أخبار
مخاطرات تلك الحرب الطاحنة كانت تترى عليه من كل ناحية .
من تلك أن أباه كتب مرة منشوراً ثورياً لأهل قرشفة ، وأن

(١) كورنيليا (Cornelia) امرأة أحد مشاهير قواد الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني
قبل الميلاد . ولقد خلفت من زوجها لينين وابنة وتكر شهرتها على حسن تربيتها لأولادها الذين خدموا
روما خدمت جليلة بعد أبيهم

أمه ، قبل ميلاده بأيام ، طوردت في الغابات والجبال ، حيث شاركت
الجيش الوطني في مخاطراته . إنما كان باؤولى في أثناء تلك الفترة
المثل الأعلى في عين نابليون ، ولذلك كان أقصى أحلامه أن يكتب
تاريخ الجزيرة مسقط رأسه ، أو أن يكون سبب تحريرها من الفرنسيين
اشتهر أهل قرشقة بالرزانة والشجاعة والأقدام ، وكان كره العدو
عند القرشقي فضيلة ، والانتقام واجبا ، والنفو عاراً ، وكان يشعر
بواجبه نحو عشيرته ، كما يشعر به ساكن الجبال في اسكتلندا ، أو
الالباني أو الزولو (١) . وكان يتيه غمراً وثقة . وكان ذا حذر وفراصة
في حكمه على أخلاق الناس ، داهية في التصنع ألا إذا أثبتت حفيظته
فأفسدت كل شيء . وكان شرفه يمنعه من السرقة ، ويأمره بالكرم
وحسن معاملة المرأة لكدها في المنزل والحقل معا ، فالقرشقي بوجه
عام كان شديد العزم ، رزيناً لا ينفمس في الملاهى ، وقد يجلس
ليلعب الورق فلا ينبس بينت شفة ، ويتحمل التعذيب دون أن
يظهر ضجراً . لكنه كان مع ذلك أنا استهواه الحديث ينطلق
بالكلام كالسيل ، مما يدل على تلك الهمة النزاعة الوثابة التي لا تطيق
صبراً ، والتي كانت حلية القوم كلهم . بتلك الصفات ، وبعض صفات
أخرى ، كان نابليون قرشقياً لهما ودما .

(١) الزولو فرع من جنس الباتو المنتشرة في جنوب افريقية

قضى نابليون معظم أيام المدرسة في فرنسا، فلم ير مسقط رأسه، ولا وجه أمه لمدة سبع سنوات وتسعة أشهر : غادر أجاكسيو في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ ليتعلم اللغة الفرنسية في أوتان (Autun) ^(١) بفرنسا وكان عمره إذ ذاك تسع سنين ؛ ولما رجع إليها بأجازة في سبتمبر سنة ١٧٨٦ كان عمره سبعة عشر عاماً، وضابطاً في آلاي من الآليات المدفعية . مع ذلك كان غيابه الطويل مثيراً لوطنيته، مذكياً لنار الحماسة في فؤاده . والسبب أنه كان يشعر دائماً أيام تلمذته في برين (Brienne) وأيام أن كان طالباً بالمدرسة الحربية في باريس، أنه في أرض معادية، يتكلم بلغة غير لغة أهله، ويضطر لمحاولة صبية يحقرونه للكتابة الأجنبية وماله القليل وحسبه المردوم . أدى به ذلك الشعور بالغربة الى التفكير في سريره كثيراً، حتى أنه بعد أن كان أيام طفولته عريداً مشاعباً، أصبح عبوساً غير محبوب بين زملائه ووجافاً كالقضم، — كما قال هو عن نفسه — تجيش في صدره الاطماع .

لم يكن نابليون قديراً في حذق اللغات ؛ لكنه أظهر منذ طفولته ميلاً للعلوم الرياضية شحذه فيه أساتذته الفرنسيون . كان أبوديريد من أول الأمر أن يلحقه بالبحرية، لكن الفكرة تغيرت — وربما

(١) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية المذكورة في فصول الكتاب

كان هذا ترولا على رغبات نابليون نفسه — قبل أن ينتهى من حياته الدراسية فى برين . وقر الرأى على أن يدخل المدفعية ، لانها القرع الوحيد من فنون الحرب الذى ترجح فيه كفة الذكاء وحب العمل كفة ضالة الشكل والجسم . ولقد أظهر نابليون من أيام طفولته ميلا للحياة الحربية ، فكان وهو فى طريقه إلى المدرسة الصغيرة فى أجاكسيو يستبدل بخره الابيض خبزا أسمر خشنا من جريات المعسكر ، قائلا أنه يروض نفسه على حياة الاجناد .

أما الدلائل التى تشهد على نموه العقلى والحقى فى تلك الطور من حياته ، فلها مقنعة فى ذاتها على رغم قلتها . من تلك أن رسائله إلى أهله من المدرسة كانت جدية جلية . أليك مثالا مما كتبه وهو فى الرابعة عشرة ، يصف أخلاق أخيه الأكبر يوسف قال ما معناه : إن ولعه بالهزل لايهيئه لحياة الجيش فليكن قسا . ولما علم بموت والده ، كتب وهو فى الخامسة عشرة خطابا مملوءا شعورا ناضجا قال : ولقد فقد البلد مواطنا فطينا متورا أمينا ، لكن هكنا قدر المولى تعالى ، ، . أمام ذلك الجد وتلك الرزاة نساثل أنفسنا هل كان نابليون صبيا أيام صباه — أيام رأى أن مهنة الحرب ليست مجال المظاهر الخلافة ، بل أنها العلم الذى يحتاج استيعابه إلى الاهتمام فى الدرس حتى ينال صاحبه العظمة السياسية . لذلك كانت دراسة التاريخ

والجغرافيا أحب الأشياء إليه ، وطلما خيل إليه أنه أخذ أبطال قصص بلوتارك^(١)، وكان كتاب «بحث في تاريخ العالم» ، الذي كتب بوسيوه^(٢) وسرد فيه تاريخ تعاقب الدول ، أول ما حرك في نفسه الأطماع .

في ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٨٥ ترك نابليون المدرسة الحربية في باريس ليلتحق بالآلای لافير الذي كان مرابطا عند فالنس . وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره ، لا يملك مالا ولا أصدقاء ، ولا يعرف أحداً من ذوى النفوذ يستعين به على الزقى في الجيش . مات أبوه ، ومات كذلك ماربو وبوشبورن الموظفان الفرنسيان في قرشقة ، اللذان كانا يتعهدان بالعتاية أسرة نابليون بعد وفاة عائتها . وضاق بأمه الحال بينما كان راتبه الأسبوعي وهو في وظيفة ملازم ثان ، لا يتجاوز الخمسة والثمانين قرشا مصريا ، فإذا قعد نابليون أمام تلك الحال ساكنا فاته ينتظر ست سنوات حتى يصبح ملازما أول ، وستا أخرى حتى يصير يوزباشيا . وإذا استمر على ذلك المنوال فقد يجد نفسه ، وهو في مقبل العمر ، من المحالين على الاستبداع ، وحيث لا يكفي راتبه

(١) بلوتارك (Plutarch) كاتب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي وأشهر كتبه « الموازنة بين العظماء » الذي يحتوي على تراجم كثير من مشاهير اليونان والرومان في القصر الذي قبله .

(٢) ولد جاك بوسيوه (Jacques Bossuet) في فرنسا سنة ١٦٢٧ ودرس العلوم الدينية ونجح فيها . ثم ذاع صيته حتى استدعاه لويس الرابع عشر للوعظ في كنيسة اللوفر سنة ١٦٦١ . وبقي بوسيوه في باريس ، وعين استاذاً لولي العهد . ويقال أنه كتب من أجل تلميح كتبه للذكور الذي تبنته لحر مؤلفاته .

تسد رمقه . لكن ذلك المستقبل المظلم شدد من عزمه ، فاستعان على حاله بالقصد في المعيشة ؛ ولما كان غير قادر لقلته ما بيده على الانغماس في الملاهي الدينية أكب على الدرس والمطالعة . وصف نابليون فيما بعد تلك الأيام قال : « كنت أشعر دائماً أن الوقت من ذهب حتى في الاوقات التي كنت فيها خلواً من العمل » .

كان في فرنسا في ذلك الوقت مجموعة من الأدباء ، امتازت كتابتهم على ما سبقها في تاريخ الأدب الأوربي بدقة وسمو مراميها ، واستهوانها القاريء للاستزادة مما حوته من الجمع بين الأمل والمواطف والفكاهة . أولئك الكتاب هم الفلاسفة الفرنسيون في القرن التاسع عشر ، الذين قاموا ينادون بتحكيم العقل والانسانية في أمة بدأت تشعر أنها تعيش تحت أنظمة هي في الحقيقة بقايا غير صالحة من أزمنة همجية تشودها الأوهام . هاجم أولئك الفلاسفة كل ركن من أركان النظام الفرنسي ، مستعينين بأوسع المبادئ ، موجّهين استفسارات محرّجة ، شارحين للعلاء ماذا يكون في الحياة من سعادة لو قضى على ظلام النظام القائم واستفيض عنه بنظام مسير بحزم وتفكير . ولقد جاد كل كتاب العصر على اختلاف مذاهبهم وأمزجتهم على تلك الحركة الأدبية ، وأليك فولتير وأسلوبه الممتع وكتابه الرشيق ، وترجو وسياسته الفلسفية الرصينة ، ورينال

وموهبته في الأسلوب الخطابي ، وروسو ومقدرته الفذة على أن يكتب بلغة موسيقية اعترافات نفس حساسة وتصورات عقل منطقي . لا جرم أن مطالعة كتب أولئك الأُدباء في الغرفة الحقيمة الموحشة ، التي كان يسكنها نابليون ، وهو ملازم ثان فقير معدم ، كانت بمثابة تربية عقلية واسعة النطاق . ولا غرابة أن يفتن نابليون ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، بأمثال روسو ورينال ، وأن يراض على الترحيب بثورة سياسية في فرنسا .

أُتيح لنابليون مدة السبع السنين الأولى في الجيش فرص كثيرة للمطالعة ، إذ كانت أعماله قليلة وأجازاته كثيرة طويلة . وكان يتأجج في قلبه نار حب الاستفادة ، شأن الذين تشرح صدورهم لأول مرة . كتب لأُمه يصف حياته في ذلك الوقت قال :
« وليس لدى ما يشغلي غير عملي . وأني أنام قليلا ، أذهب إلى مضجعي الساعة العاشرة مساء ، وأصحو الساعة الرابعة صباحاً ، وأكمل مرة واحدة في الساعة الثالثة كل يوم ، . نتج عن كثرة مطالعة نابليون لكتابات الفلاسفة المتقدمين أن أصبح يحتقر الرهبان ، ويكره الملوك ، ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية . غير أن الفلسفة لم تصادف هوى في نفسه ، ولم تستهو أخلاقه ، لأن عقله من الصنف الذي لا تؤثر فيه العلويات ، يلذه قراءة الوقائع والأرقام ، ويعمن في مطالعة

كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات ، ابتغاء معرفة الحال السياسية في العالم الذي يعيش فيه . هذا ويظهر من كراسات المدرسية كيف كان ماهراً في علم الحساب ، ألا أن ولعه باللموس كانت تشوبه عواطف روحية ، غير مقصورة على ما يخالف ضمائر الشباب الناثر ، بل بخاوية لما تصبو اليه أفئدة ذوى الأغراض والمطامع . لذلك كانت حاله أشبه بمن يحلم بالعظمة ويصبو إليها ، وهو لا يزال كلفاً بمواجهة الحقائق ورؤية الأشياء واضحة والرجال على أشكالهم المجردة . فكان يرى في أوسيان^(١) وفترتر^(٢) مثلين في حب التعمق في أسرار الكائنات وما وراءها ، وفي كورنى وراسين^(٣) كيف يبلغ الفرد أوج عظمتهم المدنية . كما رأى أن التاريخ ليس حائرة معارف وحقائق فقط ، بل أساس العلوم الوضعية ومنارة الحق والعامل على قطع دابر التحيز ، ؛ لذلك كان مطمحهم أن يضع تاريخ بلاده ، ليشهد العالم على ما ثارت

(١) شاعر أرلندى قديم نظم قصائد في وصف أبطال الجيوش الغال التي نرج من اسكتلندا إلى ارلندا وسكنها لأول مرة في الأزمنة القديمة . وقد ترجمت قصائد أوسيان إلى الإنجليزية سنة ١٧٦٣

(٢) آلام فترتر قصة ألفها الكاتب الألماني حيثه سنة ١٧٧٢ ، ترجمها إلى العربية الاستاذ أحمد حسن الزيات أفندى . والقصة نفسها لعل صورة واضحة عن الحركة الأدبية في أوروبا في القرن الثامن عشر .

(٣) كان كورنى وراسين (Corneille, Racine) أكبر الكتاب للسرحين في فرنسا . في أواسط القرن السادس عشر ، وظلت رواياتهما حية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ضده من الاستبداد الذي ترسف في أغلاله . أراد ذلك ولو أنه شحذ قلمه غير مرة في كتابة مقالات وقصص صغيرة ، شأن من يدرب نفسه على كتابة الروايات الخيالية . وفي سنة ١٧٨٧ شرع يكتب «وسائل عن قرشقة» ، وبعد ذلك بقليل جمع معلومات كثيرة وهو في أجاكسيو ، ليؤلف تاريخاً مفصلاً عن الجزيرة .

جاءت الثورة الفرنسية ، ففتحت أبواب الأمل لكل فقير ومحروم في فرنسا . أما نابليون فلم يحلم ألا بقرشقة ، وظن أن اقتربت الساعة لتحرير بني وطنه من ربقة البيروقراطية ^(١) الفرنسية . لذلك حصل على أجازة في سبتمبر سنة ١٧٨٩ ، وذهب مع أخيه الأكبر يوسف إلى قرشقة ، وأوغل في ثورة القرشقيين ^(٢) ، فخطب في الاندية ، وألف عرائض ثورية مهيجة ، وساعد على إنشاء حرس أهلي ، حتى أصبح في أجاكسيو بلدة الصيادين رأس الحركة ضد القساوسة والإشراف . وفي سنة ١٨٩٠ نجح بوسائل غير مشروعة في انتخابه قائداً ثانياً لفرقة من المتطوعين القرشقيين ، معتقداً أن الانتخاب لا يتضارب مع وظيفته في الجيش الفرنسي . ولقد وقف

(١) البيروقراطية والارستوقراطية والاتوقراطية والديموقراطية كلمات صاغها اللغات الغربية للدلالة على أنواع مختلفة من حكم الأمم . والبيروقراطية معناها نظام الحكم القائم على المركزية للدرجة التي يكون فيها للموظف مسئولاً أمام رئيسه المباشر فقط .

(٢) قمت الثورة الفرنسية في الجزيرة أيضاً باعتبارها من ولايات فرنسا التي تارثت ضد النظام القديم

نابليون بحكم وظيفته الجديدة على أسرار قيادة الجيوش غير النظامية ؛
أنماطراً تغيير على أفكاره السياسية حينما ألغى النظام الحكومى فى
قرشقة (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩) ، وأصبحت الجزيرة مديرية من
مديريات الملكية الديوقراطية الجديدة فى فرنسا ، بعد أن كانت
مستعمرة من مستعمرات التاج . ذلك أن حبه القديم لقرشقة لم يتغير ،
بيد أن عداؤه لفرنسا أخذ يزول ، ولا سيما أن الجمعية الاهلية فى
باريس اعترفت بمزايا مواطنيه ، وأذنت لباؤولى بالعودة إلى بلاده .
ورخصت بتشيل قرشقة فى النظام النيابى الذى اعترفته فرنسا .

لكن أبى القدر أن يكون نابليون حاكماً شعب من رعاة الاغنام
ورواد التلال الخضراء . وذلك أنه لما نشبت الحرب بين أوروبا والثورة ،
وأصبحت الحكومة فى باريس فى أيدي العقويين ، اتهم باؤولى
زعيم القرشقيين ، (وكان من أول أسره من دعاة الملكية الدستورية
ومدينا لانجلترا لاكرامها إياه أيام نفيه) بأنه من حزب المعتدلين
المالمئين لانجلترا . قوى تلك التهمة خيبة حملة بحرية فرنسية أرسلت
إلى مادالينا وهى جزيرة صغيرة على مقربة من سردينيا^(١) ؛ إذ اتهم
باؤولى بأنه السبب فى فشلها ، لتهاونه وفتوره فى قيادتها ، مع أن
السبب الحقيقى حدوث فتنة بين البحارة . انتهز تلك الفرصة لوسيان

(١) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة

بونابرت أخو نابليون ، الذى رفض باؤولى مرة أن يعينه ناموسا له ، وكان سنه أذذاك ثمانية عشر ربيعا ، وقال ان باؤولى خائن ، وكتب للبعقيوين أن زعيم قرشقة لا يصلح ألا للعقصة . قبلت الحكومة فى باريس بدون تمحيص قول ذلك الشاب الثورى ، وقررت فى ابريل سنة ١٨٩٣ القبض على باؤولى ، وعهد لمندوبى المؤتمر الأهلى فى باستيا ^(١) فى أنفاذا للقرار . قامت قيامة أهل قرشقة عند وصول أخبار تلك الاهانة التى لحقت برجل يعتبرونه أباهم وزعيما حقبة من الدهر . أما باؤولى فانه احتفى بمحسن كورت ^(٢) الجبلى ، حيث التف حوله المخلصون من رجاله الرعاة ، وأعلن استعدادة للملاقة كل ما تنويه فرنسا نحوه : عند ذلك أضحت الجزيرة على باب فتنة داخلية ، وأصبح مركز آل بونابرت حرجا بسبب الفعلة الطائشة التى أتتها الوسيان .

أما نابليون فقد تغيرت حماسته الأولى نحو الثورة الفرنسية ، لأنه مضى صيف عام ١٧٩٢ فى باريس ، وشاهد الهجوم على قصر التويلرى فى ٢٠ يونيه من السنة نفسها ، ومذبحة الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس ، فكبر على تربيته العسكرية أن ترى الغوغاء تميث فساداً ، وأن ترى فرقة منظمة تمزق ، لعدم وجود

(١) و (٢) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة

قائد حازم مقدم . قال دهشا لصديقه بورين ^(١) بينما كانت الجموع تتدفق نحو قصر الملك في ٢٠ يونيه : « ما أجبنهم ! (يعنى القاتنين بالدفاع عن القصر) كيف يسمحون لهؤلاء الرعايا بالدخول ؟ أليس في مقدورهم القضاء على أربعمائة أو خمسمائة من تلك الجموع بقوة المدافع فتلوذ البقية بالفرار ؟ » ، وفي أثناء مذبحة ١٠ أغسطس ذهب إلى حدائق التويلرى ، وتمكن مصادفة بعبارة خلافة أن يقف أحد أهل مرسيليا عن ذبح رجل قاتلا : « أى رجل الجنوب ! جديربنا أن نخلص هذا العيس » . بالجملة شفت تلك المناظر نابليون من أحلامه الأولى ، فكتب إلى أهله أن اليعقوبيين قد أصابهم جنون ، وأن الحكم بيد شرذمة من الدسامين السفلة ، وأن الناس إذا فخصنا عن أعمالهم وجدناهم لا يستحقون الجهود التى تبذل لأرضائهم . في وسط

(١) لويس بورين (Louis Bourrienne) زميل نابليون في المدرسة الحربية في برين . التحق بالخدمة في الوظائف الدبلوماسية ، وفى سنة ١٧٩٥ رجع بورين إلى فرنسا فوجد نابليون قائداً فى الجيش الفرنسى وحاكماً حريياً على باريس ومن ذوى النفوذ فيها . وفى سنة ١٧٩٦ طلب نابليون من صديقه ان يكون ناموساً له فقبل ، وبقى مستودع اسرار نابليون حتى بعد ان أصبح امبراطوراً . ثم عزل لاتهامه بالتلاعب فى الاعطية الخاصة بميرة الجيش . وفى سنة ١٨٠٧ عفا عنه نابليون وعين ملحقاً سياسياً لسفارة هامبورج ، غير انه ارتكب جريمة التلعب ثانية ، فأبعد الى فرنسا ، وحكم عليه بدفع مليون فرنك غرامة للخزينة الفرنسية . لم يفر بورين للنابليون ذلك الحكم القاسى ، وبقى من ذلك الحين حتى مات سنة ١٨٢٤ من أشد أعداء نابليون واسم نابليون . ولقد كتب بورين مذكراته في عشر مجلدات طبعت في باريس سنة ١٨٢٩ ، وصف فيها نابليون في جميع ادوار حياته ، وذكر حقائق لمطامعه .

ذلك الأرهاب ، وجد نابليون سلوة في دراسة علم الفلك الذي اعتبره
"و العلم السامى" .

رجع نابليون إلى قرشقة في خريف سنة ١٧٩٢ برتبة يوزباشى؛
وعلم أن أسرته مغضوب عليها من باؤولى ملك قرشقة غير المتوج ،
الذى حال دون انتخاب يوسف بونابرت للمؤتمر الأهلى في باريس ،
لأن باؤولى سياسى قديم لا يعتقد في كفاية شبان أسرة بونابرت
اليعقوبيين الذين أعانوا عليه أعداءه . وعلى الرغم من ذلك لم يقطع
نابليون علاقته بالرجل الذى ظل زعيم النابهن من أهل الجزيرة فتولى
تحت زعامته قيادة المدفعية في تلك الحملة التمهية إلى ما دالينا . ولما
حملت الأنباء إلى أجاكسيو قرار القبض على باؤولى كتب نابليون
عريضة للمؤتمر الأهلى في باريس ، محتج بلهجة شديدة على المعاملة
السيئة للمجفعة بوطنى عظيم شريف مثل باؤولى . بيد أن الفتنة التى
قامت في قرشقة كانت أشد من أن تهدئ ثأرتها رسالة مهما تبلغ
عبارتها من الحماسة ؛ لأن البونابرتين كانوا أصدقاء صاليتشى (Salicetti)
حاكم الجزيرة من قبل فرنسا ، وأنهم بذلك أعداء باؤولى . ولما شاع
خبر طيش لوسيان في بلدة كورت ، استحال بذلك عمل أى ترضية ،
وأصبحت المسألة حرباً بين أهل بونابرت ومن يمالئونهم وبين أهل
الجزيرة . حدث في أثناء تلك الشحنة أن أخذ نابليون أسيراً في قرية

بوكونيانو (Bocognano) الجبلية ، ثم تمكن من الهرب ، واختفى في أجا كسيو ، ومنها فر إلى شمال الجزيرة . وحدث ذات ليلة ، بعد ذلك بقليل ، أن أوقظت أم نابليون في جوف الليل ، لتهرب بأربعة من أولادها إلى وادي الزيتون الجميل قرب بلدة ميللي (Milelli) ، ومن هناك إلى حصن كاييتلو على البحر . وحدث أن أنصار باؤولي صبوا جام غضبهم على آل نابليون والمتمين إليهم ، فأحرقوا لهم ستة بيوت وطلحونا وبستانين ، فإكان من نابليون أزاء تلك المطاردات ، ألا أن سافر هو وأسرته على ظهر سفينة ، قامت من ميناء كالفي في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٣ ، ووصلت طولون بعد ثلاثة أيام . كل تلك الحوادث يمكن استيفاء تفاصيلها من بطون الكتب الكثيرة ، أو من أحاديث أهل الريف الحاليين في منازل قرشقة الحجرية .

كان ذلك الصيف حافلا بالحوادث في فرنسا : ففي الغرب قام الملكيون في وجه الحكومة ، وفي نورمنديا قام الجيرونديون ^(١)

(١) انقسمت الأحزاب في الجمعية التشريعية من بادى الأمر إلى ثلاثة ، وهى الحزب اليقوبى المتطرف ، وأشهر أعضائه جماعة الجيرونديين ، نسبة إلى إقليم الجيروندي الذى انتخبوا عنه . وكان الحزب اليقوبى حزب اليسار ، يقم على الدستور الفرنسى الجديد ، بعكس حزب الفويان الذى كان يعاضد الدستور . ولأنه كان هو حزب اليمين . لما للحزب الثالث فكان اسمه حزب الوسط . اشتمل على أفراد عرفوا بالخزير والتردد فكثروا يخدمون للحزب بعد الآخر دون اتخاذ خطة سياسية معينة ، اللهم إلا خطة الليل للاغلبية ، وهذا اضيف الايمان في السيلة .

(Girondins) أيضاً ، كما قاموا في بر دو ومر سيليا ، وفي ليون قامت ثورة خطيرة . واسترد الحلفاء بلجيكا ، وأجلوا الفرنسيين عن مرا كزهم الحربية على الحدود مثل ماينس وكونديه و فالنسين ، فأصبحت فرنسا مهددة بزحف جيوش الحلفاء إلى داخلها . وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٣ وصل طولون ، البناء الحربية المهمة على البحر الأبيض المتوسط ، أسطول انجليزي يمتحق عليه علم لويس السابع عشر . لم تشهد الحكومة وقتاً أشد خطراً على كيانها ، وعلى وحدة فرنسا ، من ذلك الوقت الذي ترك المعتدلين المتوسطين حيارى لا يعرفون أى منقلب ينقلبون ، أذ كانوا بين عوامل متضاربة : حكومة ملطخ اسمها بقتل الملك ، وتجاوز الحد في أحكامها العرفية ، وعلم أبيض يخفق رمزاً للرجعية ، وجيوش للحلفاء تتقدم وتتوغل في البلاد تحمل لها الإهانة والعار .

لم يجد نابليون صعوبة في تخير طريقه : رأى من صالحه أن ينضم للحكومة القائمة رغم احتقاره لسانسة بارييس القابضين على زمام الأمور ، فأعلن في صراحة ، أن حياة فرنسا متوقفة على حزب الجبلين (١)

(١) لما انعقد للأمر الأهل بعد الجمعية التأسيسية في سبتمبر سنة ١٧٩٢ كانت الأحزاب الميعة في الحاشية السابقة قد تغيرت أوضاعها ومبادئها : أذ أصبح الجيرونديون حزب اليمين وأصبح بقية الحزب العقوي حزب اليسار . وكان في الحزب ثلة شديدة التطرف أخذت مقاعدها في أعلى شرفات المجلس فلقبوا بالجبلين (Montagnards) وكان بين حزبي اليمين واليسار حزب ثالث عرف لعضائه باسم السهل (La Plaine) وكانوا يقيمون رأى الفريق الأقوى .

بعد ذلك بقليل ، اى فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٣ : التحق عملاً بـ نصيحة صديقه القرشقى سالىتشى كقائد للمدفعية بمجيش الجمهورية العسكرية أمام طولون ، حيث ظهرت صفاته العسكرية لأول مرة . ذلك أنه رأى قبل أن يخطر ببال أحد أن نجاح الحصار يتوقف على أرغام الأسطول الانجليزى على ترك الميناء الداخلى ، وأن أحسن وسيلة للوصول إلى ذلك الغرض هو حصن ليجيات (L'Éguillette) الواقع فى نهاية الطرف الغربى من رأس كير (Caire) . وبعد مضى ثلاثة أشهر قضاهما نابليون بعزيمة لا تسكل وشجاعة لا تقل توجت أعماله بالنجاح التام ، أددخلت جيوش المؤتمر الاهلى طولون ظافرة فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ ، وأتت من أعمال الانتقام الشنيعة ما أنسى الناس فظائع أيام الحصار . لاجرم أن الحكومة — وعلى رأسها روبسبير^(١) — أصبحت مدينة للضابط الشاب الذى تسبب فى ذلك الانتصار الباهر ، فى وقت ما كان أحوج الحكومة إليه . لذلك كافأته بالترقية إلى رتبة لواء ، وفى ربيع سنة ١٧٩٤ أوفدته — بناء

(١) ولد مكسميليان روبسبير (Maxmilian Robspierre) سنة ١٧٥٨ فى باريس وتربى فى كلية بها حيث تعرف بديمولان (Desmoulins) الذى كان له بعدئذ شأن كبير فى الثورة الفرنسية . وفى سنة ١٧٨١ أصبح روبسبير عامياً ، وانتخب سنة ١٧٨٩ لمجلس طبقات الأمة ، وصار بسرعة أحد زعماء حزب اليسار ، وظل نفوذه يزداد حتى أيام المؤتمر الاهلى وحكم الارهاب ، حين عين عضواً فى ١١ لجنة الامن العام ، ، ثم انفرد بالسلطة ، وأصبح الحاكم المطلق فى فرنسا لمدة ثلاثة شهور من ابريل إلى يوليى سنة ١٧٩٤ .

على طلبه - إلى جنوا بحجة المخاربة لتوريد مواد غذائية ، والغرض الحقيقي درس الجهة تمهيداً لإعلان الحرب .

لا ينبغي أن حياة أى قائد من قواد جيش الجمهورية ، مهما يكن إخلاصه وقدره ، كانت متوقفة على وشاية واش أو كيد كائد . مثل ذلك أن نابليون كان صديقاً لروبسبير ، والرسول السرى لحكومة الأوثاب (١) ، ومع ذلك اشتبه في اشتراكه في ثورة ترميدور (٢) ؛

(١) بعد أن حوكم لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وحكم عليه بالاعدام في ١٧ يناير سنة ١٧٩٣ ، رأى زعماء الثورة أنه قد تحتم عليهم المضي فيما شرعوا فيه من الأوثاب ، سوله أرغبوا في ذلك أم كرهوا ، حتى لا تنسخ الفرصة للرجسين وانصار الملكية بالتأثر منهم . وكانت الظروف كلها قد تهيأت لهم لتحقيق اغراضهم فقد أحاطت بالبلاد لاذ ذلك أخطار عدة نشأت عن حالة الفزع التي لوجدها قتل الملك في داخل البلاد وخارجها ،

(٢) تفصيل ثورة ترميدور أنه لما خاف كثير من أعضاء المؤتمر الأثلي على ارواحهم من فتك روبسبير الذي أصبح الحاكم بأمره في فرنسا ، وبدلوا يحسون أن حاجة للأوثاب وارقة السلام ، تآمروا على روبسبير وانتهى الأمر بأرساله إلى القلعة في ٢٩ يولييه سنة ١٧٩٤ الموافق ١٠ ترميدور بحسب تقويم الحرية الفرنسية .

هنا يجدر ذكر شيء عن تقويم الحرية الفرنسية ، الذي وضعه المؤتمر الأثلي ، ليحل محل التقويم الجريجورى ، على أن يكون مبنوً تاريخ إعلان الجمهورية في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ . وقد وضعت في التقويم أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول ، وعي نظام الأسابيع : فقسمت السنة إلى اثني عشر شهراً وهي قندمير وبرومير وفريونيفوز وبلغوز وفتوزوجرمينال وفلورال وبريرال وميسور وتريدور وفريكتيدور . والتأمل في معاني تلك الأسماء في اللغة الفرنسية يجد أنها تدل على اللباس الزراعية والجنوة المختلفة في فرنسا . وكان كل شهر بحسب ذلك التقويم يحتوى على ثلاثين يوماً ، مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها عشتاً أيام . وكانت أسماء الأيام عديدة موزونة على اللاتينية ، وكان اليوم العاشر دائماً يوم عطلة ليحل محل يوم الأحد في التقويم الجريجورى . ولكي يوفق بين سنة تقويم الحرية الفرنسية والسنة الشمسية اتفق على إضافة خمسة أيام في آخر كل فريكتيدور ليكتمل عدد أيام السنة ٣٦٥ ، على أن تكون تلك خمسة الأيام عطلة .

ولما رجع من جنوا مزوداً بالمعلومات الجغرافية ، اتهم بأنه كان الرأس
 المفكر لروبسيير ، وترعت منه درجته الحربية ، وزج في اعماق سجن
 حصن كاريه (Carré) قرب أنتيب (Antibes) في ١٢ أغسطس سنة
 ١٧٩٤ غير أن أوراقه لم يوجد بينها ما يثبت عليه التهمة ، لأنه كان يتجنب
 التدخل في الأمور مع ذلك الحاكم الراحل . يثبت ذلك أنه لما عرض
 عليه مكسميلان روبسيير قيادة الجيش الداخلي في باريس رفض اعتقاداً
 منه أن ليس لأى عنق نجاة من المقصلة في تلك المدينة ، وأن آونة
 اكتساب أكاليل النار فيها لم تكن بعد . أفاد ذلك الحذر نابليون ،
 إذ لم تثبت عليه التهمة الموجهة إليه ، فأطلق سراحه في ٢٠ أغسطس ،
 وأعيد إلى رتبته الحربية بعد ذلك بقليل . وسرعان ما برهن نابليون من
 جديد على عظم مواهبه ، لما شنت عن بلدة ديجو (Digo) ، في ٢١
 سبتمبر ، شمل فرقة من النمساويين ، حاولت قطع المواصلات بين
 فرنسا وجنوا ، وكان الفضل في ذلك للحركات الصائبة التي دبرها
 بصفته قائد المدفعية .

منذ ذلك الوقت أصبح نابليون شغافاً لتولى قيادة الجيوش في إيطاليا ،
 لألمامه بطبيعة أرضها ، ولأنه كان قد رسم خطة يمكن بتنفيذها
 القضاء على الجناح الأيسر للتحالف الأوربي ضد فرنسا . لكن
 الحكومة حالت بينه وبين ذلك ، واستدعته لينهض مع الجيش

المكلف بأخذ الثورات في غرب فرنسا برتبة أمير لواء المشاة . رأى نابليون أن لوأطاع الاثر ، فإنه سيلقى عملا لايدرى مداه ، وأنه سيخوض غمار حرب أهلية كلها مخاطر ، ليس من ورائها فائدة ، ضد عصابات غير نظامية من الاشراف والفلاحين الملكيين . ولنا ذهب إلى باريس ، وامتنع بجرأة عن تنفيذ ما كلف به ، بحجة المرض ، معتمدا على معاضدة بارا (Barras) وفريرون (Fréron) زعيمى حزب الاغلبية ، اللذين شاهدا بأعجاب مقدرته فى حصار طولون . ظل الحظ باسم نابليون فترة من الزمن ، فاستشارته لجنة الامور الحربية لرسم خطة جديدة للقتال فى إيطاليا ففعل ، وقبلتها الحكومة ، وبعثت بها لتنفيذ فى ميدان القتال . غير أن المقادير شاءت أن يحال دولسيه بونتكولان (Doulcet Pontecoulant) على المعاش ، وكان ظهير نابليون وصديقه فى الدوائر الرسمية . بذلك أصبح نابليون ولاعضد له ، وتنهت وزارة الحربية لمعاندته القديمة ، وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٥ بينما كان ينتظر أن يوقد الى القسطنطينية لتنظيم قوات المدفعية فى جيش السلطان ، شطب اسمه من قائمة القواد .

أنقذ نابليون من تلك السقطة قيام ثورة فى باريس : ذلك أن المؤتمر الاهلى الذى أصبح مكروها بحق من كل المتمين للملكية ، ومن كل المعتدلين ، أثار غضب الناس لما قرر أن يكون ثلثا الاعضاء

في الهيئة التشريعية المقبلة تحت نظام حكومة الأدارة الجديدة من أعضائه . أخذ الناس يقولون إن قرارا كهذا ، ليدل على أن كل ما عمل للخلاص من حكم الأرتهاب ، ولنح فرنسا حكومة منظمة محترمه ، ليس ألا كلاما لقيمة له . وقالوا أيضا ما فائدة الدستور الجديد ومجلس الأدارة الحماسي ، ومجلس الشيوخ ، ومجلس المحسمات ، وما إلى ذلك من الاحتياطات التي اتخذت لمنع تسلط الفوغاء — إذا ظلت دفة الأمور في يد تلك العصابة التي وقفت جامعة أمام مذابح سبتمبر^(١) ، والتي نفذت حكمي اعدام الملك والملكة ، والتي حوات باريس إلى مجزرة ، والتي أزهدت روح ولى العهد بأيداعه سجن الهيكل بضع سنين ؟ عزم الحرس الأهلى المؤلف من ثلاثين ألفا على الانتقام من تلك الهيئة التي قررت « قانون الثلاثين » ، المقوت ؛ ولما كان الجيش الموالى للمؤتمر لا يزيد على خمسة آلاف ، باتت الحكومة فى خطر شديد .

تخلص المؤتمر من ذلك المازق المخرج يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ بفضل مدافع القائد نابليون ، الذى عين ثانياً بواسطة بارا الذى لم ينس

(١) كانت أواخر أيام الجمعية التشريعية . أغسطس سنة ١٧٩٢ أباما عصية فى فرنسا لاقترب الأعداء من الحدود . لذلك قررت الجمعية القبض على الأشراف حتى يأمنوا شر الحياة قتلات بهم السجون . ولما وافت الأخبار بسقوط فردلان فى يد الأعداء لتولى الجزع على الجميع وطلقت بالسجون عصابات مسلحة وأودت بحياة كل من كان فيها . استمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر وبلغ عدد من قتل أثناء نحو ١٥٠٠ ، لذلك لفت بحق (مذابح سبتمبر) .

صداقته ومقدرته، والذي عين في الليلة السابقة قائداً لجيش باريس . ولما لم يكن بارا جندياً ، فقد آل أمر الدفاع عن المؤتمر إلى نابليون الذي أبلى بلاء حسناً . قال تيبو يصف نابليون في هذه الحادثة : « كان نشاطه يدهش الألباب ، حتى خيل ألياً انه حاضر في كل مكان في وقت واحد . وقد أدهش الناس بأوامره الوجيزة السريعة الواضحة ، حتى أعجب الكل بنشاطه في عمله ، وتحول أعجابهم ثقة به ، وثقتهم حماسة لعمل ما يأمرهم بأدائه » . ولما كان نجاح حرب الشوارع متوقفاً على المدفعية ، فإن مجيء مورا ^(١) بالمدافع من ميدان السابلون حقق النصر للمؤتمر . ذلك أن المجموع كانت كلما تقدمت من ميدان كنيسة سان روش نحو قصر التويلري حصدهم نيران المدافع حصداً ، وسرعان ما انجلت الواقعة عن انتصار جيوش المؤتمر ، وكانت خسائر الطرفين لا تتجاوز المائتين من النفوس .

لأشك أنه لو جاءت النتيجة على عكس ذلك لهُوت فرنسا من

(١) ولد يواقيم مورا (Joachim Murat) سنة ١٧٧١ . وهو من أكبر قواد نابليون وأخطهم له ؛ تزوج كارولين اخت نابليون وعين سنة ١٨٠٨ ملكاً على نابلي . وقد رافق مورا الإمبراطور نابليون في الحملة الروسية سنة ١٨١٢ وكان قائداً الخيالة في موقعة لينز سنة ١٨١٣ . بيد أنه حصل تناقض بين نابليون ومورا حوالي ذلك الوقت . غاب مورا الحلفاء في الانضمام إليهم ، بشرط الاعتراف به ملكاً على نابلي . ولما رفض الحلفاء طلبه ، عاد مورا إلى نابليون وحارب معه في فترة « المائة يوم » ، ألا أنه هزم في إيطاليا ، كما هزم نابليون في واترلو وخسر كل منهما جيشه وتاجه .

جديد إلى حضيض القوضى والفتنة الأهلية . هذا ومهما تكن صحائف المؤتمر سوداء ، ومهما تكن أعماله شنيعة ، فانه كان لا يقل في شرف أغراضه عن كثير من مناوئيه ، بل يزيد عليهم ، لأنه كان يمثل المصالح الكبيرة في فرنسا ، ويعمل للمحافظة على ثلاثة أمور كانت تصبح في خطر لو قضى عليه في قندير^(١) : تلك الأمور الثلاثة هي التسوية العامة التي أنتجت الثورة ، واتحاد الأمة ، وحماية الحدود من الغزو الاجنبي . كوفيء نابليون بتعيينه قائدا للجيش الداخلي ، ولا يخفى أنه بأفناذه المؤتمر لم ينقذ لفرنسا نظامها الاجتماعي الجديد القائم على المساواة فقط ، بل أنقذ حكومة ملوثة يدها بدم الملك ، وعازمة على مواصلة القتال ضد المغيرين على حدود بلادها .

في تلك الآونة التي زها فيها الخط ، وقع نابليون أسير حب امرأة من أصدقاء بارا وتاليان^(٢) ، وهي أرملة الماركيز أسكندر بوهارنيه الذي كان قائدا في جيش الجمهورية ، والذي دقت المقصلة عنقه أيام حكم الأتهاب ، كما دقت أعناق كثير من الأبرياء والمخلصين مثله . ولدت جوزفين بوهارنيه في جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية

(١) قندير أول شهور السنة في هوم الحرية الفرنسية ، وقد وقعت الفتنة المذكورة في اليوم الثالث عشر منه .

(٢) ولد جان لامبرت تالليان Jean Lambert Tallien في باريس سنة ١٧٦٩ . وهو حذرماء الثورة في اول ادوارها ، وبرجع اليه الفضل في تدبير المؤامرة التي انتهت بأعدام روبسبير .

سنة ١٧٦٣ ، وكانت على جانب عظيم من الرقة والجاذبية شان سكان الجنوب ذات صوت خافت رنان ، هيفاء القد ، حلوة اللسان ، رشيقة الحركة . وكان حسن ذوقها في المحافل ، لا يقل عن حسن مجيهاها . وكانت قادرة على إخفاء ما نقص من تربيتها العقلية والمدرسية ، حتى لم يك في مقدور أكبر رواد الصالونات تأنيقاً أن يعيب عليها شيئاً .

أما نابليون القائد الشاب ، الذي لم يكن في اصرار وجهه وقصر قائمته وخشونة مظهره ما يجلب النساء فيه . فانه وقع في حب تلك الازملة الأرسوقراطية التي زادت عليه بست سنين . ولم يثنه عن حبها فقر تشكوه وطفلان تعولهما ؛ لأن صداقتها اللينة مع بارا ذى النفوذ الكبير ، رجحت على كل الاعتبارات الأخرى ؛ هذا اذا سلمنا جدلاً أن للتفكير والتقدير مجالاً مع الحب المبرح .

• أما جوزفين فكانت من الرزانة والروية بحيث ملكت عواطفها ؛ غير أنها لم تلبث أن خضعت لإرادتها لتلك الشجاعة والثقة بالنفس وسعة العقل ، ولتلك النظرة المتغلطة التي كأنما ينبعث منها شرر تخشع منه الأبصار ، ولتلك النار الكامنة في طيات ذلك الحب المبرح . وكيف تعجز جوزفين أمام كل ذلك عن أدراك أن الأليم تكن مستقبلاً زاهراً لنابليون ؟ تم الزواج آخر الامر في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ ؛ وقبل ذلك بيومين عين نابليون قائداً للحملة الإيطالية بناء على اقتراح

كرو^(١) في مجلس الخمائة ؛ أذ أدرك ذلك الرجل المحرب ، الذي كان المحور الأكبر في انتصارات الثورة في الخارج ، قيمة الخطة التي وضعها نابليون في صيف السنة السابقة ، وقدمها إلى لجنة الأمور الحربية ، وأشار بأن يعهد إلى الجنرال بوناپرت أنفاذ الخطة التي وضعها.

(١) ولد لازار كرو (Lazarre Carnot) علم ١٧٠٢ ، ودخل الجيش الفرنسي مهندسا سنة ١٧٩١ ، وانتخب عضوا في الجمعية التشريعية وفي المؤتمر بعدها حيث كان من المتطرفين الذي صوتوا في جانب اعداء لويس السادس عشر . وفي تلك الاثناء عين كرونفي وولجنة الامن العام ، ونيط به ادارة الشؤون الحربية . ولا يكاد التاريخ يعرف لقلك الرجل مثيلا في قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها ، ولم يحل المحول على تهيئة حتى كانت هزائم فرنسا قد انقلبت انتصارات .

الفصل الثاني

المحمدية الإيطالية

ظلت الحرب قائمة بين الثورة الفرنسية وملوك أوروبا نحو أربع سنين كانت الجيوش الفرنسية في أولها تعبث بها آفات الجبن والفتنة. ثم ما لبثت أن أدهشت العالم بشجاعتهما وإقدامهما ، ففتحت بلجيكا وهولندا وساقوى ونيس ، وغزت غير مرة بلاد الألمان ، وفازت في عهد العلم ذي الثلاثة الألوان بما كانت تحلم به - ولا تناله - في زمن علم الملكية البرونية الأبيض - وبلغ مجد فرنسا شأوا جعلها تعتبر استرداد حدود الغال القديمة^(١) الممتدة الى الرين وجبال الألب شرطا جوهريا في سياستها لايقوم للسلام قائمة بدونه . لم يكن السبب في ذلك التعالى التحقق من تفوق الجيوش الفرنسية فقط ، أو كمال المعدات التي جعلتها أحسن جيوش أوروبا ، بل حماسة الأئمة الفرنسية التي بدأت تتدرج في مضمار الحرية . لذلك السبب وجدت

(١) الغال هو الاسم الذي كان يطلق على بلاد فرنسا الحالية من بحر المانش وخليج بسكاي الى نهر الرين وجبال الألب قبل دخول قبائل الفرنك في القرن الخامس الميلادي وتسميتهم تلك البلاد باسم مشتق من اسمهم أي فرنسا .

الملكيات القديمة ، الشحيحة بدماء جيوشها المرتزقة ، نفسها
قبالة دولة مستعدة لتضحية آلاف من أبنائها كل أسبوع ؛ وراعها
ذلك البذل الذي فاق ما بذله فردريك الأكبر ملك بروسيا من
النفوس في مواقعه . فتبيح عن ذلك أن أخذ تحالف ملوك أوروبا^(١)
يتفكك ، نظراً لتكاثر الصعوبات في وجهه ، فضلاً عن أن التحالف
نفسه لم يكن من أول الأمر وثيقاً . لذلك انسحبت بروسيا من
الحرب سنة ١٧٩٥ ، وجرت وراءها كل شمال ألمانيا ، وحذت إسبانيا
حذوها . أما روسيا فبقيت معادية ، ولكنها لم تحرك ساكناً لاشتغال
جنودها في بولندا ، ولمرض القيصرية مرضاً قضى على حياتها .

لم يبق إلا من الدول الكبرى في حالة حرب مع فرنسا سوى
انجلترا والنمسا ، اللتين أصرتا على عدم الاعتراف بالحدود الفرنسية
الجديدة . لذلك أصبح استمرار الحرب البرية متوقفاً على موقف
النمسا ومقدرتها . أما انجلترا فلمعها أن الثورة قد أفسدت نظام البحرية
الفرنسية ، رأت أن في استطاعتها الاستيلاء على مستعمرات فرنسا
والتربص بأساطيلها التجارية ، وأرسل جيوشاً للغارة على ممتلكاتها
ولا جرم أنه كانت هناك صعوبات متنوعة في محاولة فرنسا الحصول
على اعتراف رسمي من هاتين الدولتين بحدودها الجديدة ؛ لأن

(١) هذا التحالف معروف في تاريخ أوروبا أثناء الثورة الفرنسية . بلسم : التحالف الأول .

الاعتراف بنظرية الحدود الطبيعية معناه أن تصبح فرنسا حاكمة بلجيكا بما فيها نهر الشلت ، ذلك المجرى المائي ذى الأهمية التجارية العظيمة ، الذى طالما أثاره الغيرة بين هولنده وانجلترا ، حتى أدى الامر إلى عدم استعماله للملاحة ، فضلا عن أن بلجيكا فيها أيضاً ثغر أنقرس العظيم الذى إذا استولت عليه دولة قوية ، أمكنها مزاحمة لندن في سيادتها التجارية . ثم انه كان يستحيل أن تتخلى النمسا عن أرضها البلجيكية لفرنسا بدون تعويض ، فوق أن انجلترا تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى العلم الثلاثى الألوان يخفق على أنقرس . على أن مسألة البلجيك ، التى كانت موضع اهتمام الوزارة الانجليزية ، لم تك موضع الخلاف الوحيد بين فرنسيس الثانى امبراطور النمسا وبين الجمهورية الفرنسية ؛ لأن ذلك الامبراطور الشاب العنيد القصير النظر ، كان عاقداً العزم بصفته ابن أخى مارى انطوانيت (١) وحليف ملوك بربون ، على أن يتنقم لما حل بأسرته من الاذى ، وبمقام الملوك من الاهانة ، ولما لهم الحق فى حماية المصالح الألمانية على نهر الرين بصفته امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولما عليه من واجب المساعدة لسردينيا التى انتزعت منها ساقوى ونيس ، إذ أن ملك سردينيا يعد حارس أبواب إيطاليا الغربية ، وليست إيطاليا نفسها

(١) زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا ، قتلت بعد زوجها فى أكتوبر سنة ١٧٩٣ .

إلا من لوازم النمسا ، ومصالحها في أن تكون إيطاليا بعيدة عن تأثيرات الثورة الفرنسية أكثر من مصالحها في المحافظة على أنفوس أو حماية نهر الرين ، أو الانتقام لضحايا المفصلة من الملكيين .

كان يهيم نابليون أن يفوز في إيطاليا ويحصل على صلح شريف . وقد رسم الخطة لذلك في مذكرة بديعة ، كتبها في يولية سنة ١٧٩٤ لروبيسيير - الذي كان أصغر منه سناً - أشار فيها إلى ضرورة اتخاذ خطة الدفاع على الحدود الألبانية وخطة الهجوم العنيف على الحدود الإيطالية . أما وقد أصبح بيده قيادة الجيش في إيطاليا ، فإن خطته كانت أن يسير من سهل الريفيرا عبر جبال الألبين ، ليقطع حلقة الاتصال بين الجيوش النمساوية والسردينية المنتشرة على المار الواقعة شمال بلدة ساقونا ، حتى إذا تم له فصلهما أمكنه إخراج النمساويين من إيطاليا وعبور جبال التيرول إلى بافاريا ، أو التقدم من عند تريستا شمالاً حتى يتصل بالجيش الفرنسي عند الرين ، ثم يتقدم ظافراً بالجيشين نحو فيينا فيملي شروط الصلح عند أسوارها .

من المعلوم أن فن الحرب متمش مع التقدم العلمي والمادى : ففي القرن السابع عشر لما كانت البنادق تحشى من فوهاتها ، ومدفعية الميدان ثقيلة الحمل صعبة الاستعمال - حتى أن اثني عشر مدفعاً كانت تعتبر كافية للجيش ، وست قدائف كافية لأي ملحمة - في ذلك الزمن

كانت الغلبة في الحرب للسيف وأسنة الحراب . وكانت الملاحم على ندرتها قصيرة حاسمة . وفي تلك الملاحم كان تعيين مراكز حملة الحراب وحملة البنادق ورجال المدفعية والخيالة يستغرق معظم اليوم ، كما كان تغيير المراكز عند الحاجة يستغرق ساعات كثيرة . أمام كل تلك الظروف لم يكن في مقدور أى قائد حازم أن يقسم القوى التي تحت إمرته ، أو يخاطر بالاشتباك مع جيش يفوق جيشه عدداً ؛ كذلك كان من المستحيل أن يرغب أى جيش ، مهما يكن متفوقاً ، جيشاً آخر على الاشتباك معه ، مادام الآخر لا يريد ذلك ؛ وكان في مقدور القائد الحازم أن يخفى مركز جيشه لمدة أسابيع ، وأن يقوم بعمل مناورات بدون أن يشتبك في موقعة لقراءة سنة .

شهد القرن الثامن عشر ثورة في فن الحرب بإدخال سلسلة من التحسينات في الأسلحة النارية : فإذ وافت سنة ١٧٢٠ حتى كانت بندقية الجندي في فرقة المشاة تصلح لأطلاق أكثر من طلقة واحدة في الدقيقة ؛ ثم اخترع مدفع للميدان خفيف الحمل سهل الاستعمال ؛ ثم جاءت المدفعية التي تجرها الخيل (المدفعية الراكبة) . وأخيراً جاء اختراع جريو فال (Gribeauval) عام ١٧٦٥ ، وكان ضابطاً في جيش لويس الخامس عشر ، وهو عبارة عن مدفع للميدان عظيم المنفعة ، خفيف الوزن . ولم تقتصر نتيجة تلك التحسينات على المدفعية ، التي

أصبحت على جانب عظيم من الأهمية في الحرب إذ صار المدفع لا أول مرة عاملاً مهماً في حركات المشاة ، بل تغيرت كل قوانين خطط القتال وتدابيره ، حتى أصبح من الممكن تجزئة الجيوش إلى فرق ، ما دام في استطاعة الفرقة الواحدة أن تدفع عن نفسها ضد قوة متفوقة إذا كانت في موقع حسن ، أو أن تسلم بنفسها على الأقل إذا وقعت في مأزق بسلسلة حركات ساقية . ومن ثم أصبحت مسألة المسائل أمام رجال الحرب كيف يستفيدون من تلك الطريقة الجديدة ، وهي سهولة القيام بمناورات حربية على طول الخط الأمامي بقوة يمكن تغيير أوضاع فئاتها تدريجاً . وكذلك انقضى نظام إبقاء الجيش كتلة واحدة ، ونظام اصطفاف الجيوش للقتال ؛ وصار في مقدور القواد تسير الجيوش من نقط متباعدة إلى خطوط النار ، وإرسال فرقة لشد أزر القوى المغلوبة أو لتحويل نظر العدو عن نقطة الهجوم الحقيقية . وأصبح من الضروري معرفة طبيعة الأرض وانحدار الطرق حيثما كثرت وحدات الجيش . وبات من الممكن كسب موقعة باستخدام المصورات والبوصلة ، وتقرير مصير معركة بانقضاء فرقة واحدة على جيش مختل مغلول الكنايب ، بشرط أن تظاهر الفرقة المهاجمة نيران المدفعية مجمعة .

أدرك الكتاب الحريون الفرنسيون الذين عاشوا قبل الثورة

مبادئ فن الحرب التي بنيت على التعبيرات المتقدمة ، وأوضحوها في كتاباتهم ، ووفوها حقها من البحث ، قبل أن تسنح فرصة لتجربتها في ميادين القتال . مثل ذلك أنهم عرفوا قيمة الحركات الهجومية ، وضرورة السرعة في تواصل فئات الجيش قبل القتال ، واستخدام المدفعية كتمهيد لهجوم الكنايب كتلة واحدة . وعرفوا أيضاً أهمية المدفعية الراكبة في مجال الحركات الساقية ؛ بل ونصحوا في كتاباتهم بضرورة خفة حركة الجيوش ، ذلك الأمر الذي يستلزم الاستغناء عن فرق لنقل المؤن والذخائر ، وإرهاق القرى والبلاد المحاذرة للمعسكرات بما يحتاجون إليه . وبالجملة فقد كانت كل أصول فن الحرب : مثل وجوب مضايقة العدو باستمرار ، وإخراجه من استحكاماته القوية ، ومفاجأته تحت جناح الظلام ، وإرباكه بهجمات عنيفة على مواطن ضمه — كل تلك الأصول كانت معروفة لكل من درس مؤلفات الكتاب الحربيين جيبير (Guibert) وجريوفال وبورنسيه (Bourcet) ودي تي (Du Teil) . وعلى ذلك كان بونايرت ملماً تماماً بكل القواعد الجديدة في فن الحرب ؛ إنما يرجع له الفضل في تطبيقها ، وإثبات أثرها الفعال .

اتبع نابليون تلك القواعد الجديدة ، على أنه لم يزد عليها ؛ وليست الجيوش الفرنسية مدينة له إلا بأنه هو الذي قادها للنصر

المين: ذلك أنه لم يخترع آلة تحرية جديدة ، ولم يتكرنظاماً جديداً ، ولم يضع قواعد جديدة لحركات الهجوم والدفاع ، بل اتهمج ما وضعه غيره من طرق التسليح وتدريب الجنود ، وطرق الحرب التي كانت متبعة في الجيش الفرنسي القديم ، الذي قضى فيه أيامه الأولى . إنما كان نابليون يفضل من طرق الهجوم النظام المزدوج ، الذي أوصى به جيبير ، للجمع بين تأثير نيران الخطوط الأمامية وتأثير قوة الكتائب المتراصة لهاجمة ، باستخدامها بالتعاقب . لكنه لم يتبع تلك الطريقة دائماً ، بل كان يقصرها على ذلك الجزء من الميدان الذي يريد تطويق العدو فيه ، حتى إذا ماسحت الفرصة للانتفاض عليه نيط الهجوم بكتل متراصة . ومع ذلك فكان نابليون يترك لضباطه إئارة الخطط الفرعية ، أما وو الخطط العامة ، ، كما سهاها - المختصة بتوزيع الفرق على الميدان ، واختيار نقط الضعف في صفوف العدو التي يجب مهاجمتها ، وتصويب كل نيران المدافع نحوها ، فكانت من اختصاصاته ، وفي تلك قلما طاش سهمه . غير أن طريقة هجوم الكتائب المتراصة التي اتبعتها جيوش الثورة الفرنسية ، كان نجاحها متوقفاً على عدم ثبات الصفوف التي تهاجمها ؛ لأنه يشترط أن يدب الخلل في صفوف الجيش المواجه لها بفعل المدافع أو مناورات الطلائع ، حتى يكون لمفاجآت الكتائب أثر فعال . أما إذا كانت جيوش العدو مكونة

من رماة لا يعرف الروع لنفوسهم سيلا ، تحميمهم من نيران المدفعية
طبيعة الأرض المرابطين بها ، ففي تلك الحالة لا يجدى هجوم
الكتائب شيئاً ، لان نيران الرماة تحصد جهة الكتيبة فتضيع الواقعة
قبل أن تتمكن قوة تلك الكتيبة من الانهيار بأجمعها على خصمها ؛
وهذا سر انتصار الجنرال ستينوارت الإنجليزى فى موقعة ميدا سنة
١٨٠٦ ، وانتصارات ولنجتون فى حرب شبه الجزيرة ^(١) . غير أنه
لا يفوتنا أنه لما تسلم نابليون قيادة الحملة الإيطالية سنة ١٧٩٦ كانت
طريقة هجوم الكتائب المتراصة غير معروفة القيمة ، لأنه حتى
تلك السنة لم يقف أى جيش أمام القوات الفرنسية ، وأظهر الثبات
والسداد فى ضرب النار اللازمين للتحقق من مزاياها .

يلاحظ أن الجيش الفرنسى ، الذى كان أحسن جيوش أوربا
فى أواخر عهد لويس السادس عشر ، بلغ درجة أعلى من القوة بسبب
الانقلابات السياسية التى حدثت فى فرنسا . ذلك أنه على الرغم
من مهاجرة كثير من ضباطه ، ظلت قوته الحربية كامنة فيه لبقاء
معظم رجال الجيش الملكى من مدفعيين ومهندسين فى خدمة العلم
الثلاثى الألوان ؛ فضلا عن أن جيش الوطن والشعب أصبح لا يجمع
للتضحية مهما تعظم ، وقادراً على خفة فى الحركات الحربية التى لم

(١) سيأتى الكلام على حرب شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال فى الفصل التاسع .

تكن معروفة من قبل . ولا غرابة فقد أصبحت أبواب الرقي مفتوحة لكل جدير بها ، بعد أن كانت موصدة إلا في وجهه لا شراف ، حتى صار من الممكن لرجل قادر أن يصبح في بضع سنين في مصاف عظماء القواد . زد على ذلك أن النفوس رخصت في سبيل الوطن ، وأصبح الجيش ذخراً في الملمات ، بعد أن كان معتبراً متاعاً للملك يجب المحافظة عليه ؛ وسرت حمية الأمة إلى ثكنات الجيوش ، فأصبح كل جندي مستعداً للملاقاة الصعاب وتذليلها في سبيل ذلك الجهاد الذي لم يسبق أن وقعت أمة حياتها لنيله .

لما تولى نابليون القيادة في إيطاليا ، لم يكن معروفًا لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ، ذا الوجه النحيف ، والقامة الضئيلة ، والذي أبرز اليهم صورة عروسة مفخرة بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة وتدبير المكائد . ولكن بعد أن وضع قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد في الطول قدمين ، ، كما لاحظ مسينا (١) الذي قال عنه أيضاً : « بدأ يناقشنا في مراكز فرقنا وفي الروح المعنوية

(١) ولد أندريه مسينا (Andrea Masséna) في سنة ١٧٥٤ من أبوين فقيرين . بدأ حياته جندياً أبان الثورة وارتقى بسرعة ، ولقي بلاء حسناً في الحرب الإيطالية حتى لقبه رئيسه نابليون (*Enfant chérie de la victoire*) . وظل مسينا بكسب لنفسه الفخار حتى أصبح مارشالاً سنة ١٨٠٤ ، وبقى يعمل في ميادين القتال حتى أيام حرب شبه الجزيرة حين غضب عليه نابليون . ولما رجعت الملكية البروتية دخل مسينا في خدمتها حتى مات سنة ١٨١٧ .

والقوة الحربية السائدة في كل فرقة ، ثم رسم لنا الحطة التي نسير عليها . بعد ذلك أعلن أنه سيقوم في الغد باستعراض الجيش ، وأنه سيبدأ مهاجمة العدو في اليوم التالي بعده ، . كان مسينا وبرتييه^(١) وأوجيرو^(٢) أكبر من نابليون سنًا ؛ لكن القائد الجديد كان يتكلم بتؤدة ووقار وروية ، حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الابطال ، وكانت الامة المتأججة فيها الحماسة ، التي أثارها فيها حب نصره الشعوب مستعدة للسير وراء قائد مثله ، نفي عزيمة ماضية و ارادة حديدية ومهارة في فن الحرب وأسراره ، ألى فصاحة وقوة خيال ،

(١) ولد اسكندر برتييه (Alexandre Berthier) سنة ١٧٥٢ . وكان أبوه جندياً فأدخله الجيش سنة ١٧٧٠ . ارتقى برتييه بسرعة حتى صار رئيس لركن حرب الجيش الفرنسي في الحملة الإيطالية ، وقد رافق نابليون إلى مصر بالوظيفة نفسها . ولما أصبح نابليون قسلاً سنة ١٧٩٩ قلده برتييه وزارة الحرية ، وظل يعمل حتى سقط نابليون سنة ١٨١٤ . عند ذلك اضطر برتييه الى الخضوع للملكية الجديدة في فرنسا ، غير أنه لما رجع نابليون من إلبا لم يطبق برتييه البقاء في فرنسا ، فاحتجب عن الناس ، وأقام في بلدة على الحدود حيث كان يتبع حوادث وطنه . وفي أثناء الحرب الأهلية بين نابليون وأوروبا سنة ١٨١٥ ، كان برتييه يظلموما من شباك بيته ، فرأى فرقة من الجيوش البروسية اللطافة تقدم نحو الحدود الفرنسية ، فإطلق للتظرف فألقى بنفسه من الشباك إلى الشارع فمات .

(٢) ولد بيير شارل وأوجيرو (Pierre Charles Augereau) سنة ١٧٥٧ . وكان أبوه بائع قاكهة في باريس . خدم أول حياته في الجيش الفرنسي ، ثم اشتغل كأستاذ في المصارعة . وفي سنة ١٧٩٢ دخل جيش الثورة الفرنسية ، ورتقى في أقل من ثلاث سنوات الى رتبة قائد فرقة . وقد رافق نابليون إلى إيطاليا ، وبقي يرافق حتى صار من أكبر وأخلص القواديين الذين اتفوا حوله نابليون ، ومات سنة ١٨١٦ .

وحب للصيت وقدره على مس أوتار القلوب ببضع كلمات في بلاغ
أو نشرة حربية .

ولقد تعد فاتحة حروب نابليون في إيطاليا بحق نموذجاً من نماذج
فن الحرب : إذ طارد القائد الشاب الجيوش النمساوية إلى ما وراء نهر
إلبو ، وأرغم السردنيين على مهادنته في أقل من عشرين يوماً —
أحرز كل ذلك بأربعة وعشرين مدفعاً من المدافع الجبلية الخفيفة ،
وعدد قليل من الحيلة وجيش من المشاة ، ينقص في العدد عن جيوش
أعدائه قليلاً ، فضلاً عن سوء حالته وقلة ميره . بيد أن مقدرة نابليون
في سرعة تحريك جيوشه جعلها تفوق في العدد جنود الأعداء عند كل
معركة مهمة ؛ ولا عجب فإن الحرب كانت بين الشباب الناهض الثواب
وبين الشيخوخة والهرم ، بين دقة الإلزام بتفصيل ميدان القتال والمجمل
المطبق^(١) . ولا يفوتنا أن من أسباب نجاح نابليون دربة الجيش الفرنسي
على القتال في الأراضى الجبلية قبل أن يقوده هو ، وكان حزم القائد
الشاب لا يقل في الاعتبار عن صولة جنوده . مثل ذلك أنه لما فصل
جيوش الأعداء عند منتنت^(٢) (Montenotte) ، لم يقتف أثر النمساويين
الذين ولوا الأربار إلى سهول لمبارديا ، بل تحول شرقاً لاققاء

(١) المقصود هنا مقارنة بين الشاب نابليون والقائد النمساوي الهرم بوليو (Beaulieu) .

(٢) أنظر مصور رقم ٣ إيطاليا لتحقيق من مواقع البلاد التي نشبت عندها الحروب في ذلك
الفصل من الكتاب .

اليديمنتين^(١) ، حتى يتمكن بالقضاء عليهم من بقاء مواصلاته مع فرنسا . وقد انتصر عليهم في مندوڤي (Mondovi) وتشيفا (Ceva) ، ولو كان في مكانه قائد عادي لرحف على تورين عاصمة يديمنت ، ليملي بها شروط الصلح . لكنه لم يفعل ذلك ، بل عقد مع اليديمنتين هدنة عند تشراسكو (Cherasco) ، حصل بمقتضاها على كل ما يحتاج إليه : إذ استولى على ثلاثة معاقل ، وعلى جميع الطرق الحربية التي تحترق يديمنت . بذلك دل نابليون على أن السر في قوته هو عدم إضاعة الوقت في إحراز انتصارات صغيرة تافهة ، وإلمامه التام بجميع ما يلزم لعمله في نواحي ميدان القتال . ثم اقتحم نابليون جسر لودي في ١٠ مايو من السنة نفسها ، ولم تمض خمسة أيام حتى كان في طريقه إلى ميلان . كان أهم شيء في الأعمال الحربية التالية حصار مدينة مانتوا القوية ، التي كان فيها من المؤنة ما يكفي لمدة أربعة أشهر ، ومن الحاميات ما يبلغ ثلاثة عشر ألفاً . ذلك أنه ما دام العلم النمساوي ذو النسر الأسود ، يخفق على تلك المدينة الحصينة المشرفة على نهر المنشيو (Mincio) ، فلن يستطيع الفرنسيون التقدم شمالاً نحو التيرول ، ولا شرقاً إلى تريستا ، لا سيما وأنهم لا يمكنهم أن ياتنموا الدويلات الإيطالية الصغيرة التي كانت تعطف على النظام القديم ، وتعتبر دخول ذلك الملحد

(١) اليديمنتيون نسبة إلى مملكة يديمنت ، ويسمون أيضاً بالسردينيين ، لأن يديمنت وسردينيا ميلان على سمي واحد ، وهي للملكة الواقعة في الشمال الغربي من إيطاليا وتحوي على يديمنت وجزيرة ساردينيا .

وجيشه الجمهورى فى بلادهم ذات الثقافة القديمة مبرراً كبيراً للفوضى .
أرسل النمساويون جيوشهم أربع مرات لفك الحصار عن ماتتوا، وصددهم
نابليون فى الأربع المرات ؛ وهنا أيضاً كان عدد الفرنسيين أقل من
عدد النمساويين ، غير أن نابليون أدار حركات جيوشه بمهارة كانت
تجعلها فى أخرج ساعات القتال، حول الأماكن المهمة، أكبر من أعدادها
عدداً . فقد بلغ عدد أول جيش أرسلته النمسا لفك الحصار عن ماتتوا
خمسين ألف . مقاتل تحت قيادة فرمزر (Wurmser) ، وكان كل
ما أعده له نابليون اثنين وأربعين ألفاً منهم عشرة آلاف تحت قيادة
سرورييه (Serurier) مشغولين باستمرار الحصار .

وكان المنتظر إذن أن يفوز فرمزر بالمعركة ، لكن النمساويين أخطوا
فى تقسيم قواتهم : إذ سار فرمزر ونهر الأديج على رأس اثنين
وثلاثين ألف مقاتل متبعاً الطريق بين بحيرة جاردا والنهر ، على حين
سار القائد النمساوى الآخر كوازدا نوفتش (Quasdanovitch) متبعاً
الشاطئ الآخر للبحيرة على رأس ١٨٠٠٠ مقاتل . وعلى الرغم من
ذلك الخطأ كان الجيش الفرنسى غير كاف للقيام بما ألقى على عاتقه ،
حتى أنه قرّر أن المجلس الحربى الذى عقد فى روفر بلا (Roverbella)
فى ٣٠ يولييه سنة ١٧٩٦ ، على ترك الحصار وترك المعدات التى كانت
مهيئة له ، وحشد كل القوات الفرنسية لصد الجيوش النمساوية الآتية

لفك الحصار . وسواء ا كان هذا العزم بناء على اقتراح أوجيرو أم غيرد ، فانه كان موافقاً لروح المخاطرة السائدة في الجيش الفرنسي ، متمشياً مع بصد نظر نابليون . ذلك أن الحسارة التي تنجم عن ترك الحصار وتضحية معداته ، ليست شيئاً بجانب الحسارة المعنوية التي تحمل بالجيش إذا اضطر إلى التقهقر ، أو إذا حلت به الهزيمة في الميدان . وكان كل غرض نابليون أن يقضى القضاء المبرم على كل قوات العدو قبل أن تتجمع وحداته جنوبى بحيرة جاردا ، فصد كوازداثوقتش أولاً بالقرب من لوناتو في ٣ أغسطس ، ثم وجه قواته إلى فرمزر الذى سترجيوشاً جديدة لجدد ماتتوا ، فهزمه في كاستليونه (Castiglione) بعد قتال عنيف ، وردّه إلى التيرول بخسارة ستين مدفعاً وعشرة آلاف مقاتل . بذلك خرج نابليون من ذلك المأزق الحرج فائزاً ، ورأى أن ينتظر وصول نجدات جديدة وأخبار انتصارات الجيوش الفرنسية فى جنوب ألمانيا . (١)

(١) كانت خطة الحكومة الفرنسية لمحاربة النمسا ترمي الى مهاجمة فينا من ثلاث جهات بثلاث جيوش منفصلة : يسير الجيش الاول بقيادة جوردان من جهة وادى الين ، ويسير الثانى بقيادة موور من طريق القلوب ، ويسير الثالث بقيادة نابليون من سهل المبارديا . سارت الجيوش الثلاثة وعندما هزم نابليون القائد فرمزر عند كاستليونه ، كان الجيشان الآخران مرابطين فى وادى الين ، وكانا على باب الاتصال معا لئلا يفرحوا ، الا انهما أخفقا وتقهقرا . وفى ربيع سنة ١٧٩٧ تسلم هوش القيادة بدل جوردان ، ونجح فى عبور الين ، غير أن موور عجز تلك المرة عن العبور لفة للراكب . وهكذا لم تصادف الجيوش الفرنسية فى وادى الين نجاحا . ثم مات هوش فى سبتمبر من السنة نفسها ، فزال بذلك أحتمل لحي نابليون .

في سبتمبر استأنف النمساويون الهجوم لفتك الحصار ، لكنهم كانوا أقل نظراً وأكثر تفككا من قبل : شطر فرمزر جيشه شطرين أحدهما تحت قيادة دافيدوفتش (Davidovitch) مخترقا الثيرول ، والاخر تحت إمرته بصفته القائد العام ، متخذاً وادي البرتنا طريقاً له . وفي ٤ سبتمبر انهزم جيش دافيدوفتش المؤلف من ١٠.٠٠٠ مقاتل عند روفرديو (Roveredo) أمام قوة ضعف عدده بالضبط تحت قيادة مسينا وأوجيرو وقوبوا (Vaubois) . أما نابليون الذي أوغل في وادي البرتنا ، في طريق بين الجيشين النمساويين ، فإنه بعد أن قطع ٥٧ ميلاً في ستين ساعة ، لحق بفرمزر واشتبك معه في ٨ سبتمبر ، وحمله خسارة فادحة تفهقر على أثرها إلى ماتوا ، فزاد الطين بلة بالانضمام جيش كبير كهذا لحماية قد تقشى الوباء في أفرادها . ولما كان من المتعذر متابعة الحرب في ذلك الوقت من السنة ، تركهم نابليون يقاسون هول الأوبئة ، وهي كفيلة بالفتك بهم . ثم أرسل إلى باريس غير مرة يطلب المدافع والنجندات ليواصل الحصار عن كشب ، حتى لا يضطر إلى الاقتراب من مستنقعات ماتوا ، التي كانت مباءة الأمراض .

كانت فترة الستة الأسابيع ، بين صد المحاولة الثانية لفتك الحصار عن ماتوا وبين المحاولة الثالثة والاخرة ، من أكبر ما وعاه التاريخ الإيطالي : ففي أثناءها استقبل جيش الجمهورية الفرنسية بأسماله في

ميلان، ورحب به نفر من أهلها المتورين ، الذين كانوا قد تأثروا بما جاءت به الثورة الفرنسية من التعاليم الحرة ، فأصبحوا يعتبرون الديانة الكاثوليكية ديانة عقيمة والبابا دجالا والحكومة النمساوية شعباً من أشباح الاستبداد . عرف نابليون أن أمثال هذه العواطف كانت محصورة في الطبقات التي حظيت بدراسة القانون أو الطب أو الآداب ، وأن السواد الأعظم من الإيطاليين لا يزال جاهلاً ساذجاً . لذلك رأى من حسن السياسة ، بصفته قائد جيش جمهوري ، وبشير المبادئ الجمهورية ، أن يشجع هؤلاء الإيطاليين الذين شغفوا بالحرية ، وتطلعوا إليه ليدلهم على مواردها . فلما أظهرت ولايات ريجو ومودينا وفرارا وبولونيا ميلا للديموقراطية ، باركها نابليون وكون منها جمهورية ماوراء النبو^(١) التي ضم إليها شطراً من الولايات البابوية — فعل ذلك ولم ينتظر موافقة حكومته . وفي كتاب بعثه لأهالي ريجو أعلن أنه «وحان الوقت الذي ينبغي أن تصبح فيه إيطاليا من الأمم القوية الحرة» . ثم طلب الذخائر والرجال من أهل إيطاليا ، وسار في ربوع البلاد يجمع لنفسه ولقواده وجنوده وحكومته النفائس الغالية .

بعد ذلك كتب نابليون ، بمنبرته الحربية المطبوعة ، إلى حكومة

(١) اسم هذه تلك الجمهورية بالإنجليزية (Transpadane Republic) ، لأن نهر البو اسمه في اللغة اللاتينية (Padanus) .

الأدارة^(١) شارحا سوء عاقبة الدخول في حرب مع الولايات البابوية أو مع مملكة نابلي بما تحت إمرته من الجيوش القليلة ، وضرورة إبرام صلح مع نابلي ومشاغلة البابا بمفاوضات حتى تنقش غيوم الجيوش النمساوية المهاجمة ، ولا سيما أن تطلع الولايات الشمالية الإيطالية للحرية جعلها في جانب الفرنسيين . بذلك أصبحت حكومة الإدارة - التي كانت اختطت لنفسها مشروع غزو جنوب إيطاليا ، وعقد صلح مع النمسا على قاعدة ضم لمبارديا إليها مقابل بقاء بلجيكا لفرنسا - وقد فشل مشروعها كله بما أحدثه نابليون ؛ وأضحى محتما عليهما أن تحمي النظم الجمهورية التي أقيمت في لمبارديا وأميليا ، وأن تصبر على بقاء حكم البابا في ولاياته ، والملكية البربونية في نابلي ؛ وعرفت أنه لا يمكن الاستغناء عن جندي واحد من جيش الشمال لأن النمسا جمعت ٦٠.٠٠٠ مقاتل في التيرول وتريستا استعداداً لفك الحصار عن مانتوا للمرة الثالثة بعد فشلها في المرتين السابقتين .

برهن الفصل الثالث من قصة فك الحصار عن مانتوا على نهاية مهارة نابليون : إذ كان الجيش النمساوي الجديد تحت قيادة الفنزوي (Alvinzi) ، وكان جندياً مدرباً كسابقه ، بل يفضلهم ، لأنه — على حسب قول نابليون — كان أقوى من نازلهم وأشدهم ثباتاً ، لا ينقصه

(١) هي الحكومة التي قامت بفرنسا في أكتوبر سنة ١٧٩٠ بعد حوالت الأحراب والمؤتمر الأملي -

إلا حماسة الشباب ، ولذا انتصر عليه نابليون، ورجعت كفتة في حرب كانت في الواقع سجلاً .

ومن الغريب أن النمساويين قسموا تلك المرة أيضاً قواتهم الزاحفة على مانتوا كأن لم يتعلموا من الدروس السابقة خطر التقسيم ؛ فزحف الفنتزى من تريستا ، وتقدم القائد النمساوى الآخر دافيد وقتش من التيرول . أما خطة نابليون فلخصها أنه أراد اجتناب ذلك الهجوم المزدوج ، بأن يزحف بنفسه شرقاً للقضاء على الفنتزى عند نهر البرنتا ، وبأن يسرع بجيشه متبعا مجرى أعلى النهر في التيرول حتى يواجه مؤخرة جيش دافيد وقتش ، الذى تقرر بشأنه أيضا أن تذهب فرقة فرنسية تحت إمرة فوبوا لايقافه عن التقدم على نهر الأديج . ولم يكن تنفيذ تلك الخطة هينا ، لأن القائد الحربى مهما تكن مهارته ، لا يمكنه أن يعتمد على إنفاذ كل تفاصيل خطته كما يريد بالضبط . لذلك كانت أول ملحمة عند أركولا (Arcole) سلسلة من المصائب على جيش نابليون ؛ أضف إلى ذلك أن فوبوا لم يوفق لايقاف دافيد وقتش ، وأن أوجيرو ومسينا أخفقا فى عبور نهر البرنتا . وفى ١٢ أكتوبر ظهر جيش الفنتزى على تلال كالدييرو (Caldiero) مهدداً أبواب بلدة فيرونا (Verona) ؛ ولما خرج نابليون ليرده إلى الوراء ، وجد أن الإقدام الذى اشتهر به جيشه فى إيطاليا لم يجد نفعا أمام عدو فى مركز حصين ؛

وأُسفر القتال الذى دام طول النهار عن صد الفرنسيين على طول خط القتال ، وردهم إلى البلدة خائبين . أصبح مركز نابليون حرجاً : لأنه إذا تقهقر إلى مانتوا فإن الجيشين النمساويين يتصلان ببعضهما ببعض ، وإذا بقي في فيرونا فمن المحتمل أن يحاط به وهو فيها ، وإذا حاول مرة ثانية أن يهاجم الجيوش المرابطة على تلال كالديرو فإنه يلقى مآلهة في المرة الأولى . لكن بصيرته العبقريّة أملت عليه خطة فخراها أن يدور بجيشه حول معسكر الفنزى ، ويستولى على معدات النقل والمدفعية الاحتياطية ، ويستبكت معه في قتال قبل أن يتمكن دافيدوفتش من الوصول لنجدته . على ذلك ترك نابليون ٣٠٠٠ مقاتل في فيرونا ، وخرج هو بالبقية متبعاً نهر الأديج . ثم عبر النهر عند رونكو (Ronco) في ١٥ أكتوبر ، واخترق أرض المستنقعات الواقعة بين نهرى الأديج والألبونه .

اعترض تقدم الفرنسيين عائق غير متظر : ذلك أن الجسر القائم على نهر الألبونه عند أركولا كانت تحميه كتيبتان من الكرواتين^(١) ؛ لكن نابليون ضرب لجنوده مثلاً حسناً لما حمل علماً وتقدم نحو الجسر ليحذو الجنود حذوه ، ويقحموا القنطرة . لكنه عبثاً حاول ، لأن

(١) الكرواتين نسبة إلى الكروات اسم علم لبعض فرق الجيش النمساوي في القرن التاسع عشر ، وهم من الجنس الكرواتي أحد الأجناس التي كانت تحت إمبراطورية النمسا والمجر حتى الحرب العالمية . وسكن ذلك الجنس جمهورية يوجوسلافيا الحالية .

المنساويين كانوا يمحرونهم ناراً حامية من شبابيك بيوت القرية الواقعة على الجانب الآخر للنهر . اضطر الفرنسيون إلى التقهقر ، وفي وسط زحام المتقهقرين سقط نابليون في النهر ، ولم ينج إلا بعد عناء . وفي اليوم التالي كان جيش الفنتزى كله محيطة بأركولا ، وهنا نشبت معركة استمرت حتى ليلة ١٧ ، كان القتاتلان في أثنائها يتناوبان الهزيمة والنصر . ثم اقتربت ساعة الفصل : وذلك أن عدداً من الفرسان ، وعلى رأسهم عبد أسود من فرقة الكشفة ، التفوا حول مؤخرة الجيش المنساوي ، وهم ينفخون في الأبواق ، ليوهمو المنساويين أن هناك هجوماً عنيفاً ، فكانت النتيجة أن دب الاضطراب في صفوف المنساويين . وانتهر أوجيرو الفرصة ، وكان يقود ميمنة الجيش الفرنسي ، وانقض على المنساويين حتى ألجأهم أصيل اليوم إلى الانسحاب من مراكزهم ، بعد أن دافعوا طول النهار دفاع الأبطال عن قلعة أركولا .

جاء ذلك الانتصار في وقت أحوج ما كان الفرنسيون إليه ، لأن فوبوا انجلي في اليوم نفسه عن ريفولي ، وأصبح الطريق إلى فيرونا مفتوحاً أمام دافيد وقتش . ولو أن دافيد وقتش تحرك بسرعة وعزم ، لتمكن بلا شك من تعويض هزيمة أركولا ، لأن الفنتزى انسحب يوم ٢١ أكتوبر إلى مرتفعات كالدييرو ، وأصبح في مركز يسمح له بمعونة دافيد وقتش . لكن من حسن حظ نابليون أن دافيد وقتش لم

يكن صلب العود ؛ ولما اجلّى عن مرتفعات ريثولى ، تقهقر مذعوراً
أمام المطاردة العنيفة التي قام بها قوبوا ومسينا .

بعد ذلك بأربعة أشهر ، جاءت الساعة التي بُت فيها في مسألة
فك الحصار عن مانتوا على هضبة ريثولى : وذلك أنه في ١٣ يناير
وجد القائد الفرنسى جوبير (foubert) نفسه عند ريثولى في وجه
جيش تحت قيادة الفنزى ، يتقدم من الشمال ويفوق جيشه عدداً .
فأرسل جوبير في طلب الأمداد ، وإلا اضطر إلى الانسحاب
من مواقعه ؛ ولم تمض الساعة الثانية من صباح اليوم التالى ، حتى
وصل إليه نابليون من فيرونا ، وأبصر على ضوء القمر معسكرات
التمساوين الخمسة ، وناورها تضىء الليل ما بين البحيرة ونهر الأديج .
استخلص نابليون مما رأى أن المعدات نهيا لنشوب موقعة حوالى الساعة
العاشرة ، وأن عدد التمسوين يبلغ ضعف عدد الفرنسيين . لكن
موقع ريثولى يمتاز بأن كل جيش يأتى لمهاجمة البلدة من التيرول ،
لا يمكنه إجلاء حاميتها عن مراكزها إلا بتسلىق القمم العالية المشرفة
على الهضبة ، كما لا يمكنه تسلىق القمم العالية قبل أن يترك وراءه كل
خيله ومدفعيته . فنتج عن ذلك أن أعان الفرنسيين ، على قلة عددهم
أثناء الواقعة التي نشبت ، ستون مدفعا و فرق كثيرة من الخيالة ،
على حين كان التمسويون معتمدين على المشاة وحدهم . أضف إلى ذلك

نشاط نابليون ، ووصول مسينا بنجدة بعد مسيرة ليلة كاملة ، وهنا ترى كيف تأكد النصر للفرنسيين . فلم تكد الشمس تميل عن كبد السماء حتى اندحر النمسيون ، ولولا تراكم الثلج في الطريق لطاردهم الفرنسيون إلى ما بعد بلدة ترنت . بعد ذلك بثلاثة أسابيع ، كان العلم الثلاثي الألوان يخفق على ما نتوا ، وزال الحجر الذي كان عثرة في سبيل نابليون .

التفت نابليون إلى البابا ليسوى حسابه معه ، قبل أن يواصل الزحف إلى الأمام . وهنا أيضاً رفض نابليون أن يحدد أئمة عن جادة النجاح طوعاً لا شارة الوزارة الفرنسية التي كان يحترقها ، أو طمعاً في انتصارات هينة لا تؤثر شيئاً في نتيجة القتال . كانت الحكومة البابوية معادية للجمهورية الفرنسية التي نبذت المسيحية ، وألحت على بوناپرت أن يرى القساوسة مقامهم في النظم الجمهورية . وكان من السهل جداً على الجنود ، التي عرفنا حنكتها ، أن تتقدم ظافرة إلى روما نفسها ، حيث تقضى على حكومة هي أضعف الحكومات ؛ إلا أن تلك التجربة ، مهما يكن فيها من الاغراء ، لا تستهوى السياسى الخنك أو الحربى القدير : إذ ليس من الحكمة أن يكدر شعور الكاثوليك في وقت كان الفرنسيون في حاجة إلى ولائهم وعطفهم . هذا فضلاً عن أنه كان من حماقة الحرية الكبرى ، أن يزحف القائد

العام على روما ، والجيش النمساوية لم يقض عليها بعد القضاء الحاسم .
لذلك اكتفى نابليون بأن عقد مع البابا معاهدة تولنتينو (Tolentino)
في ٢٩ فبراير ، حصل فيها على جزية وصور ثمينة ومقاطعات ، دوز أن
يمرض مركزه الحربى للأخطار . والحقيقة أنه رأى ألا يقطع العلائق
مع البابا ، حتى يصبح سقوط مانتوا محققا ؛ ولنا اختار لمصالحه
البابا الوقت الذى أراد انتهازه للقضاء بسرعة على جيش نمساوى جديد
يحتشد على نهر تاليامنتو (Tagliamento) . وكذلك كان اهتمام نابليون
بكر الدقائق اهتماما جعله يترك لسروريه تسلم مانتوا وتسلم سيف القائد
العام النمساوى فى سبيل كسب بضعة أيام لتكميل الحملة على روما .

ولقد امتاز آخر دور فى تلك الحرب بتتابع انتصارات الجيوش
الفرنسية على عدو أقل دربة ، تطرق عدم النظام إلى صفوفه : فينا
جوبير يتقدم نحو الشمال والشرق مخترقا مرمى برنر (Brenner) وبوستر تال
(Pustherthal) فى التيرول ، هزم نابليون الارشيدوق شارل عند نهر
تاليامنتو ، الذى عبره بعد ذلك عند جبل تارفيس (Col de Tarvis) إلى
كارنثيا ، وتقدم نحو العاصمة النمساوية ، فوصل يوم ٢٨ مارس إلى بلدة
فلاخ (Villach) . وفى ٧ إبريل وصلت طلائع الجيش الفرنسى بقيادة
مسينا إلى مدينة لوبين (Loeben) ، على بعد مائة ميل تقريباً
من فينا ، وفى لوبين هذه ابتدأت المحاربات فى طلب الصلح ، وتم

التوقيع على هدنة بين الطرفين . رأى نابليون بثاقب نظره ، الذى اتصف به طول مدة الحرب الايطالية ، الظرف الملائم للوقوف عن التقدم ، والظرف الملائم للانقضاء على العدو ؛ ورأى أن من المخاطرة حقاً ، أن يتقدم أكثر مما فعل ، للاحتمال جمع شتات الجيوش النمساوية فقط ، بل لأنه علم أن لا أمل في وصول أى مساعدة من جيوش الين^(١) ، وأن من المحتمل قيام ثورات بين فلاحى البندقية والتيرول فتقطع عليه خط الرجعة .

قدّم نابليون إلى النمسا ، على سبيل الاستهواء ، في أثناء المفاوضات التمهيدية في لوبين ، جزءاً من جمهورية البندقية القديمة ، تلك الدولة المطمئنة ، التى لم تفكر في مناوأة فرنسا ، والتى لم يكن نظام حكومتها استبدادياً بدرجة تبرر تقويض أركانها . أنما يجدر قبل البحث في موضوعها ، أن نذكر أن صاحب فكرة تقديمها طعمة للنمسا هو بوناپرت دون سواه ، وأن صاحب فكرة قبول تلك الطعمة هو توجوت (Thugut) رئيس الوزارة النمساوية . ذلك أن نابليون اختار في تلك الآونة سياسة لا هى جمهورية ولا هى ملكية ، بل كان غرضه أن أن يعقد صلحاً مع النمسا بسرعة مهما يكلفه الأمر ؛ وعرف أن أقرب طريق لحل النمسا على التنازل عن بلجيكا ولبارديا هو منحها البندقية

(١) راجع الحاشية رقم (١) ص ٤٤ .

في مقابلهما . ولم يأبه نابليون لشهرة تلك الدولة الصغيرة ، التي كانت سوق اللهو للأغنياء والمقارنين ، ولم يحرك ضعفها السياسى في قلبه الشفقة بل الازدراء . ومن الغريب أنه اعتقد أنه عمل ما فيه الكفاية في سبيل تحرير إيطاليا ، وأن حرمان البندقية من حريتها ليس بالثمن الباهظ الذى يقدم لشراء حرية لمبارديا . لذلك عقد النية على خلق مشكلة بينه وبين البندقية بأى شكل من الأشكال ، وليس ذلك بلا مرمع المسير : فإن البندقية كانت من الضعف بحيث لم يمكنها أن تحصى جيدتها ، أو أن تخمد المظاهرات التي قامت فيها ضد المبادئ العنقودية . على ذلك اتخذت حادثة قيام فتنة في فيرونا ذريعة لنشر الثورة في البندقية نفسها ، فسقطت الحكومة العتيقة كمن يسقط مغشياً عليه . وانقلب أهل البندقية انقلاباً عجيباً ، إذ أصبحوا مملوئين حماسة نحو العلم الثلاثى الألوان وشجرة الحرية والقلنسوة الحمراء وكل شعائر الثورة . لكن سرعان ما انقضى ذلك الجنون الصيفى ، ولم تحل ثلوج أكتوبر على قمم الجبال حتى رأى نابليون أن الوقت قد حان لأمضاء المعاهدة ^(١) ، وحتى علم البنادقة أن شجرة الحرية والقلنسوة الحمراء والعلم الثلاثى الألوان لم تمنع وقوع أكبر المصائب التي يمكن أن تحل بدولة . كذلك قسمت الجمهورية ورفرف العلم المتساوى المكروه ذو النسر الأسود على بحيرات البندقية .

(١) يعنى المعاهدة بينه وبين النمسا بشأن إيطاليا بما فيها قسم البندقية .

أذا كان من البدهيات أن ما عمل نابليون كان خالياً من الانسانية
فإن وصف نابليون بالرجل الفظ ، ليس من الصحة في شيء : حتى
أن ثلاثة من البنادقة أرسلوا سرّاً إلى فرنسا ، لرشوة رجال حكومة
الأكادمية ، ثم قبض عليهم في الطريق بأمر القائد العام ، وأعيدوا مهابتين
إلى ميلان ، فلما مثلوا أمام نابليون ، تكلم أحدهم واسمه داندولو
(Dandolo) وأفصح عما في قلبه حتى حرك دموع نابليون ، وجعله
يبدل ما في جهده لاقناعه أن فعلته لم تكن إلا شيئاً مؤقتاً ، أمّته
الضرورة القصوى ، ووعدته خيراً ، وكانت تلك العبرات صادقة حقاً ،
وقد بر نابليون بوعده بعد موقعة استرلتز (١).

ليس القضاء على البندقية أشهر الأعمال السياسية التي قام بها
نابليون في إيطاليا ، بل هناك ما هو أهم منها وهو تأسيس جمهورية
الألب الشمالية (Cisalpine Republic) . وكثيراً ما قضت دول
على دول ، وأقرب الأمثلة عهداً بولندا ، التي قضى على حكومتها وقسم
أهلها إرضاء لمطامع جيرانها . أما قيام جمهورية في شمال إيطاليا ، كوليده
الدولة الفرنسية وتلميذة ثورتها ، فقد كان باعثاً لروح الحرية القومية
في إيطاليا ، وإهانة للأسرات الملكية التي لا تفتق وجودها مع تلك

(١) في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٥ ، تازلت النمسا تخضّص معاهدة برسبورج ، التي نلت هزيمتها
في استرلتز على يد نابليون ، عن جميع ما حصلت عليه بمعاهدة كامبونوفورميو ، ثم ضمت تلك الأراضي
إلى مملكة إيطاليا .

الحرية القومية . وقد يقول النقاد أن الجمهورية الجديدة كانت خليطا غير متجانس ، مكونا من لبارديا وجهات ما وراء النبو وأقسام صغيرة من البندقية وسويسرا ؛ فهي والحالة هذه لن تعمّر طويلا ، لما بين أجزائها من الفوارق . إلا أنه من المهم ملاحظته أن الجمهورية الجديدة ضمت أكثر سكان إيطاليا نشاطا وتقدما ، وكانت حاضرتها ميلان ذات المجد القديم ، وأنها ضمت أيضا مقاطعة بولونيا مهد العلم ومقل الوطنية الحارة ، وأنها لم تؤسس على مثال الجمهوريات الإيطالية الصغيرة التي اضمحلت في أواخر القرن الخامس عشر ، بل أسست على قاعدة تقسيم المصالح المحلية ، التي كانت قديما سببا في خراب إيطاليا . هذا ، وكم من أسرة قام أبناؤها بأدوار عظيمة في تحرير إيطاليا في القرن التاسع عشر ، فكان تأسيس جمهورية الالب الشمالية وما بعث بعد ذلك من الآمال والمصالح ، السبب الاول في تطلعها إلى المسألة القومية الكبرى وهي تحرير إيطاليا .

يكاد الانسان يعتقد أن نابليون لبي داعي لمحبه ودمه ، لما أقام تلك المدرسة لتربية إيطاليا تربية سياسية . ولم لا ؟ . ألم يك نابليون في الأصل إيطاليا ؟ ألم يهتف له الإيطاليون كما يهتفون لأحد أبناء وطنهم ؟ ألم يتكلم لغتهم ويعرف مكنون قلوبهم ؟ لكن إذا كان في عمله أي عاطفة من جانبه ، فإن تلك العاطفة لم يولدها فيه الضرور ؛ لانه كان

عارفا تمام المعرفة عيوب الطبايع الإيطالية ، ومدركا أن قوما بلاغرض ولا عزم في الحياة ، مرت عليهم دهور لم يمارسوا فيها الواجبات العامة ، ليسوا أهلا للحرية السياسية . قوى هذا الاعتقاد في نفسه ما رآه من أنصار المبادئ اليقينية من أهل ميلان ، ولذلك بالرغم من منحه الجمهورية الجديدة دستورا على نمط الدستور الفرنسي ، فإنه عين بنفسه الوزراء والقضاة والنواب وكبار الموظفين ، وأخبر الحكومة في باريس أن جمهورية الألب الشمالية أسست بمساعدة الجيش ، وأنها لا تستطيع تسير شؤونها إذا سحب منها الجيش . أما عن المستقبل ، فكان نابليون واثقا من أن حياة الخدمة العسكرية الأوجبارية ستعلم أهل تلك الجمهورية مزايا الاتحاد والتماسك السياسى والمسئولية القومية . هذا وكان نابليون عارفا أن الفلاحين يكرهون الحكومة التى تستحل أخذ محصولاتهم الجيدة بأوراق مالية منحطة القيمة . لذلك كله أكد نابليون لحكومة الإدارة أنها إذا سحبت الجنود الفرنسية ، عرضت للضياع حياة كل من أعانه على إقامة الجمهورية الجديدة . وفي ربيع وصيف سنة ١٧٩٧ ، بينما كانت المفاوضات دائرة مع النمسا ، وبينما كانت إيطاليا تعود نظام الجمهورية الجديدة ، كان نابليون يعيش عيشة الملوك في قصر مومبلو الفخم (Mombello) الذى يبعد اثني عشر ميلا عن ميلان . هناك كان لا ينقص نابليون

إلا التاج ؛ إذ كان يستقبل سفراء الدول ويقيم المآدب العامة ، وإذا ركب سار في معيته حرس بولندى . واتبعت حاشيته نظام رسميات دقيق ، واهالت عليه القصائد والناشيد الأيطالية ، التى دعت بطل الزمان ، ومشيد أركان السلام ، وهنيئال الجديد ، ورسول الانسانية ، ومنقذها من براثن الاستبداد وعسف الطبقات الممتازة . والتف حوله ثلة من صغار الضباط الأذكياء ، الذين كانوا يتميزون فرحاً بما نالوه من الانتصارات ، وبما أمامهم من الآمال فى المستقبل ، لم يفرق الحسد بينهم بعد ، تجمعهم رابطة الحرب التى تصفو فيها القلوب للقلوب . وكان إلى جانبه جوزفين المملوءة بشاشة ، تداعب زوجها المملوء غيرة عليها ، ومعها أخوات نابليون الثلاث ، ترعاهن أمهن وكلهن فى بحبوحة العز المقيم . وبين هؤلاء كان نابليون باشا متواضعاً لكل أخصائه ، على رغم عبوسه وكبريائه فى ساعات العمل . وكل الذين جوله كانوا معجبين بفكاهته التى تشرح الصدور ، وبشاشته الطبيعية ، وبعلمه الواسع عند بحث المسائل الأخلاقية أو السياسية . وزاد إعجابهم به لما وجدوا أنه شفيق ، يستنيم للمشورة ، مجذ فى عمله ، قادر على استدعاء النوم فى أى وقت . وكان يخيل إليهم أحياناً أن ليس هناك حد لأعماله وأغراضه ؛ فتارة يجلس مع رجال أركان الحرب مصغياً لا ببحاث مونج (١)

(١) ولد جاسبار مونج (Gaspard Monge) علم ١٧٤٦ . وهو علم فرنسى شهير فى الرياضة ، انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٨٠ . وفى ابان الثورة عين وزيراً للبحرية الفرنسية . ثم أوفده حكومة الأندلس إلى إيطاليا حيث تعرف بنابليون .

في الهندسة ؛ وتارة يجلس في حلبة يقص حكايات خرافية . أما ثقة نابليون بنفسه فكانت لاحد لها ، وأما عظمتها فكان لا ينكرها أحد : كان يمشى ذات يوم في حدائق قصر مومبلو مع الشرفين الإيطاليين ميو (Miot) وملزى (Melzi)، فأفضى إليهما بشئ من أطعمته . قال مستفهما : «هل تعتقدان أني أنتصر في إيطاليا لأنني مجد رجال حكومة الإدارة؟» ، غير أن «الكثيرى كانت غير ناضجة» ، كما قال نابليون ؛ وهو وأن كان يحتقر رجال الحكومة في فرنسا ، فإنه أدرك أن ليس في مقدوره القضاء عليها بل بالعكس ، ولما كادت أمور الدولة تؤول إلى الملكيين ثانية ، كان نابليون السبب في تخليصها . فلقد كانت هناك ثلاثة أسباب راجحة تجعله يعمل على منع رجوع آل بربون إلى باريس : الأول أنهم لابد سيبدءون الصلح مع أوربا ؛ الثاني أنهم سيتولون زمام الأمور في فرنسا ؛ الثالث أنهم لاشك سيستغنون عن خدماته . أضف إلى ذلك أن حكم ثلثة ممن قاموا بقتل الملك ، كان على الأقل خيراً من أيام النظام القديم ، لوجود رجال أمثال بارا ممن يمكن رشوتهم وكنم أنفاسهم . لذلك لما جاءت الأخبار من باريس تنبئ بنجاح كثير من الملكيين في الانتخابات ، عمل نابليون منشورات جمهورية ، وأرسلها إلى باريس باسم الجيش في إيطاليا ، كما أوفد أوجيرو لالتقاء الرعب في نفوس الباريسيين ، ولتطهير المجلسين النيابيين من

الأعضاء الرجعيين . وانتهى الأمر بانقلاب فركتيدور^(١) الذى نجح نجاحاً مائناً فى إخماد أنصار الملكية ، وتأسيس حكومة عنيدة ضعيفة فى آن واحد . ثم زها الطالع لنابليون : فإنه فى الحريف الذى حصل فيه الانقلاب خرج من الميدان أكبر مزاحيه ذكاء وهم هوش (Hoche) وبشجرو (Pichegru) ومورو (Moreau) ؛ إذ مات الأول وهو فى ريعان الشباب ، واتهم الآخران بالعمل ضد انقلاب فركتيدور . وهكذا بلغ نابليون ذروة المجد ، وزادت شهرته كأ كبر دعاء الجمهورية ، واعترف الكل بحكمته فى السياسة المعتدلة التى اتبعها فى إيطاليا . هذا ، وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وقع على معاهدة كامبو فورميو مع النمسا ، فبرهن أنه لا يقل دهاء عن كوبنتزل (Cobentzel) رئيس المفوضين النمساوين ، وأ كبر سواس أوروبا وأ كثرهم خنكة فى ذلك الوقت . وبمقتضى تلك المعاهدة تنازلت النمسا على جلالها عن بلجيكا وعن حدود الرين لفرنسا ، واعترفت بجمهورية الأللب الشمالية ، وأخذت فى مقابل ذلك الجزء الشرقى من البندقية . أملى نابليون تلك الشروط ، أما فرنسا والنمسا فكان عليهما أن تقبلاها على أى شكل كان .

(١) فركتيدور هو الشهر الثالث من تقويم الحرية الفرنسية . وقد وافق الاغلاب يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ .

الفصل الثالث

مصر والشام

نتج عن عقد معاهدة كامبوفورميو ، أن بقي من خصوم فرنسا الستة عدو واحد هو إنجلترا ، التي بقيت لآخر لحظة معادية لنابليون دون الدول الأخرى . وكانت إنجلترا في نظر نابليون أصلب أعدائه عوداً ، لما كانت عليه من الثروة واتساع المستعمرات والقوة البحرية ، ولائها كانت لا تألو جهداً في بث الفتنة في فرنسا . أما النمسا فإنها وإن كانت قد أبليت في ميادين مبارديا ، إلا أن علمها لم يخفق على مكان بفرنسا ، كما خفق العلم البريطاني على ميناء طولون أو على خليج كويبرون . على أن إنجلترا كانت ملاذ اللاجئين من دعاة الملكية الفرنسية ، ومحور التحالف الأوربي ضد فرنسا ، والمتسلطة على البحار . وما دامت إنجلترا على تلك الحال ، فسيظل النظام الذي أقامته الثورة في فرنسا مهدداً لا ركن . وفي هذا الصدد كتب نابليون في ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧ ، قال : « يجب علينا سحق إنجلترا وإلا سحقتنا ، وللقضاء عليها يجب توجيه كل قواتنا نحو البحر ، فإذا نجحنا أصبحت أوروبا تحت أقدامنا ، » .

لا يخفى أنه لو كانت فرنسا عازمة على سحق إنجلترا ، لوجب عليها تنظيم بحريتها سريعاً ؛ لأن الثورة ، وإن كانت بعثت في جيوشها البرية روحاً جديداً ، فلها أحدثت أثراً سيئاً في قواها البحرية . وذلك أن البحرية ، على ما يلزم لها من مهارة فنية وخبرة طويلة في كل نواحيها ، قد غشيها الفساد لشيوع مبادئ الثورة ، التي لا تعبأ بالنظام ولا تعرف لاختلاف درجات الرجال معنى ؛ فقامت الفتن في أحواض السفن ، واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين ، واضطر كثير من الضباط الكفاة أبناء الأشر العريقة إلى ترك الخدمة . ولذلك أصبحت البحرية الفرنسية ، التي أبانت بلاءً حسناً أثناء الحرب الأمريكية ، مختلة النظام لدرجة لم يمكن تلافياها حتى في أوج عظمة نابليون . وإنه لمن أسعد مصادفات التاريخ أن تلك الدولة الحربية ، التي لم يظهر لها مثل في أوروبا ، كانت ضعيفة في بحريتها ، حتى أن آمالها في بسط نفوذها على ربوع آسيا واستراليا وأفريقية وأمريكا ضاعت بتغلب القوى التي قامت لمناضلتها حفظاً لكيانها ، وانتصاراً للحرية السياسية .

كان من المحتم أن يناط أمر منازلة إنجلترا إلى نابليون القائد الشاب الذي توج انتصاراته الباهرة بصاح مبين . ولم يكد نابليون يعين على رأس الجيوش الموجهة ضد إنجلترا ، حتى بدأ يتفقد شواطئ بحر

المائش في فبراير سنة ١٨٩٧ ، فأدرك استحالة غزو انجلترا قبل إعداد المدات الكافية التي يستغرق إعدادها وقتا طويلا . على أن انجلترا لم تكن في نظر نابليون جزيرة فقط ، بل دولة ذات سلطان واسع ، تستمد معظم قوتها من تجارتها الواسعة وممتلكاتها في الهند ، يجد طرقا عدة لمهاجمتها ؛ فإذا امتنع طريق بحر المائش ، كان هناك البحر الأبيض المتوسط ، حيث يمكن تسير حملة على مصر ، تحمل انجلترا على توزيع قواها البحرية — الأمر الذي يستحيل بدونه الزحف على لندن . ولقد كانت هناك بواعث أخرى تبرر غزو مصر : فإن نابليون منذ حدثه سنة ١٨٠١ كان يحلم بجمال الشرق وعظمته وما يحويه من الأسرار ، يسهله عليه أن رواد البحر من أهل قرشقة كانوا ملهين تمام الألمان بساحل تونس المجاور لهم ، وتونس قريبة من مصر ، ومن مصر يسرح الخيال إلى مكة وطهران ، وإلى صحارى العرب وحدثات الورد ببلاد العجم ، وإلى المعابد البيضاء على ضفاف الكنج المقدس . ولقد فكر نابليون وهو في سن الشباب ، أن يندمج في سلك الجيش البريطاني في الهند ؛ وكاد يوما ، وهو قائد صغير ، يذهب إلى تركيا ويبدأ فيها حلقة من سلسلة حياته الحربية (١) ؛ وفي أثناء الحرب

(١) طلب نابليون مرة وهو حديث العهد بالخدمة في الجيش الفرنسي أن توفده الحكومة لتركيا لتنظيم للدفع في جيش السلطان ، وكان غرضه من الذهاب أن تتاح له فرصة الاتصال بالشرق ، ولكن لم يسمح له بسبب غضب حكومة الدولة عليه وحذف اسمه من قائمة القواد (انظر ص ٢٤) .

الإوربية اشتدت عقيدته في قوة القضاء والقدر ، لما أحرز من النصر
 تلو النصر ، وشعر كأن قوة خفية تجذبه نحو الشرق . وكان يتحدث
 بذلك لأصدقائه في كثير من الأحيان ، حتى أصبح يعتقد أن إيطاليا
 ليست نهاية أحلامه ، بل هي نقطة الابتداء ؛ وأن شكلها الجغرافي
 الممتد في البحر ، وسواحلها الكثيرة التعاريج ، ستسهل عليه الاستيلاء
 على أصقاع البحر الأبيض المتوسط ، وما وراءها من البلاد . لذلك
 استولى على أنكونا ، ليكون له ميناء مشرفاً على الشرق ؛ واستولى
 أيضاً على جزر أيونيان ، وسيطر على جنوا . وأسس الجمهورية الليجورية
 بها ، لتكون له قواعد على البحر الأدرياتي ، واعتمد على الحظ لاثارة
 الفتنة في اليونان وللقضاء على تركيا قضاء مبرماً .

لا يخفى أنه لو نجحت الحملة في الاستيلاء على مصر ، لكان من
 المحتمل أن يحتل التوازن الدولي : إذ كان من الممكن أن يترك نابليون
 الأسطول الإنجليزي يروح ويغدو على مقربة من الأسكندرية ،
 ويعود هو إلى المانش ، فينقض على الشواطئ الإنجليزية ، ويقضى
 على حكومتها . وكان من الممكن أيضاً أن يتج عن فتح مصر وشق قناة
 السويس وتحصينها ، تجهيز حملة للسير إلى الهند للاستيلاء على قوى المهرات (١)

(١) المهرات اسم يطلق على عدة إمارات في الهند الوسطى ، حاولت الإنجليز مدة طويلة لأواخر القرن
 الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

لطرده الانجليز من ممتلكاتهم في الشرق . أما إذا أخفق المشروعان السابقان ، فلا يزال أمام الذي يستولى على مصر مشروع فتح سورية والاستيلاء على القسطنطينية وتمزيق أوصال الدولة العثمانية .

أما نابليون فإنه رأى من الحزم أن يتخلص من الجوّ السياسى المكفهر فى باريس بأسرع ما يمكن ، ولا سيما أنه لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره ليصلح للعضوية فى حكومة الأدارة . ثم أنه كان موقناً أن الشهرة مهما تبلغ ، فإن جذوتها لا تلبث أن تنطفئ . إذاً هى لم تذكها جلائل الأعمال . يثبت ذلك أنه قال فى ٢٩ يناير سنة ١٧٩٨ لثاموسه بورين : « لا أريد المكث هنا ، فليس من عمل أقوم به . إن آذان القوم قد صمّت ، وإن هذا البلد مقبرة التبوغ . قد بليت شهرتى على جذتها ، وليست أوروبا بالميدان الواسع اتساعاً كافياً ، أما الشرق فهو مجال نيل الشهرة الواسعة » . لاشك هنا أن ذكرى الإسكندر الأ كبر كانت ماثلة أمام عيني نابليون ، فضلاً عن أنه كان يعتقد أن وراء أوروبا ، وما فيها من تقاليد راسخة ومدنية خانقة ، بلاداً غيرها مترامية الأطراف ، حيث ظهرت دول ودالت دول ، فزُمن لنابليون أن فتحها ليس عليه بعزير ، وأن تنظيمها حسب أرادته ليس بالأمر العسير .

قبلت حكومة الأدارة رأيه ، ولا عجب فقد كانت فرنسا تعتبر

مصر ، منذ أيام سان لويس وحرية الصليبية ، مطمح آمالها دون كل بلاد الشرق الأدنى . وكان المعروف عن مصر ، أنها ذات مدينة شهيرة عتيقة بالية ، وأن قوتها الحربية معروفة بضعفها ، وأن حكومتها في أيدي الممالك الأجنبية الطغاة ، وكان قد اقترح لينتز (Leibnitz) على لويس الرابع عشر الاستيلاء على وادي النيل ، ولينتز هذا أشهر فلاسفة الألمان . وكانت الفكرة نفسها من مشروعات شوازيل (Choiseul) أمير وزراء لويس الخامس عشر . وفضلا عن كل ذلك فإن فتح مصر سيضيق انجلترا حقا ، وسيبعد نابليون ، ولو لأجل قريب ، عن دائرة سياسة فرنسا الداخلية ، وهو الرجل الذي برهن على أنه فرد غير عادي ، وأنه خطر على النظم الديمقراطية . بقيت العقبة المالية ، وتلك ذلت بطريقة امتازت بها سياسة فرنسا الجمهورية : وذلك أنها تذرعت بسبب واه لغزو سويسرا ، وخصصت من الكنوز التي استولت عليها في برن (Berne) ، ثلاثة ملايين فرنك ، لتموين الحملة على مصر .

أُقلع نابليون من طولون في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ، في جماعة من مهرة القواد والعلماء ورجال الفنون والمهندسين ، على رأس جيش مدرب مؤلف من ثمانية وثلاثين ألف مقاتل . وكان برتييه رئيس

أركان الحرب ، وكان بين القواد مارمون^(١) ولان (Lannes) وهورا
وديزيه^(٢) وكليبر (Kléber) . ثم كان في وجود الرياضيين وعلماء
طبقات الأرض والأثريين والكيميائيين ما دل على اهتمام القائد
العام بالأُمور المدنية ، وعلى رغبته في أن يكون فتح مصر مخالفاً
للفتوح العادية . والسبب في ذلك أنه منذ انتخابه عضواً في المجمع
العلمي ، فكر في إمالة اللثام عن أرض القراعنة بالبحث العلمي ،
وكان في نيته أيضاً أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه
ومصنوعاته ومزروعاته ، وكذلك دياناته التي هي لمحته وسداده .
بذلك يصبح الانجيز والقرآن توءمين في مكتبته السياسية ، ويتمكن
نابليون من محادثة الشرق بلغته وبما تعودده الناس من الأفكار ؛
فتصير فرنسا على يده سيدة في مصر ، تعمل بالحسنى ، وتعامل
المصريين بما يناسب عقولهم ، وتسهر على تحسين موارد الثروة ،

(١) ولد أغسطس مارمون (Auguste Marmont) سنة ١٧٧٤ . دخل الجيش
وهو صغير السن ، وتعرف بنابليون في حصار طولون سنة ١٧٩٣ . ولقد بدأت شهرته أثناء وجود
الفرنسيين بمصر ، وظل في خدمة الجمهورية والامبراطورية حتى سنة ١٨١٤ ، حين رأى أن الأمر
في انتصار نابليون قد ذهب ، فقد هدق جيش الحلفاء كانت السبب في تنازل الامبراطور عن
العرش وقبوله الانحياز إلى جزيرة إلبا . ولقد كافأه آل برون على تلك الفعلة التي خدمتهم بكل
مالهم . وعاش مارمون حتى سنة ١٨٥٧ . فكان بذلك آخر من كبار قواد الامبراطورية النابليونية .
(٢) أبلي ديزيه (Desaix) أحسن البلاد أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر ، إذ أرسله
نابليون لتتعب فلول للمالك في الوجه القبلي ، فتجح نجاحا تاما حتى ألبا مرادليك فتد المالك
يجمعه الى السودان .

وتتخذ من سكلها القاترى الهمة الحاملين الكثيرين مورداً جديداً لقواها الحربية (١).

كان طريق الحملة الفرنسية البحرية، المكونة من ٤٠٠ نقالة قاصدة إلى مصر، محفوظاً بمخاطر هائلة لم تكن في الحسبان. لكن على الرغم من وجود نلسن اجتراً الأسطول على مهاجمة مالطة، وصادف نابليون الحظ، لأن الحامية التي رصدت له في حصن قلاتا المنيع كانت شرذمة من الخونة والمجنّاء، تخلت عن الحصن في ١٣ يونيه؛ وبذلك تمكن الأسطول الفرنسى من الوصول يوم أول يوليه إلى مياه الأسكندرية. هناك تزلت الجنود إلى البر بدون أن تلقى مقاومة؛ ولو أن نابليون وصل إليها قبل ذلك بثلاثة أيام، لوجد نلسن بثلاثة عشر مركباً من ذوات الأربعة والسبعين مدفعاً، فى انتظاره يصله ناراً حامية. إلا أن الأحوال خدمته: فبينما كان أمير البحر الاتجلىزى مسرعاً نحو مصر، أصدر نابليون الداهية أوامره إلى أسطوله ليتجه نحو شاطئ جزيرة كريت الجنوبي. ولولا ذلك التأخير من جانب نابليون، وتلك العجلة من جانب نلسن، لتقابل أكبر قواد البر مع أمير أمراء البحر فى التاريخ كله، فى موقعة بحرية كانت تنجلى بلا جدال عن هزيمة الفرنسيين.

يلزم لمهاجمة مصر بنجاح الزحف نحو القاهرة على أحد فرعى

(١) توجه نظر القارىء الى أن هذه العبارة ترجمة لما ورد فى كلام المؤلف.

النيل ، مع تجنب أرض الدلتا ، لمستقعاتها وقنواتها المتعددة ،
التي كانت السبب في فشل ما تقتضيه الخطط الحربية في مصر ؛
فزحف الجيش من الإسكندرية عن طريق الفرع الغربي للنيل ،
وواجه نابليون المالك وخيالتهم المقاديم البُسل ، بجيش نظمه على
شكل مربعات تظاهره مدفعية قوية . ودخل القاهرة ، ودان له
الوجه البحرى بعد موقعة حاسمة قرب الأهرام ، انتصر فيها بدون
خسائر كبيرة . حدث ذلك بعد ثلاثة وعشرين يوما من ترول
الجنود الفرنسية إلى البر عند الإسكندرية ؛ ولو أن النيل كان في زمن
الفيضان ، تمكن نابليون من مطاردة المالك جنوبا ، ولاستحال على
فلولهم المتفرقة أن يجمع شملها ثانية .

كان مركز الجيش الفرنسى ، فى وسط أمة إسلامية شديدة
الاستمساك بدينها ، لا تبعث بطبيعة الحال على الاطمئنان ، على رغم
الانتصارات الأولية الحاسمة ، التى أحرزها نابليون « أبو النار » ، كما
كان يلقبه المصريون . أدرك نابليون ضرورة مجاراة الميول الدينية
السائدة فى أمة اشتهرت بتعلقها بالأوهام ، وذكر فى نفسه كيف أن
زيارة الإسكندر الأكبر لمعبد آمون جعلته ابن جوبتر كبير
الآلهة (١) ، وكيف « نال الإسكندر بتلك الخطوة ما لم يكن يناله

(١) آمون أحد آلهة المصريين القدماء ، وقد انتشرت عبادة إلى بلاد اليونان والرومان من
بعدهم ، حيث ساء الأولون زفوس (Zeus) والآخرون جوبتر (Jupiter) ، وهذا يفسر
اقتراض اسم آمون المصرى باسم جوبتر الرومانى .

لو كان تحت إمرته مائة وعشرون ألفاً من المقدونيين ،، . لذلك عزم نابليون على أن يقف أثر سلفه في سياسته هذه ، فكان يجلس في الجامع الأزهر بين العلماء ، حيث جرت العادة أن يجلس ستون عالماً لشرح القوانين وتفسير كتاب الله . بين هؤلاء القائمين بالمحافظة على الدين كان يجلس نابليون جلسة الخامسة ، يصف لهم في وقار حالة نفسه الورعة الخامسة ، ويناقشهم في معاني بعض المسائل الواردة في كتاب الله ، ويظهر إجلاله العظيم للنبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ حتى اعتقد العلماء أنه لولا عقبتان ، وهما شرب الخمر والختان ، اللذان حرم القرآن أهلها وحض علي ثانيهما ، لكان من الممكن أن يتسلط جميع الفرنسيين النازلين مصر دين الإسلام . واعتقد العلماء أيضاً ، أن الإسلام سيملك على الجنود مشاعرهم ، ويتمكن من قلوبهم ، لأن الأحاد الشديدي الذي كان منتشراً بين جنود الجمهورية لم يتأثر برجوع الكاثوليكية ^(١) . ولكيلا يفوت نابليون شيء في سبك خدعته ، أمر بوضع التصميمات لبناء مسجد كبير يسع كل الجيش الفرنسي ، ليشهد بأذن الله في يوم قريب ، أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

أفسد على نابليون كل خططه حادثتان فجائيتان ، لم يكن وقوعهما غير محتمل ، وهما انتصار الأنجليز على الفرنسيين في البحر ،

(١) اقرأ تفصيل إرجاع الكاثوليكية إلى فرنسا في ص ١٦ .

وقطع العلاقات بين فرنسا وتركيا : ففي أول أغسطس حطم نلسن
 الأسطول الفرنسي في أبي قير ، وانقطعت بعتة المواصلات بين الجيش
 وفرنسا انقطاعا تاما . ولا شك أن هزيمة أقل من تلك خسارة ،
 تكفى في كثير من الأحيان لسريان الحلال في جيش كامل . وإذا ذكرنا
 أن جنود نابليون خابت آمالهم في مصر : فبعد أن كانوا يمتنون أنفسهم
 بقصور من الرخام ، وجدوا أكواما من الطين ؛ وبعد حلمهم بالإنبذة
 المعنقة ، لم تبطل شفاهم بغير الماء الأسن ؛ وكانوا يشقون بترحيب السكان
 بهم أينما حلوا ، فوجدوا أن مجرد ابتعادهم عن المعسكر في أي وقت من
 الأوقات يجعلهم عرضة للقتل والتفكيك . إذا ذكرنا ما تقدم ،
 علمنا أن أي خبر سوء ينشر بين رجال تلك حالتهم ، كان كافيا لحلمهم
 على العصيان جميعا . إلا أن نابليون تلقى أخبار الكارثة في القاهرة بكل
 هدوء ، ثم جمع ضباطه حوله وخطب فيهم عن ثقة عالية ونفس مطمئنة ،
 مشيراً إلى الموارد العظيمة الكامنة في مصر ، والتي تحتاج إلى استثمار
 قائلاً : أن بلاداً كمصر كانت في الغابر دولة عظيمة ، في استطاعتها
 بفضل ما وصلت إليه العلوم والصناعات . من التقدم ، أن تسترجع
 مجدها القديم ، وتبلغ درجة في العظمة ليست في الحسبان . وذكر نابليون
 ضباطه أيضاً بمتانة مركزهم ، في أرض ليس لها حدود معينة سوى
 الصحراء من جهة ، وساحل منخفض قليل التعاريج من جهة أخرى ؛

وأوصاهم في آخر كلامه أن يحافظوا على الجيش من تسرب الفشل الى صفوفه ، وأن يذكروا أن أمثال تلك الحالات مسبار الهمم . ثم ختم كلامه بعبارة تشف عن شمم وعلو خيال قال : «و يجب علينا أن نرفع رءوسنا فوق الطوفان الذي يغمرنا ، فنجعله بذلك مركباً ذلولاً ؛ ولا يبعد أن يكون القضاء والقدر قد كتبنا أن نغير وجه الشرق ، وأن تكون أسماؤنا منقوشة بجانب الأسماء التي ازدان بها التاريخ في العصور القديمة والقرون الوسطى» .

بعد ذلك بشهر أعلنت تركيا الحرب على فرنسا ، وأصبح مركز نابليون في مصر معرضاً لأخطار جديدة داخلية وخارجية . من تلك أنه كانت تتلى فرمانات آتية من عند السلطان في المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الإسلام ، ونتج عن ذلك أن أوقع نابليون بقسم من أهالي القاهرة عقوبة شديدة ، لقيامهم بالثورة تلبية لنداء أمير المؤمنين . وفي يناير التالي ، بينما كان نابليون في السويس ينقب عن آثار القناة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، جاءته الأنباء أن أحمد باشا الجزائر والى سورية ، جرّد جيشاً لغزو مصر ، وأن طلائعه قد استولت على العريش . سرّ نابليون أياماً سرور بذلك النبأ الذي برّره له غزو الشام للدفاع عن مركزه ، ولانتهاز الفرصة لتجديد الثقة في صفوف جنوده بالانتصارات المنتظرة ؛ ولا سيما أنه

أصبح غير قادر على الرجوع إلى فرنسا تبعاً لخطة الأصلية ، وأُسي عاجزاً عن الزحف على الهند بدون مدد جديد . على أن في الاستيلاء على الشام مزايلا يستهان بها ، وهى سهولة خضوع سكانه ، وتأمين الحدود المصرية الشرقية ، وفقد إنجلترا قاعدة بحرية ، وذبوع صيت نابليون في أنحاء الشرق ، وصلاحيه الشام نفسه لبدء الزحف على آسيا الصغرى وتركيا أوربا ، وفوق كل ذلك سيقف نابليون للمرة الثالثة موقف المحلص حين يتقدم لتخليص الشام من حكم الجزار الذى لا يطاق ، كما خلص إيطاليا من النمساويين ، ومصر من حكم المماليك . سارت الحملة السورية تحت سماء لافحة ، يقتلها الظمأ والجوع وانتشار الطاعون ؛ وانتهت الحملة بهزيمة عند أسوار ميناء صغيرة ، لولاها لتغير مجرى الحوادث فى العالم . ١ . كتسح نابليون أول الأمر بجيشه الصغير كل ما اعترض طريقه : فأخذ العريش ، واستولى عنوة على يافا ، ثم سار إلى عكا مقر الجزار وطوقها بالحصار فى ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ . وهنا برهنت الحوادث على أنه لا يمكن الاستيلاء التام على أرض ذات ساحل ، ما دامت القوى المدافعة متفوقة على المهاجمة فى المعدات البحرية . فلم يكن الجزار السبب فى هزيمة نابليون بل قوة إنجلترا البحرية ، التى استعملها بمهارة ذلك البطل الشهم الصلِّف ، ذى الطبع الشاذ ، السير سدنى سميث أمير

البحر الانجليزى الذى تمكن ، بفضل المقدرة العلمية التى امتاز بها المهندس الفرنسى بيكار دى فليپو (Picard de Phéliepeau) - من حزب الملكيين الناقمين على الثورة الفرنسية - من تقوية الحاميات ، حتى ظل ذلك الحصن الصغير زهاء شهرين يقاوم الانعام والمقذوفات والهجمات التى صوبها اليه نابليون . وفى ٢٠ مارس رُفِعَ الحصار عن عكا ، لتفشى الطاعون فى المعسكر الفرنسى ، ولقرب نفاد المؤن والذخائر ، ولبلوغ خسائر الجيش فى الهجومين الاخيرين نحو ثلاثة آلاف جندي . ثم جاءت الانباء بأن أسطولاً تركياً فى طريقه إلى مصر ، فخرأى نابليون ألا يترك دقيقة تذهب سدى . وفى ١٤ يونيه ، بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثمائة ميل ، على طريق وعرة وطعام ضئيل ، وصل جيش الشام إلى القاهرة ؛ وبرهن بذلك السفر ، الذى استغرق ٢٦ يوماً ، على مقدار الشدائد التى يمكن أن يعانيتها ويتحملها الانسان ، وعلى ما يمكنه القيام به من الاعمال ، ما دام يسيره قائد عظيم ذو ارادة حديدية .

بقى تحت قيادة نابليون من الجيوش فى مصر ، على رغم الخسائر التى أحدثتها الحرب والطاعون ، قوة كافية ، إذا استخدمت بحكمة لمقابلة الخطر الناهم من الشمال . نزل الانزال ، وعددهم ١٥ ألف مقاتل ، إلى

البر عند أبي قير ، وخذقوا في أما كن غير منيعة ، وانتظر واريثايبدا نابليون بالهجوم .

لاجدال في أن انتصار الفرنسيين على الأتراك عند أبي قير ، في ٢٥ اغسطس ، يعتبر أكبر انتصار في التاريخ ، إذا كانت النسبة المئوية في الخسائر هي مقياس النجاح في الحروب . ذلك أن الجيش الفرنسي الذي هاجم الجيش العثماني كان لايزيد على نصف عدده بكثير ، غير أنه كان ممتازا بحسن القيادة والإقدام والمعدات ، فأعمل فيه الرصاص ، واضطره إلى التقهقر نحو البحر ، حيث هلك حتى آخر رجل من جنوده . وامتازت كل الأعمال التي قام بها نابليون في أثناء تلك الموقعة بالدقة والسرعة والعزم الصادق : كأخلاء الوجه القبلي ، والانسحاب بجمع القوى اللازمة للقتال ، وإحكام الهجوم على الاستحكامات الوسطى ، وتقدم الحيلة بقيادة مورا من الجناح الأيسر في اللحظة المطلوبة . لا محجأ أن يمحو انتصار أبي قير عار الهزيمة عند عكا .

قبل تلك الواقعة بأكثر من شهرين ، كان نابليون عازماً على مبارحة القطر المصري خفية : لأن أخباراً وصلت إليه من فرنسا تنبئ أن الحرب قامت من جديد في أوروبا ، وأن روسيا والنمسا وبيدمنت ونابلي تحالفت ضد الجمهورية ، فأسر نابليون يومئذ إلى دومارتان (Dommartin) قائد سلاح المدفعية عزمه على الرجوع إلى فرنسا مع

بعض قواده . قوتى تلك الفكرة فى رأسه أخبار وصلت إليه من
عدو داهية : إذ أرسل السير سدنى سميث ، الذى كان يطوف بسفنه
قرب الإسكندرية ، إلى نابليون حزمة من الجرائد علم منها أن الفرنسيين
طردوا من إيطاليا ، وأن فرنسا نفسها أصبحت معرضة لخطر الغزو
من جديد . من الطبعى فى تلك الاحوال أن يعتقد الرجل الذى يحب
بلاده — ما دام يشعر بكفائته الحربية — أن الواجب يقضى عليه
بالعودة إلى بلده للذود عن حياضه . كذلك رأى نابليون ؛ إلا أن الدوافع
التي حدث به على ذلك ، كانت لاشك ممزوجة بشئ من المطامع
الشخصية . وذلك أنه على رغم جهره بالحق على الحكومة الفاسدة
المتخبطة ، التي أضاعت انتصارى أركولا وريقولى ، كان يدور فى
سريره أن فى عجز رجال حكومة الاثارة فرصة سانحة لظهوره .
لذلك أقلع من الإسكندرية ، ليلة ٢١ أغسطس ، وبرفته مونج
وبرتوليه (Bertholet) وسبعة ضباط كانوا أقدر رجاله . أما الجنود إلا أبطال
الذين تحملوا من أجله الجوع والظما ، فى أرض أجنبية وتحت سماء
مدارية حارة ، فأنهم فوجئوا بنجر ترك رئيسهم أيام ، حتى أن كليبر
القائد القدير ، الذى عهد إليه فى القيادة العامة بخطاب تركه له نابليون ،
لم يحظ بفرصة يحتاج فيها على هذا العمل .

هذه قصة الحملة الفرنسية على مصر ، تلك الحملة التي بدأت

محفها الجلال وانتهت بتسلل صاحبها في الحفاء . على أن تقديرًا صحيحًا
لكل أحوال هذه الحملة يحتم وقوع الفشل ، لتفوق الانجليز في البحر
من جهة ، وعدم إخضاع عرب السودان إخضاعاً تاماً من جهة ثانية —
والأمر الأخير لا يمكن إخضاع مصر بدون . وأذا سلمنا جدلاً
أن مهارة نابليون كافية لتثبيت قدم الفرنسيين في وادي النيل
تثبيتاً يمكنهم من مقاومة حصار بحري واحتمال خسائر حروب
الصحراء ، فإن المشروعين اللذين كان فتح مصر مقدّمة لهما ، كانا
لا يمكن تحقيقهما أبداً ؛ لأننا إذا ذكرنا المصاعب التي تجشمتها
الحملة الفرنسية الصغيرة في زحفها الذي لم يستغرق طويلاً على الشام ،
وذكرنا الشدة التي لقيها القائمون بتدوين الجيش ، وما لحق الجيوش
من فتك الأمراض وخسائر القتال ، لم يكتمت بد من أن يكون
نصيب الحملة على الهند الفشل ، لاسيما وأنها ستحتاج إلى جيوش
أكثر ، تستنفد مجهوداً أكبر ، فضلاً عن أنها ستقطع مسافات
بعيدة ، في وسط أرض أكثر وعورة ، لا يعرف عنها شيء ، كما
كان معروفاً عن فلسطين .

كذلك لم يكن مشروع القضاء على الدولة العثمانية ، الذي أفضى
به نابليون إلى بورين قبل ترك حصار عكا ، باعثاً على أي أمل في
النجاح ؛ لأن جيشاً مؤلفاً من تسعة آلاف مقاتل ، لا يمكن أن

يقطع المسافة بين عكاء إلى القسطنطينية في جوف الصيف دون أن
يمسه أثرى . وإذا سلمنا بنجاح نابليون في الوصول بسبعة آلاف مقاتل ،
فما وسيلته لعبور الدردنيل ؟ وكيف يستولى على القسطنطينية ، إذا كان
من المحقق أن ستدافع عنها القوة المؤلفة من البحريتين التركية والإنجليزية ؟
لا شك أن كلا المشروعين كان خيالا باطلا . وقصارى القول أنه إذا
كانت مسألة الاستيلاء على القسطنطينية فكرة جديدة اضطّر نابليون
للتخلي عنها بسبب امتناع عكاء ، فإن السير سدننى سمث حال بين
نابليون وبين الفشل المحقق .

أن الحملة الفرنسية على مصر بوجه عام ، والمشروعين اللذين
أضيفا إليها بوجه خاص ، وإن كان يشوبهما شيء من الخطأ في التقدير ،
فإن ذلك لم يقلل من عظمتها ، ولا من نتائجها الدائمة . ذلك أن نابليون
أتى إلى مصر بنظم الحكومات المتمدينة ، وأتاح لأوروبا دراسة
علمية لا تثار وادى النيل ولفته . قال نابليون ضمن ما كتب عن
أخبار تسير ديزيه إلى الوجه القبلى لتعقب المماليك : « وللمرة الأولى
منذ عهد الإمبراطورية الرومانية ، شرعت أمة متمدينة ، بدافع جها
للعلوم والمعارف ، تبحث وتنقب عن تلك الخرائب الفخمة ، التى
شغلت عقول الجماعات المتنورة منذ قرون ، ، ولا ريب أن الحجر
المنقوش بثلاث لغات ، الذى كشفه عند رشيد ضابط فرنسى فى

جيش نابليون ، هو الذى دلّ شامبليون (Champollion) على مفتاح اللغة الهيروغليفية . ولا ريب أيضاً أن كتاب « وصف مصر » ، الذى وضع كل ما جاء فيه بناءً على مشاهدات العلماء الذين رافقوا الجيش ، كان أول وصف علمى لتلك البلاد ، التى دفعت هيروdot منذ أربعائة سنة قبل المسيح لكتابة أبهى وأشهر جزء من تاريخه .

أما تأثير فتح مصر والشام فى شهرة نابليون فعظيم . أجل ! ولى عظمة تريد أكثر من شهرة تأتى من طريق فتح بلدين متعلقين بأقدم ذكريات النظم المسيحية وأقدسها ؟ وأى الأسماء يمكن أن يكون أشهر من الإسكندرية والأهرام وبابا والناصره^(١) ؟ أسماء ذائعة الصيت ، وأذاعت صيتها من جديد انتصارات بونابرت . ومن المهم ملاحظة أن جميع الأخبار ، التى كانت تأتى من ميدان القتال ، لم تشر إلى هزيمة ما ، حتى أن هزيمة عكا أخيراً عنها فى فرنسا كأنها انتصار . وكانت تملأ تلك الأخبار قلوب جمهور القراء الفرنسيين بعاطفة الفخر والاعجاب نحو الشاب المدهش ، الذى فاقت أعماله بين أرض الأقدمين قصة الحروب الصليبية ، وبهرتهم بموازنتها بالاضطرابات والهزائم الماخلية .

(١) بلد ميلاد المسيح وهى واقعة جنوبى شرق عكا على بعد ٣١ ميلاً منها .

الفصل الرابع

تنظيم فرنسا

قبل أن يُدعى ناخب لعمل انتخاب ، كانت فرنسا قد أسلمت لهورها مختارة من شهور نابليون . وذلك أنه لما وصل ميناء فريجس^(١) (Fréjus) ، بعد الاحتجاب ستة الأسابيع التي استغرقها السفر من مصر إلى فرنسا ، كان لوصوله رنة فرح وسرور في أرجاء البلاد ، كأنما بعثر الناس على الدواء الناجع لجميع أدواء الأمة . ولا عجب فقد تدهورت حكومة الأتاراة حتى استقرت في دركات القشل ، وسئمت فرنسا بالحرب والثورة ، واعتقدت بحق أن البطل الذي فتح إيطاليا ، ونظم مصر ، والذي لم يغامر في المنازعات العنيفة والمطاحات الحفيرة التي حدثت في باريس ، والذي لم يعمل إلا للجمهورية ، هو الذي يجد خلاصاً من ذلك الموقف الذي يزداد سوءاً كل يوم ، ويمكنه إرغام التسويين والروس والاتجلائز على قبول صلح شريف ، والذي يستطيع إخماد الفتن التي اثارها الملكيون في لا قنديه^(٢) ، والضرب على أيدي

(١) و (٢) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية الولودة في هذا الفصل .

دعاة الانقلاب الاجتماعى وقطاع الطرق ؛ ثم يقوم بأصلاح الطرق، وتنظيم المالية، وإقامة حكومة عادلة مستقيمة ثابتة فى فرنسا . ليس ذلك الاعتقاد غريباً ، فى القرون الوسطى فى إيطاليا كان البلد الذى تتك به الثورات الداخلية يلجأ إلى حكم تزيه أجنبى عنه ، ليقم الحدود بالقسطاس المستقيم .

تلك كانت حال الرأى العام الفرنسى ، التى ظهرت أولاً فى الترحيب العام الذى قوبل به نابليون فى أكتوبر ، والتى مالبثت أن أخذت شكلاً قانونياً فى الاستفتاء العام . تلك الحال نفسها هى التى ارتكزت عابها حكومة نابليون واستندت إليها . وكذلك استمد نابليون سلطته من أرادة الأئمة لا من حق الوراثة ، بخلاف ملوك برلين وينا وسان بطرسبورج : وأعلن نابليون نفسه أنه وليد الثورة ، وأن صوت الملايين من الناس هو الذى رفعه إلى مكائته وقبل حكومته . وذلك النوع من الحكومة ، الذى لم يكن جمهورياً بحتاً ولا ملكياً محضاً ، بل خليطاً من أقصى أنواع النظامين ، لوجود السلطة المطلقة فيه إلى جانب استناده فى الأصل إلى إرادة الأئمة ، — نقول أن ذلك النوع من الحكومة ، هو جزء من الإرث السياسى الذى تركه نابليون لفرنسا . وأمام ذلك النوع من الحكومة أيضاً ، أُعتبرت الحكومات القائمة على الحق الوراثى ، أو المؤيدة بمجنوش أجنبية ، حكومات

غير شرعية. ولما كان الرأي الديموقراطى فى جانب البونا برتين الذين قالوا عند ما أجلس الانجائز آل بربون على عرش فرنسا نتيجة للانتصار الانجليزى^(١)، أن الانجانب ليس فى وسعهم إقامة أو إسقاط حكومة شرعية فى فرنسا، وأن الأئمة وحدها هي صاحبة الحق فى إلغاء السلطة التى أقامتها الأئمة.

أن الطريقة التى سار بها نابليون سيد فرنسا، تفسر لنا الرجل والعصر الذى عاش فيه : إذ قلب نظام الحكومة بالحملة والعنف معا، ومن قوله فى ذلك لمدام دى رميزا^(٢) : « تلك فترة حياتى التى أظهرت فيها أكبر المقدرة »،. ذلك أنه لما وصل إلى باريس وأكاليل النصر فى أبى قير^(٣) تتلأأ على حينه، وفرنسا كلها تناديه بالبطل، طرح جانبا شعار الجندى، وظهر بمظهر الرجل المتواضع، فتارة يتلو مقالة فى المعهد العلمى عن الآثار المصرية القديمة، وتارة يتنزه فى الطرق برفقة أحد العلماء الأعلام، متمثلا

(١) يشير المؤلف هنا إلى انتصار إنجلترا والحلفاء سنة ١٨١٤، ١٨١٥، التى انتهى بسقوط نابليون وخلفه ونفيه، واجلاس لويس الثامن عشر البوربونى على عرش فرنسا.

(٢) ولدت مدام دى رميزا (Madame de Remusat) طم ١٧٨٠ وتزوجت طم ١٧٩٦ من الكونت شارل دى رميزا الذى أصبح فيما بعد رئيس السراى أيام نابليون، وعينت زوجته كبيرة وصيفات الامبراطورة جوزفين.

(٣) التصود هنا واقعة أبى قير البرية التى انتصر فيها نابليون على الاتراك (انظر ص ٧٦).

بالمثل اللاتيني القائل «والقلم أفضل من السيف»، (Cedant arma togae). والسبب في كل ذلك أن خطته كانت أن يظهر للناس أنه ليس المقامر بالدول فقط، بل هو أيضاً الرجل الضليع في فنون الحياة السامية، المتعطش للعلم، المجل لطبقة المفكرين. كذلك قضى نابليون عدة أسابيع برقب عن كذب مجرى السياسة في العاصمة الفرنسية، ويتعرف مبادئ كل حزب دون أن ينضم لأحدها؛ وإذ عرف أن بين رجال حكومة الأتار جلايدين بمبدئه، وهو الأب سيس (Abbé Sièyès)، تأمر معه على إحداث انقلاب برميير.^(١)

ليس من المأمون القضاء على دستور مهما يكن مرذولاً بدون عناية خاصة بدقائق تلك العملية. أما المتآمران فكان أحدهما رجلاً جُبِل على العمل، وارتكن على قوة السيف؛ وكان الآخر فيلسوفاً أراد أن يبنى نظاماً يقوم على تعادل السلطات، فاتفقا بداءة ذى بدء أن كلا منهما يريد أن تسقط حكومة الإدارة بكيفية لا تمس معها ميل الأمة نحو الجمهورية. هنا وهنا بالضبط كانت صعوبة المشروع: ذلك أن التشيع للجمهورية كان حتى ذلك الوقت أقوى العوامل السياسية في فرنسا، وكان القواد أمثال جورخان ومورو، واثنان من أعضاء حكومة الإدارة الخمسة، والغالية العظمى في مجلس

(١) برميير ثانی شهور السنة في تقيم الحرية الفرنسية .

الحمائية لا يدينون بغيرها ، وما كان لأى انقلاب أن ينجح إذا حاول أن يثير المسالة التي فصلت فيها الغالية الساحقة من الرؤوس المشتعلة بالسياسة فى فرنسا بألغاء الملكية . على ذلك كان من الضرورى السير فى كثير من الحذر ، وإذ كانت سن بونابرت لا تؤهله لعضوية الإدارة ، فقد رأى أن يُعْمَل الأعضاء على الاستقالة جميعاً ، وأن يَمَهَّدَ المجلسان التشريعيان بمجرد ذبوع ذلك الحذر ، إلى مدبرى المؤامرة إعادة النظر فى الدستور .

كانت الخطة بسيطة وقائمة على الجراءة ؛ لكنها تطلبت سلسلة من الدسائس الخطرة ، تنمها فعلة فجائية تبين للناس أن يد البطش بالمرصاد . على أن البحث الدقيق أسفر عن أن ثلاثة من رجال الإدارة لا يعتمد عليهم ، وأن ستين من مجلس الشيوخ يشك فى مبدئهم ، وأن مجلس الحمائية لا يرجى منه شئ ، وأن الحالة النفسية بين الممال يعقوبيين صيرت باريس ميداناً خطراً لأى محاولة ضد المبادئ العيقوبية . بناء على ذلك تقرر أن يستعمل مجلس الشيوخ حقه الدستورى لتقرير نقل الهيئة التشريعية من باريس إلى ضاحية سان كلو (St. Cloud) ، بحجة وجود مؤامرة فى باريس تهدد استمرار جلساتها . هناك فى مأمن بعيد عن مصانع باريس ، والنفسية المضطربة بين عمالها ، وفى وسط حديقة امتلات بجنود نابليون

الذين عرّكتهم الحروب وطبقهم الطاعة، صحتّ عزيمة نابليون على أن ينتزع من آخر مجلس ثورى فى فرنسا صكّ القضاء على نفسه . نفذت الحطة بالتام يومى ١٨ و ١٩ برمير (١٠ و ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩)، وهما من الأيام الخالدة فى التاريخ لموافقتهما أول عهد امتلاك نابليون ناصية الأمور . وتفصيل ما حدث أنه بمجرد قرار مجلس الشيوخ، صيحة ١٨ برمير، ركب نابليون فى موكب فخم من الفرسان إلى التويلرى، حيث أقسم أن يقيم الجمهورية على مبادئ الحرية والمساواة . بعد ذلك أفضى لنا موسى أحد رجال الأمانة، وقد سعى لمقابلته فى حديقة القصر، بكلمات ردت صداها أنحاء فرنسا قال : " ما ذا فعلتم بفرنسا التى تركتها زهرة لا تتركها والسلام ينجيم على ربوعها، وعدت إليها فأذا الحرب بها ! خلقت لكم النصر فعدت لأرى الهزيمة ! حلت ألكم ثروة إيطاليا وهأنذا أجد التهب والبؤس ! " . لكن فى اليوم التالى اجتمع أعضاء المجلسين التشريعيين فى سان كلو، والغضب يملأ جنوبهم، والشكوك تساورهم، لما وجدوا أنفسهم محاصرين بمحيط معاد، بحجة مؤامرة خالجهم الشك فى حقيقة وجودها، لتأييد مشروع رأوا أنه سيؤدى إلى سيطرة القوة الناشئة . لذلك لم تصادف دعوة نابليون هوى فى نفوس المشرعين المجتمعين، والدليل على ذلك أنه بعد أن واجه نابليون مجلس الشيوخ بخطبة مفككة

مضطربة، ظهر فجأة في الأورانجيرى^(١) (L'Orangerie) ، حيث كان مجلس الخمسة منعقداً برئاسة أخيه لوسيان ، فعلا الضجيج حوله ، حتى أغمى عليه وحمل إلى خارج المكان . من حسن الصدفة أن كان لوسيان في كرسى الرئاسة بالقرب من أخيه ، إذ خدمت بلاغته الرائعة المزينة نابليون، وبذلك أثر لوسيان مرة ثانية في حياة أخيه^(٢) . ذلك أنه بينما كان الأعضاء يرفعون الصوت عالياً ، لاستصدار قرار بحرمان نابليون من التمتع بحماية القانون ، انسحب لوسيان ولحق بأخيه في الحديقة ، وناشد الجيوش أن تتخذ المجلس من زمرة اللصوص المسورة الذين استأجرهم بت (Pitt) رئيس الوزارة في إنجلترا ، ليقتلوا على حريته . صادفت المهزلة مرتعاً خصيباً ، وصدق السامعون الكذبة ، إذ لم تمض بضعة دقائق بعد الذي حدث أصيل ذلك اليوم القائمة سماؤه ، حتى كانت الحراب تلمع في أيدي الجنود المصطفة عند مدخل الأورانجيرى، وحتى كان أعضاء المجلس بأرديتهم الحرايتدافعون، ويتقاطرون صوب الأبواب ، ويقفزون من النوافذ ، لا يلوون على شيء غير الاختفاء في ظلام الأشجار ، حتى غابوا عن الأنظار ونسيهم

(١) حديقة خاصة بها بيوت زجاجية لزينة أشجار البرتقال على جدران اصطناعية ، نظمتها مانسار (Mansart) للهندس الفرنسي الشهير لفتى على من سنة ١٥٩٨ الى ١٦٦٦ ، وكانت تحتوي المديقة على ثلاثة أقسام ، وتسع ١٢٠٠ شجرة بيوتها الزجاجية .

(٢) أثر لوسيان في حياة أخيه نابليون لأول مرة عند ما وصى بالزعيم باؤولى (انظر ص ١٦) ، مما أدى في آخر الأمر الى رحيل ليرة يونانيرت كلها من قرشقال فرنسا .

التاريخ . في غرة فجر اليوم التالي ، اجتمعت لجنة صغيرة من أعضاء المجلسين من أنصار تعديل الدستور ، وقررت تأليف حكومة مؤقتة يكون أعضاؤها نابليون وسييس وروجيه ديكو (Roger Ducos) ، ريثما يتم إعداد قوانين أساسية . بذلك ، وبدون إرافقة قطرة دم ، انتهى حكم اليعقوبيين الذى طال ، وذلك ما كانت تتوق إليه البلاد . كان الدستور الذى وضع بعد مضى شهر على ما حدث ، مستكملاً .

مظهر الحرية السياسية ، على رغم وضع السلطة العليا فى يد بوناپرت . ولما كانت روما معتبرة المثل الأعلى للنظم الجمهورية ، فاحتراماً لذلك الاعتبار ، لُقِّبَ أعضاء السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد بالقناصل ، وأنشئ إلى جانب هيئة الحكومة مجلس الترييون لمناقشة مشروعات القوانين ، ومجلس الشيوخ للسهر على الدستور . غير أن تلك النظم الشبيهة بالرومانية لم تخدع ذوى العقول الراجحة فى البلاد ، ولم يغربهم زخرفها الذى دبحه حذق سييس ؛ لأنها كانت كلها ترمى إلى تسرب قوة الرأى العام بالتدريج نحو جهة رئيسية وهي الحكومة . ذلك أن الفصل الأول ، ومدة ولايته عشرين سنوات ، أصبح رئيس الحكومة ، فيختار الوزراء ويدير دفة الأمور ، ويضع خطة السياسة العامة . أما السلطة التشريعية الحقيقية ، فلم تكن فى أيدي مجلس الترييون الذى كان له حق المناقشة وليس له حق التصويت ، كما أنها لم تكن

في أيدي الهيئة التشريعية التي كان لها حق التصويت ولم يكن لها حق المناقشة ، بل في أيدي مجلس الدولة المكون من أعضاء أخصائيين في التشريع ، يناط بهم تحت رئاسة القنصل الأول تحضير القوانين وصوغها . وفوق ذلك لم يمنع تضامن أعضاء الهيئة التنفيذية العليا من الجنوح إلى الاستبداد بالأمر ، لأن زملاء نابليون في الحكم لم يزاخموه في سلطته ، ولم ينفدوا سياسته : بل كان الأول ، واسمه كامباسيريس (Cambacerès) ، عالماً قانونياً قديراً ، أصله من حزب اليعاقبيين قتلته الملك ، يصرف جل وقته في تمتيع نفسه بما لذ وطاب من المأكول والمشرب . أما الآخر فاسمه لبران (Lebrun) ، وكان عالماً مثقفاً متواضعاً من أنصار الملكية القديمة ، طواه نابليون تحت جناح حظه الطائر ، واتخذ كبرهان على أن أمثال تلك السوابق لا تحول دون الانضواء تحت لواء المهد الجديد .

كان شعار الحكومة الجديدة الذي حل محل شعار الثورة : العظمة والتسامح والكفاية . ولا عجب فالديموقراطية لم تعد رجالات مخكين في فنون السياسة ، يعرفون كيف يستهوون عقول الشعوب بالأقوال الخلابه . لكن نابليون كان فضلاً عن ذلك أول الساسة وأميرهم في فن تحلية الحكومة في عين الرأي العام . ذلك أنه كان واحداً نصب عينيه صورة مجد روما السالف ، تيهب بين أسلاب فتوحها

التي امتدت إلى أقصى المعمورة ، وتبنى الجسور والحمائم والملاعب
المصنوعة مدرجاتها من الرخام ، والقنوات الهائلة في أنحاء أوروبا
الرومانية . وإذا كانت روما صاحبة تلك العظمة في الماضي ، فأخلق
باريس أن تكون كذلك في الحاضر . هذا إلى اعتقاد نابليون أن فن
السياسة لا يقتصر على وضع القوانين وإدارة شؤون البلاد ،
بل يشمل أيضا ما يجب أن يتركه السلف للخلف من ذكريات ظاهرة
للعظمة النالدة . لكن فكرة جعل باريس عاصمة الفنون الاوربية ،
وكعبة طلاب العلم ، يرجع عهدها للحكومة الادارة ، وساعد على
إنضاجها ما حمله نابليون من التحف والنفاثس إلى باريس أثناء الحرب
الايطالية الاولى . أما وقد أصبح هو المسيطر على فرنسا ، فليس
ببعيد أن تأتي فتوحه العظيمة بما يزيد باريس بهاء . فوق تلك الفكرة
أضيف مشروع لاظهار مثل جديد للعالم ، بما قد تصل إليه البلاد من
التقدم في الاعمال العامة والفنون الصناعية ، بفضل تشجيع حكومة
رشيدة تحب العظمة وتنشدها .

كان الركن الثاني في عقيدة نابليون ، أن تقوم الحكومة على
قاعدة التسامح . ولا عجب فرجال الحرب ، الذين يتلقون دروسهم
السياسية في ميادين القتال ، لا يهيمهم فيمن يستخدمون اختلاف
التزعات الدينية أو السياسية . وكذلك اختار نابليون رجال حكومته ،

كما اختار كرومويل جنوده قبله ، على مبدأ التسامح الواسع ؛ وقصد أن يتمتع اليقويون والجيرونديون والملكيون على السواء بحماية القانون ، وأن يبنذوا التباعد الحزبي الماضي في ظل حكومته المنظمة . ومن أعماله في ذلك الصدد أن خففت القوانين ضد المهاجرين ، وبدأ الكاثوليك يشعرون أن عهد الاضطهاد قد مضى ، وأن الحكومة الجديدة تميل إلى مجارة أميال الأمة الدينية ، فجاء كل ذلك مصداق قول نابليون : « لا مجال للمواطن في أمور حكومتى » .

أما في الكفاية الإدارية ، فلم ير العالم أقدر من نابليون . ذلك أن كفاية الرجال لا تنحصر في بذل الجهد ، والنظام ، وتقهم أصول الأشياء ، والاهتمام بدقائقها فقط ، بل تتوقف أيضاً على خلتين نادرتين ، وهما القدرة على إثارة الحماسة ، وعلى الأمر والنهي بين الناس . كان نابليون عند الضرورة يكب على عمله ثمان عشرة ساعة من أربع وعشرين ساعة ، حتى قال عنه شاتال (١) : « كثيراً ما كانت تستمر هيئة المجلس معقودة برأسه زهاء ثمان أو عشر ساعات ، يحمل هو في أثنائها عبء الكلام والمناقشة » . وما رآه إنسان في أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، أو على أثر أي عمل جهيد ، إلا وجد ذهنه حاداً يقظاً .

(١) جان أنطوان شاتال (Jean Antoine Chaptal) سيلي فرنسي شهير ، أصله أستاذ للكيمياء في جامعة مونبلييه من سنة ١٧٨١ ، وعمل في الثورة حتى صار وزيراً للمخيلة سنة ١٨٠٠ ، ثم اعتزل الحكم سنة ١٨٠٤ بوتي كذلك حتى مات سنة ١٨٣٢ .

هذا وكانت مناقشاته للخبراء سريعة ودقيقة وتامة الوضع ، وكان صبره بحيث لم يعالج أمرا وتركه قبل معرفته حقيقة . ولما كان معتدلا في عاداته ، لا يميل لنوع خاص من الطعام ، ولا يجاس إلى مائدته أكثر من اثنتي عشرة دقيقة إلا إذا استهواه الحديث ، فإنه كان أعجوبة ونموذجا لمرءوسيه . ومع أنه لم يتعلم تعلما منتظما ، ولم يعرف من اللغة اللاتينية غير القليل ، ومن اللغة الاغريقية شيئا ، ومع أنه كان كثير اللحن في نطق الكلمات الفرنسية ، كأن يقول كلمة (Section) بدلا من (Scssion) وكلمة (Fulminant) بدلا من (Culminant) وكلمة (Voyagères) بدلا من (Viagères) ، فإنه على رغم ذلك لم تمس عليه بضعة شهور حتى دأن لرأيه أقوى الرؤوس حنكة في باريس . وكانت ثقته في نفسه لاحد لها ، وتلك ميزة من ميزات الرجال ؛ فكان كلما اختلف مع أعضاء مجلس الدولة في رأى ، ضرب رأسه قائلا : « أن هذا الرأس أداة أنفع لى من نصيحة نفر يعدون أنفسهم مدربين مخكين » . ولذا كان يعمل برأيه ، مسترشدا بنور بصيرته ، معتمدا على دقة ذاكرته الواسعة ، وحدة فهمه وصفاء ذهنه ؛ وهو في أثناء ذلك لا يبنى عن تغذية نفسه بالاشياء العلمية ، التى كان لها عنده المكان الثانى بعد الامور العملية . وكان دقيقا جدا وشديدا في امور المالية والحسابات ، حتى أصبح كل موظف فى الحكومة يشعر أن زمن

التهاون قد انقضى ، ويجد في العمل كأن عين نابليون ترقبه وهو جالس إلى مكتبه . وكان ملها بالأأمور الخاصة بالأأارة صغيرها وكبيرها ، غنيا عن مساعدة مرءوسيه في معرفة دخالها . هذا ولم يكن له مثيل في القدرة على تسير روح العمل ، التي هي أهم من العمل نفسه . ولم تكن السرعة البالغة التي كان يمل بها رسائله الحربية على ناموسه ، مقللة من قيمة تلك الرسائل ، التي كانت دائماً موجزة حاسمة ، ليست بالخرقاء ولا بالغامضة ، بل تم بوضوح عن طبيعة صاحبها ، حتى أن القارئ الذي يطلع على صحيفة منها ، ليشعر كأن يسمع ذلك الصوت القوي المهيمن ، فيمتلئ حمية مما يفرضه عليه ذلك العقل المتوقد .

ربما كان من اللازم لإعادة حكومة رشيدة في فرنسا ، ألا يمر قل إرادة نابليون وجود سلطات محلية . وذلك أن النظام الذي يستند إلى وجود مثل تلك السلطات ، لا يصالح بدون وجود عنصر الأشراف ، أو على الأقل بدون وجود ثقة متبادلة بين الحاكم والمحكوم . غير أن شيئاً من هذين العاملين لم يكن حاصلًا في سنة ١٧٩٩ ، لأن الثورة الفرنسية قضت على أشراف فرنسا ، وبذرت بذور العداوة والانقسام في طول البلاد وعرضها . لذلك التجأ نابليون بحكم الظروف للرجوع إلى السياسة المركزية ، التي كانت المظهر الرئيسي للحكم الفرنسي

منذ أيام ريشيليو ، فأصبح الوالى فى مقاطعته ، والحاكم فى دائرته ، والمحافظ فى مدينته ، صنائع ذلك النظام المركزى ، وآلات خاضعة لأمره . ذلك هو الاستبداد بعينه ؛ لكن ربما كان من المحال علاج الحيات السياسية السامة ، التى اضطربت فى جسم الأمة الفرنسية أثناء العشر السنوات الماضية ، بدواء أخف مفعولا .

ولم تكن هناك أى فكرة للرجوع إلى نظام العهد القديم . ولا غرو فإن من أكبر الحسنات التى أعدها نابليون ، أن النظم الرديئة التى قامت عليها الامتيازات الاجتماعية ، والتى قضى عليها القضاء الأخير فى أول مجلس ثورى ، لم تجد مكاناً بين نظم نابليون ، وأن أصبح الفلاح الفرنسى ، فى ظل حكومة نابليون القوية ، متحققا من جديد استحالة رجوع عهد الأرهاق بما فيه من قوانين الصيد ، ومحكمة المنزى ، وضرائبه المجحفة . من تلك الحسنات أيضاً وسام الشرف (Legion d' Honneur) الذى جعله نابليون وساما غير وراثى للأتباع به على ذوى الخدمات الحربية والمدنية ، ليكون بمثابة محرك لهم ، وعدة فى يد الحكومة ، على رغم ما تقول به دعاة المساواة المطلقة . قال نابليون فى ذلك الصدد : « تلك الصغائر هى التى تسلس قواد الرجال » . هنا ولم يحدث نابليون تغييرا جوهريا فى قانون الميراث الذى خلقته المجالس الثورية ، بل جعل القانون المدنى يتمشى مع فكرة

أساسها الشرعى تقسيم التركة بالتساوى ، مع بقاء جزء منها يتصرف فيه المورث كما يشاء . ثم من المعلوم أن التجارة والصناعة كانتا في عهد الملكية مرهقتين بقوانين النقابات ^(١) ، وبضرائب المرور والداخلية ^(٢) ، وبالنظام المالى الذى كان توزيعه سيئاً لدرجة أن أثقل أعبائه كان على أقل الناس مقدرة على حمله . جاءت الثورة الفرنسية فاكتمست تلك المظالم فى قسوة وسرعة ، فلا ترى لها من باقية ؛ وجاء نابليون فلم ينس أنه مهما تكن فرنسا متساهلة فى حريتها السياسية ، فهمى لن تسمح بأرجاع نظام الامتيازات الاجتماعية . لذلك جعل « باب الترقى مفتوحاً للعواهب » ، لاعتقاده أن ذلك هو الميعار الوحيد للديموقراطية . والسر الأكبر فى حسن السياسة ، حتى يُضمن لكل مواطن ، مهما يكن وضعاً أو مقطوع الحسب ، إمكان الرقى إلى أكبر الوظائف والمراكز فى الدولة .

إذا كان ثمة حاجة بعد ذلك للدلالة على استمرار تأثير الثورة الفرنسية ،

(١) النقابات القديمة تختلف فى أغراضها عن النقابات الحديثة التى تقوم من أجل حماية مصالح العمال فى أكثر الأحيان . أما النقابات القديمة فكان غرضها حماية مصنوعاتها ، ولذلك كان جل عملها مزاحمة النقابات التى تخرج مثل مصنوعاتها ، واحتكار الأسواق وأمكنة اللواد النفل ، مما يؤدى إلى تطيل التحسن والتوسع الصناعى .

(٢) كان فى فرنسا قبل الثورة نظام جبرى بين المقاطعات ، فأذا أرسل تاجر من مقاطعة فى الجنوب بضائع إلى باريس مثلاً ، كان يدفع ضرائب مرور عدة على حدود كل مقاطعة تمر بها بضائعه . وظاهر تأثير مثل تلك التضييق فى دفع أثمان الحائضين واضاف حركة البيع والشراء .

فليس أدل من نظام توزيع الأرض الذى وضعته الثورة ، وأقره نابليون وثبته فى أصول القوانين . وفى ذلك دليل على أنه لم يمنح نحو الرجعية ، بل نحو مبادئ الثورة ، فى المسألة التى تمتاز عن جميع المسائل الأخرى بمساسها كيان المصالح الحيوية فى البلاد . فلم يفكر يوما فى حمل الفلاحين على إرجاع الأرض التى كانت تابعة للكنيسة والأشراف ، والتى آلت إلى الفلاحين أثناء الاضطرابات فى العشر السنوات السابقة ، إما بالابتيع بثن بخس ، وإما بدون حصول عقد مبايعة مطلقاً ؛ بل عمل نقيض ذلك ، لأنه كان من أهم أركان سياسته تعزيز تلك الحقوق الغامضة المختلف فى صحتها ، وعدم الاقتصار على جعل الحكومة تحمى ذمار الفلاحين ، بل وجعل الكنيسة التى انتزعت منها أملاكها قسراً تقر ذلك العمل وتوافق عليه . وما كان ثمث سياسة أمثل من استمالة أكبر المصالح الاقتصادية وأهمها فى فرنسا نحو الحكومة الجديدة ، إذ أصبح كل فلاح يعتبر نابليون حاميه . وكما أن الإصلاح الدينى فى إنجلترا ، زمن آل تيودور ، توطدت دعائمه بتوزيع أسلاب الكنيسة الكاثوليكية ونفائسها على طبقة الملاك الجدد ، كذلك كانت الحماية التى شمل بها القنصل الأول أصحاب الحقوق الملكية الجديدة الممنوحة إبان الثورة ، خير كفيل للأمة بأن النظام القديم لن يعود .

كانت الأحوال تدعو إلى الإصرار على إقامة تلك الأشياء اللازمة للحكومة الديمقراطية الجديدة ، لاسيما وأنه كان في عزم نابليون أن ينبذ كل ما عداها من مستحدثات الثورة . من ذلك خطته نحو الكنيسة ، التي صادف من أجلها انتقاداً أشد مرارة مما صادفه في كل أعماله : ذلك أنه أصبح من أوضاع العصر ، لابين الطبقة المتعلمة فقط وبين الطبقة العاملة التي كانت لها اليد العليا أثناء الثورة ، نبذ الديانة كـفريّة غير جائزة ، واعتبار الكنيسة أداة للجهالة والامتيازات والظلم ، يجب إضعاف نفوذها ، وتشديد المراقبة عليها . لامبالاة في كل ذلك ، فإن الطبقات المتتورة في باريس ، ومعظم قواد الجيش وضباطه ، وجانباً كبيراً من رجال السياسة النابيين ، كانوا إما كفاراً أو مستهترين بدينهم ، يعتبرون القسيس فريسة الخرافات العتيقة وحليف الأجنبي ، وعدو وطنه . وقد تجلّت تلك العقيدة في أعمال المشرعين ورجال الحكومة إبان الثورة : ففي عام ١٧٩٢ تزعت الجمعية الأهلية أملاك الكنيسة وحُبست عليها أوقاف محدودة ، وأرغمتها على قبول نظام ديموقراطي جائز بالنسبة إلى نظام عهد الحواريين في المسيحية الأولى ، لكنه يخالف كل المخالفة نظم الكنيسة وعقائد الكاثوليك في القرون الحديثة . لذلك امتنع في أنحاء البلاد كل كاثوليكي شريف غيور على دينه عن حلف يمين الطاعة للنظام الجديد ، فاضطهد بكل ضروب

لاضطهاد الممكنة في ذلك العصر ، ولكن بلا جدوى كما هي الحال في عهود الاضطهاد غالباً . ظلّ انقسام الكنيسة قائماً ، وأخذ المتمردون من رجال الدين يقيمون شعائرهم في الحقول والغابات ، ويشعّون على الذين قبلوا النظام الجديد وكنائسه الحالية . ثم حدث أن المرتبات الضئيلة ، التي كان يتقاضاها الذين قبلوا النظام الجديد ، أصبحت فوق طاقة الخزينة الحاوية . لذلك ألغت الحكومة الكنيسة الكاثوليكية ، وأعلنت حيدها فيما يتعلق بأصول الدين ؛ ولكيلا يستهدف النظام الجديد للخطر من جراء إظهار الشعائر الدينية ، تقرر ألا يسير أى قسيس في موكب بردائه الأبيض الفضفاض في الطرقات العامة ، وألا تُدق نواقيس الكنائس إبنانا بدعوة الناس للعبادة .

بيد أن نابليون كان لايقبل الرأي القائل أن الدين قوة دنيوية زائلة ، على الرغم من بقاء العقيدة اللا أدرية في نفسه منذ حدوثه . ذلك أنه كان يعرف تاريخ حوادث لا فتديه ، وشهد الفلاح الإيطالى في معبده ، ورأى شدة إيمان الفلاحين بالقدّيسين في أنحاء البلاد الكاثوليكية ، واعتقادهم الراسخ في المعجزات ، وفي ألوهية سلطة البابا في روما ، وفيما لشفاة السيدة العذراء عند الله من التأثير . والسياسى المجنك يعلم ما تلك القوى الروحية المسيطرة على نفوس الفلاحين وعساكر الجيش من الأهمية ، فيستميلها ويجعلها في قبضته ؛ لأنّ الدين

ليس كنظريات الكيمياء إذا قدمت نُبذت ، بل هو « سر النظام الاجتماعي » ، وهو « الوقاية » ، ضد الألفك والشعوذة ، وهو القبس المضيء ، الذي جعل طريدي الحياة يطيعون أناسا لولاه ما أطاعوهم . بينما ينزله نابليون ذات ليلة مع أحد أعضاء مجلس الدولة ، إذ فتح معه باب الحديث في موضوع الدين قال : « كنت هنا يوم الأحد الماضي ، أسير وحدي والطبيعة ساكنة ، ففرع أدنى فجأة صاصلة ناقوس كنيسة رويل (Ruel) ، فحركت شجني ؛ والمرء أسير عاداته وتربيته الأولى . قلت لنفسى ما أروع هذا الصوت فى نفوس المتدينين ! لعمري كيف يعمل فلاسفتكم وذوو الرأى فيكم هذه الظاهرة ؟ ينبغي أن يكون الناس على دين تتولاه الحكومة ... قديقولون إنى كاثوليكي ، ولكنى لست شيئا من ذلك . كنت مسلما فى مصر ، وسأكون كاثوليكيًا هنا ، جريا وراء مصلحة الأئمة . أنا لا أعتقد فى الأديان ... بل فى فكرة وجود الله » . ثم أشار يده نحو السماء وقال : « الذى خلق كل هذه الأشياء » . ولا عجب فرجل الدين هو الحليف الطبيعي للحاكم المدني فى جميع المصور والأجيال ، لأنه يثبت روح الطاعة فى النفوس ، ويشرح للناس « الوسائل الخلقية المؤدية للاتحاد » ، لا « العقائد التى تقسم الناس شيعا » ، ويساعد أبناء الكنيسة بما يعرف من قانون وزراعة وطب ، ويعمل بقوة تأثيره على تثبيت

النظام الاجتماعى . كان نابليون يعرف كل ذلك : إذ قال ذات يوم : «وهنا خمسون أسقفاً من المهاجرين تجود عليهم إنجلترا بالمال ، وهم الآن قادة الأكليروس الفرنسى ، يجب القضاء على نفوذهم ، وهذا يتطلب موافقة البابا ،» .

من أجل تلك الأسباب ، وأسباب أخرى ، عزم نابليون على مصالحة البابا ، فبدأت المفاوضات فى باريس فى جو من التصلب والدهاء من جانب الكرادلة الإيطاليين ، ومن المحادعة المزوجة بالغدر من جانب نابليون . ثم قبل الطرفان فى أغسطس سنة ١٨٠٢ الاتفاقية ، التى بقيت أساساً للعلاقات بين الكنيسة وفرنسا لمدة ثلاث ومائة سنة . كان مضمون الاتفاقية أن اعترف البابا برجال الدين الدستوريين ^(١) ، وبالأوقاف المحدودة ، وبنظام توزيع الأرض إبان الثورة . فى مقابل ذلك أعاد القنصل الأول الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وضمن حق إقامة شعائرها جهرًا ، واعترف بأنها دين السواد الأعظم من الفرنسيين . على أنه كان حيثئذ — كما هو حاصل الآن — خصوم كثيرون للعبء الذى دارت عليه الاتفاقية ؛ لكن من المتعذر إنكار مزايا اتفاق خفف من فزع الفلاحين ، وبما الانقسام الداخلى فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، ووفق بين الكاثوليك وحكومة ذلك العهد ،

(١) هذه الكلمة كانت تطلق على التساوية التين قبلوا النظام الجديد الذى سنه الدستور .

إذا استثنينا طائفة لاتذكر ممن رفضوا حلف اليمين الجديدة . وبالجملة
وولقد عادت المحارب سيرتها الأولى ، ، كما قال نابليون ؛ غير أنه سرعان
ما شعر رجال الدين بأنهم دفعوا ثمناً باهظاً إزاء الاعتراف بهيئتهم :
إذ تلى الاتفاق نجاة سلسلة وقوانين سياسية ، جعلتهم مكتوفي الأيدي ،
فأصبحوا آلات مسخرة للحكومة واسعة السلطان .

قبل ذلك كان نابليون قد حدد موقفه إزاء الروح السياسى المتعرد
الذى هو وليد الثورة وراثتها . ذلك أنه بينما كانت كل مناصب
الحكومة ، من رئاسة قرية إلى عضوية مجلس الدولة ، مفتوحة لحزبى
اليقويين والملكيين الذين انضموا للحكومة ، إذ أوصدت أبواب
التسامح والعدالة فى وجه من لم يصلحها . وكانت نتيجة ذلك ، أنه لما
حدث فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ محاولة اغتيال القنصل الأول ، وهو
راكب عربته قاصداً دار الأوبرا ، لم تُوجَّه التهمة إلى الملكيين - الذين
دبروا المكيدة ، ولم يسفر البحث عن نسبة المؤامرة إليهم - بل وجهت
إلى النواب المتطرفين المتصلين باليعقوبيين ، المعروف عنهم أنهم ذوو
خطر على البلاد . وسرعان ما حصرت التهمة فيهم ؛ وسرعان ما أبعد
نابليون مائة وثلاثين يعقوبيا من غير إثبات مادى ضدّهم ، لالتكفير
عن سابق إساءاتهم ، بل كضمان بمنع الأجرام فى المستقبل . قد
نلتبس العذر للرجل الذى يروح ويغدو وهو مهدد دائما بالاعتقال ،

إلا أن علاج الكبار بما ينال في روح العدالة يشف عن جهل تام بقواعد السياسة. كان الملك أقل خطراً من اليعقوبي، وإنما كان أقل منه مرونة للانضواء في نظام الحكومة الجديد. وكانت كعبته لندن، ومسرح أعماله المدائية الأقاليم البرية الكثيفة في غرب فرنسا، حيث كانت قوته تستند إلى إخلاص طبقة الفلاحين البائسة، وإلى عطف كاثوليك العالم رجالاً ونساء. لذلك كان لهم الأول للجمهورية الفرنسية القضاء على الفتنة في لاغنديه، واهم الثاني النجاة مما يوجه نحوها من الضربات غير المنظمة بالمؤامرات الدولية. أدى بعض التساهل في المسائل الدينية إلى ظهور بارقة السلام على ربوع المناطق الغربية قبل أن يعود نابليون من مصر، وعلى ذلك فليس له فضل التوفيق وإنحاد السيوف إلا في أدوارها الختامية. غير أن ذلك النجاح العظيم في حسم نزاع امتاز في كل أدواره بوحشية غربية، قد عكر صفوه جريمة القبض على فروتيه (Frotté)، الذي كان أكثر زعماء الملكيين جرأة وأصلبهم عوداً؛ قبض عليه وهو ذاهب إلى ألسون (Alençon) بعد إخلاء سبيله؛ ثم حوكم أمام محكمة عسكرية، وأعدم ومن معه من الاتباع رماً بالرصاص. إنا وإن كنا لانستطيع إثبات صدور أمر بشأن تلك الحادثة من نابليون، إلا أننا نعرف أن الضابط الذي دنس شرف بلاده العسكري بتنفيذها لم يوجه إليه أي تكدير.

كانت تهدئة لافنديه سنة ١٨٠٠ هدنة أكثر منها تسوية نهائية .
يثبت ذلك أنه لما أصبح من الواضح أن نابليون لن يلعب دور الجنرال
مُلك الانجليزى (١) ، ابتداءً المتهورون من حزب الملكيين يتآمرون
على التخلص منه بطريق القوة . كان محور تلك المؤامرة ، التي كان
غرضها في الحقيقة قتل نابليون ، هو الكونت دارتوا (٢) ، ذلك الأمير
الفرنسى الذى ظهر جنبه وطيشه وتأثره بالأمهات وهام في كل أدوار حياته ،
التي كانت معرة له ، ومجلة المصائب لا تباعه . كان أعوانه وشركاؤه
الرئيسيان الجنرال بيشجرو (٣) فاتح هولندا إبان الثورة ، وجورج

(١) ولد جورج منك (George Monk) علم ١٦٠٨ في مقاطعة ديفن (Devon)
في الجنوب الغربى من إنجلترا . وهو جندي شهير بدأ حياته العسكرية سنة ١٦٢٥ ، وكان ملكيا
مات لآل ستيوارت . ثم انقلب جمهوريا وانضم الى كرمويل زعيم الثورة الانجليزية ، وأصبح
كرمويل بمهارته الحربية فاضطه به اخضاع اسكتلندا الملكية . وفي سنة ١٦٥٤ عينه كرمويل حاكما
على اسكتلندا ، حيث أظهر حزما وطنية حيا فيه الناس . ولما مات كرمويل سنة ١٦٥٨ ساد
الاضطراب في أنحاء الجزر البريطانية ، فانهز منك الفرصة وعبر الحدود الاسكتلندية الى إنجلترا ،
ودخل لندن سنة ١٦٦٠ على رأس ستة آلاف اسكتلندي دون أن يلقي مقاومة . هناك ظلت
سياسة مجبولة حتى وجد الفرصة سانحة لتأييد فكرة إعادة آل ستيوارت . وقد نجح منك ورجعت
الملكية للطردة ، وتبوأ شارل الثاني عرش إنجلترا . وفي العادة الأخيرة وجه الشعب الذى
أراد الملكيون في فرنسا من نابليون .

(٢) الكونت دارتوا (Comte d'Artois) هو ثاني أخوة لويس السادس عشر . وقد
تولى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ ولقب شارل العاشر .

(٣) ولد شارل بيشجرو (Charles Pichegru) سنة ١٧٦٢ . وأبوه عامل فقير ،
أرسله الى المدرسة الحربية في برين ، التي تخرج منها والتحق بسلح الدفعية ، وأظهر شجاعة
عظيمة في خدمة جيوش الثورة ، فارتقى بسرعة الى رتبة قائد سنة ١٧٩٢ . الا أن ألباه كانت

كادودال (George Cadoudal) أحد أبطال الملكيين المتمردين في
لافتنديه ، وهو الذي خاطر مراراً بجسمه البدين وبرقبته العريضة ،
في غمار المسكن والملاحم في غرب فرنسا ، فلا يتظر أن يتثنى عن
المغامرة في خطر الاشتباك في معركة مع حرس نابليون . بيد أنه كان
من المتعذر إنفاذ المؤامرة ، كما هي الحال في كل مؤامرة واسعة النطاق .
ذلك أنه قبل أن ينزل جورج كادودال ورجاله على شاطيء فرنسا ،
كانت شرطة نابليون قد أحاطت علماً بنياتهم ، وعرفت كيف كان
في عزم الجناة قتل القنصل الأول ، أو أخذه حياً في وسط معركة في
الطريق ، وكيف كان الأمل معقوداً في مورو ليقبل حين إذ ذاك
التقدم إلى الميدان وإعادة الملكية ، لأنه كان أعظم القواد الذين اسفوا
لازدياد الحكم المطلق . ولكن سرعان ما ألقى القبض على المتآمرين
الحقيقين والمزعومين ، وقدموا للمحاكمة ، فكان الأعدام جزاء
وفاقلاً منتظراً لجورج ورجاله الاثنى عشر الأشداء . أما يشجرو فمات
في السجن ، ويحتمل أن يكون هو الذي انتحر . أما مورو فحكم عليه

دائماً ملكية ، واشتمت منه حكومة الإدارة الحياة فنفته ، غير أنه هرب الى إنجلترا ، ومنها ذهب
الى ألمانيا ، حتى كانت مؤامرة جورج كادودال لاغتيال القنصل الأول ، فجاء الى باريس لتنفيذ
للمؤامرة . وحلول عبأ مع كادودال استقالة القائد مورو للاشتراك معهم . ثم كشفت المؤامرة في فبراير
سنة ١٨٠٤ ، وسبق الجناة الى سجن الميكل في باريس . وفي أبريل وجد يشجرو في السجن ميتاً
حيث تلجلل الحكم عليه بالانتحار ، دلي أنه ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن موته كان من عمل نابليون .

بالسجن على رغم ما قام به من الخدمات للثورة الفرنسية ، مما يعدل ما قام به بومبي^(١) من الأعمال في خدمة روما القديمة ؛ ثم خفف الحكم بأمر نابليون بالإبعاد إلى أمريكا .

إلى هنا سارت الأمور وفق هوى نابليون ، رغم ثوران عواطف الملكيين والجمهوريين . نعم إنه أسىء إليه أكبر الأساءة ، وجوزيت خدماته الجليلة لفرنسا بمؤامرة دينثة خسيصة ، انتقم لنفسه من مدبرها انتقاما كافيا لم يخرج عن حد العقوبة الزاجرة . إنما حدث في تلك الآونة أنه ارتكب جرما شنيعا واقترف زلة كبيرة : ذلك أنه تبين في أثناء التحقيق مع كادوخال ، أن أميراً من أمراء البيت الملكي كان منتظراً قدومه لباريس ، ليكون زعم المؤامرة ؛ وحامت شبهات الشرطة حول الدوق نانجيان (Duc d'Enghien) — الشاب الذي كان يسكن مدينة إتهيم (Ettenheim) من أعمال ولاية بادن الألمانية على حدود فرنسا — بناء على معلومات غير صحيحة ، بأنه على اتصال بالخان

(١) ولد بومبي (Pompey) عام ١٠٦ ق م . بدأ حياته جنديا في خدمة الدولة الرومانية ؛ ثم اشتغل عام ٦١ ق م بالسياسة . وطون بوليوس قيصر وتزوج ابنته . في تلك الآثناء فتح بوليوس بلاد النال ففسده بومبي . ولما ماتت زوجته انقضت علاقته مع بوليوس وخلفه في السياسة وأصبح زعيم أعدائه . ثم قُلت حرب داخلية بين الزعيمين هزم فيها بومبي عام ٤٨ ق م . فهرب إلى مصر بحيث أرسل بوليوس ضابطا لقتله . ففعل حينما كان بومبي ينزل من القارب الذي أنقذه من إيطاليا .

ديموريه^(١) . لذلك أمر نابليون بالقبض عليه ومحاكمته وإعدامه ، فجيء بالأدميرال في الساعة الخامسة من مساء ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤ إلى فينسن (Vincennes) ، حيث قدم للمحاكمة الساعة الحادية عشرة ؛ فما انتصفت الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي - قبل أن يحف مداد الحكم عليه - حتى زجَّ به في خندق ، وأُعدم بالرصاص ، وورى في حفرة كانت أعدت لرفاته قبل أن يتم ضباط المحكمة مهزلة التحقيق معه . وهكذا لقي آخر أمراء كوندية حتفه ، رابط الجأش غير هيَّاب ، مع براعته مما نسب إليه .

كان نابليون في ارتكاب تلك الفعل ، التي تشف عن قسوة طائشة ، مدفوعاً بعاملين : سورة الغضب والدهاء السياسي . يدل على ذلك أنه قبل أن يصل الأدميرال إلى باريس بمدة طويلة ، تبين أن الاضطرابات الأولى التي أثارت شكوك رجال الشرطة لا أساس لها ، وأن الأدميرال كان عدواً

(١) ولد شارل فرنسوا ديموريه (Charles François Dumouriez) سنة ١٧٢٩ . وفي الثامنة عشرة من عمره التحق بالجيش الفرنسي ، حتى كانت الثورة قاطمها ، وأصبح سنة ١٧٩٠ عضواً في النادي الجمهوري . إلا أنه كان من أول الأمر متدلاً ، وكان ذلك سبباً في كره زعماء الثورة له . ويرجع الفضل لديموريه في انقاذ فرنسا من أعدائها الذين أرادوا غزوها والتمسك على الثورة . غير أن انتصاراته كانت السبب في زيادة الكراهية له ، لذلك اتهمته الحكومة بالخيانة واستدعته لباريس سنة ١٧٩٤ . ولكن بقاء ديموريه رقيباً من القصة أطاع الأمر بالانضمام إلى الحشود المناهضة . وظل بعد ذلك مدة محبوب البلاد الأوروبية ، ثم ذهب بعد إلى إنجلترا حيث أقام بها حتى مات سنة ١٨٢٢ .

حريجاً ، لا متأسراً يعمل في الخفاء . ولم يكن له يد في المؤامرة التي لم يوافق عليها ، ولم يكن على اتصال بديمورييه . ثم أن سكناه بقرب الحدود الفرنسية كان لعتين شائعتين بين شبان النبلاء ، وهما الشغف بالقرب من خطيبته والولع بالصيد والقنص . غير أن نابليون ، على رغم وثوقه من براءة ذلك الأمير ، لم يربدا من إعدامه رمياً بالرصاص ، ليكون ذلك عبرة لأسرة بوربون وأشياعهم ، حتى لا يشتركوا في التآمر . وقد قال نابليون عنهم ليلة تنفيذ حكم الإعدام: «وريد أولئك القوم القضاء على الثورة الفرنسية في شخصي ، وواجبي هو الدفاع عنها ، والأخذ بالثأر لها . إن زمن المجاملات السياسية قد مضى ، وقد أرقى الدماء كما أملى على الواجب ، وقد أريق دماء غيرها في المستقبل ، ، ولقد قضت السرعة والتكتم اللذان أحاطا بتنفيذ تلك البغلة ، على أي فرصة لاستشارة الضمير ، وقطعا الطريق على رجاء الذين كانوا حول نابليون ؛ وأضاف أيضا إلى تأثير ذلك الدرس القاسي ، فلم يجسر أمير من أمراء الأسيرة البوربونية بعد ذلك أبدا على الاشتراك في مؤامرة لاغتيال نابليون ، لأنهم أدركوا كيف ينتقم القرشقي لنفسه . لكن نابليون دفع ثمنا غاليليا لانتقامه ، كما نعرف من الذين رقبوه في تلك الساعة الرهيبة ، وهو ما كان يخالجه من الشكوك الخفيفة ضد العالم أجمع . قضى القضاء أن يكون اليوم الذي طلع على تلك المأساة يوما مشهورا

في تاريخ فرنسا ، لموافقة يوم صدور القانون المدني . ولقد حقق ذلك
الأثر الخالد في علم القانون ، الرغبة التي طالما نشدها الفرنسيون منذ
القرن الخامس عشر ، وتاقوا إليها إبان الثورة ، وهي رغبة التمتع بنعمة
الوحدة القانونية . من المحقق أن أعضاء مجلس الدولة ساروا في عملهم على
أساس خمسة قوانين ، كانت أعدتها المجالس التشريعية المتتالية في أثناء
الثورة ولم تنجزها . لكن على الرغم من أن نابليون لم يكن صاحب
فكرة عمل قانون واحد موجز واضح عادل ، فإنه يرجع الفضل في
إنفاذ ما عرض عليه . ومن المعلوم أن فترة الثورات ، وما يتخللها من
تطاحن الأحزاب وتغير العقائد السياسية ، وعدم استقرارها على حال ،
ليست أحسن الظروف لملاءمة لسن القوانين ، وأن الفرصة تسنح
عند ما تهدأ العواصف ، ويبدو ميدان التشريع خالياً . والفضل لنابليون
في انتهاز الفرصة عند سنوحها ، فلقد تضمن قانونه أشياء خالدة ،
وأغفل كل ما أحدثته الثورة من النظم العرضية المتطرفة . والقانون
ذاته قائم على مبدأ التسامح والائتصاف . فهو يبيح الطلاق والزواج
المدني ، وليس في الوجود قانون يقرر بوضوح أكثر منه قدسية
ملكية الفرد ، ومكانة الرابطة الأسرية في الحياة .

حمل النقد على القانون المدني بأنه عمل سريع سطحي ، وأنه
كُتِبَ للجبب يراجع الإنسان فيه بعض قواعد قانونية عامة ، وأنه

لم يعالج مشاكل الحياة وعقدها ، وأنه لم يتناول ازدياد تشعبات القانون الذى يستند إلى الأحكام القديمة . إلا أنه يجب ملاحظة أن العمل الذى تفرغ له الألمان فى العصر الحديث خمس عشرة سنة ، أتمه نابليون بكل جرأة وإقدام فى أربعة شهور . ثم قد أخذ الناس عليه تهوره ، ومع ذلك فالقانون المدنى ، مهما يكن فيه من نقص ، خير من لا قانون . ولولم يعمل فى ذلك الوقت ، لكان من المحتمل أن تبقى فرنسا أمة لا قانون لها حتى عهدنا الحاضر . ثم أنه لا مشاحة أن قانوناً واحداً خير من مائة نظام قائمة على العرف ، وأن المساواة خير من الامتيازات . وهذا قانون نابليون على صغره ، وحضر نقطة بين دفتى كتاب صغير تسهل مطالعته على كل فرنسى وفرنسية ، يرسم لنا صورة واضحة للجماعة ديموقراطية متمدينة ، ويوفق بين تشريع الثورة والتقاليد العتيقة التى ورثها الحلف عن السلف .

لعب نابليون دوراً مهماً فى مناقشة القانون ووضع مسودته . قال عنه تيبودو (Thibaudeau) : « وإنه كان يتكلم بلا تلجج ولا ادعاء ؛ ولم يكن بأقل حجة من أى عضو من أعضاء المجلس ، بل كان يعادل غالباً أكثرهم مقدرة ، بما أوتيته من قوة على تهتم نقطة الخلاف ، وبمحصافة آرائه وقوة مساجلته ؛ وكثيراً ما امتاز عنهم ببلاغة عبارته

وقوة ابتكاره،. ولا ننس أن نابليون تناول القانون كما يتناول الصقر طعامه ، وهو يخلق في الفضاء . فكان مبلغ عدته القانونية نسخة من كتاب اللوائح والقوانين ، أو مؤلف دوما (Domat) ، استوعبها في غرفة الحارس في فالانس (Valence) ، ورسالة أو اثنين في القانون قرأها وهو يجارب في إيطاليا ، وبعض مسامرات مع القانونين ترونشيه (Tronchet) وبورتاليس (Portalis) ، ومحاضر المناقشات الطويلة التي حصلت في المجلس في خمس وثلاثين جلسة .

وعلى كل حال فليس نمت سر خفي في القانون ؛ إنما يكون القانون الرديء غالباً غامضاً وعسيراً ، والقانون الحسن ما اتفق والعقل . وقد جل نابليون كثيراً من مسائل القانون بذكاء فطري عظيم : فهو لم ينظر إلى القانون من الزاوية التي ينظر إليه منها المقتنون ، بل نظر إليه من زاوية المصلحة العامة . ولم يتقيد بوجهة المتعديين بمذهب الثورة ، الذين يرون باسم الحرية أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير المسكن . ولقد راعى بعض مسائل مراعاة خاصة ، لما كان فيه من الميل الغريزي المدعم بالتجارب : تلك المسائل هي إطاعة المرأة للرجل ، وسلطة الوالد ، وثبوت نظام الطلاق ، وقسدية ملكية الفرد . لذلك لا يجد أنصار حقوق المرأة والاشتراكية

في عصرنا الحاضر كثيراً في القانون الذي وضعه نابليون مما يثير إعجابهم ، كما أنه ليس من المحتمل أن كان يستجديهم نابليون المدح لو جاء في عصرهم . وبالأجمال فالقانون المدني وثيقة من وثائق الأحرار لا الاشتراكيين ، وترجع أهميته في تاريخ المدنية إلى أنه أثبتت وخلد الأصلاحات الاجتماعية العظيمة التي أدخلتها الثورة الفرنسية في أوروبا .



الفصل الخامس

مطلع الامبراطورية

لم تستفد الأعمال المدنية التي قامت بها القنصلية إلا جزءاً من نشاط نابليون ، على الرغم من أنها كانت أبهر مظهر من نوعها في تاريخ أوروبا . لذلك كانت السنوات الأربع التي امتازت في تاريخ فرنسا الداخلى بتهدئة ثورة لاغنديه ، وتسوية النزاع الدينى ، ووضع القانون المدني — والتي شاهدت انتشاراً فرنساً من وهدة الحراب والاختلال ، إلى مستوى في اليسر لم يسبق له مثيل — نقول كانت هذه السنوات حافلة أيضاً بمجداث سياسية كثيرة ، وفتوح حرية باهرة ، ومشروعات واسعة لتأسيس إمبراطورية استعمارية ، ومحاولات مستمرة لتوسيع نفوذ نابليون في أوروبا . بيد أن سياسة الاعتداء لم تكن من عمل نابليون بل من مخلفات الحكومات الثورية : ذلك أن ساسة الجمهورية ، قبل انقلاب برومير بمدة طويلة ، كانوا يريدون جعل حكومتهم الديمقراطية العظيمة محوطة بحلقة من التوايع الجمهورية ، وبأسطة بفضل نشاطها وبفضل بهاء نظمها السياسية

نفوذاً عاماً على أوروبا . لذلك كانوا يعتبرون البلجيكي وساقوى أجزاء متعمة لفرنسا ، وهولندا وسويسرا حواشي طبيعية لها ، وإيطاليا ميداناً مهماً لثورة تحدث به على مثال الثورة الفرنسية ولا أجل المصالح الفرنسية . أعدت العدة لانتفاذ تلك السياسة الغاشمة ، وفي خلال بضعة الشهور الأولى عام ١٧٧٩ وصل الفرنسيون متصرين إلى حد الرين ، وقسموا شبه جزيرة إيطاليا إلى جمهوريات تابعة . ثم انقلب المد جزراً أثناء غياب نابليون في مصر بتكوين تحالف أوروبي جديد (١) ، تمكنت النمسا أحد أعضائه من طرد الفرنسيين من إيطاليا ، وسارت حملة روسية إنجليزية إلى شواطئ هولندا .

لم تكن أوبة نابليون من مصر ، كما زعم بعض البعثيين ، أول بارقة في الأفق المظلم . ذلك أنه قبل أن يصل نابليون إلى ميناء فريجس كانت فرنسا قد تخلصت من أشد الأخطار إحداها ، بفضل

(١) يبرق ذلك التحالف بالتحالف الثاني ، وكان مكوناً من روسيا وإنجلترا والنمسا وملكة نبلبي والبرتغال وتركيا . كان هناك سبب علم لتلك التحالف وهو الرغبة في وضع حد للتوسع الفرنسي الذي يهدد كل دول أوروبا . وكانت هناك أسباب خاصة لكل دولة على حدة : فالروسية وهي التي يرجع إليها تكوين ذلك التحالف باعتبرت احتلال مالطا إهانة لها ، وإنجلترا لم تستطع الوقوف ساكنة أمام الحملة الفرنسية على مصر ، والنمسا أحست نفسها مهددة بعد احتلال الفرنسيين سويسرا ، ونابلي فكّرت جدداً في الحرب منذ تكوين الجمهورية الرومانية على المبادئ الفرنسية مكان إمارة البابا . والبرتغال كانت حليفة إنجلترا العائمة ، وتركيا كانت تريد إخراج نابليون من وادي النيل .

تتصارات القائد مسينا عند زيورخ ، والقائد برُون^(١) في هولندا ؛ وكان سواروف الروسى ، نداء نابليون الحقيقى فى المهارة الحربية ، قد بدأ يتقهقر مخترقا ثلوج سويسرا . فلو كان نابليون غرق فى الطريق ، لبقى فى استطاعة الفرنسيين المحافظة على حد الرين ، وعلى المكانة السامية التى تبوأها دولتهم فى أوربا — تلك المكانة التى فقدتها بسقوط الإمبراطورية النابليونية ، ولم تتمكن من استرجاعها حتى الآن . لكن أهمية ظهور نابليون فجأة فى الميدان ، أن حد الرين الطبيعى لم يكن حداً أطماعه ، التى لن يرضى أى صالح لا يرد إلى فرنسا سلطانها على شمال إيطاليا ، الذى كان ثمرة انتصاراته الأولى ، ونتيجة صلح كامبو فورميو . إلا أن ذلك المنهج لم يكن ليملى على دول كالتنسا وإنجلترا إلا بحد السيف ؛ لذلك كان الغرض من مقدمات الصلح ، التى عرضها نابليون على جورج الثالث ملك إنجلترا وفرنسيين الثانى إمبراطور النمسا ، حينما أصبح قسلا أول ، سبر غورالحكومتين ، والتمويه على الرأى العام الفرنسى ، لا الوصول إلى صالح جدى . وعلى الرغم

(١) تقدم ذكر مسينا . أما برون (Brune) فولد سنة ١٧٦٢ ، وبدأ حياته فى باريس ككاتب كتيب ، وحينئذ ذاك تعرف بدانتون (Danton) . ثم دخل فى الثورة وعمل فيها حتى أصبح سنة ١٧٩٩ قائداً للجيش الفرنسى فى هولندا . وترقى برون بعد ذلك ، وظل فى خدمة الإمبراطورية النابليونية حتى سقط نابليون فى واترلو . ثم حدث أن تآمر عليه جماعة من الملكيين فى باريس سنة ١٨١٥ فأوثقوا به وقتلوه .

من ذلك اعتقد بعض من جاءوا بعد نابليون ، أن رسائله بشأن تلك
 المسألة مملوءة بروح الحب للسلام . وما زال هناك كثير من الكتاب
 العجيبين بنابليون ، يقولون إنه كان أعظم محبي السلام ، اضطره أعداؤه
 لحاقدون عليه والقدر المحتوم أن يلقي بنفسه في دور طويل كله
 بحرب وغزو .

كانت الحالة الحربية في فرنسا في مستهل عام ١٨٠٠ لاتبشر بخير ،
 على رغم الضعف الذي أصاب التحالف الثاني من جراء انسحاب روسيا .
 صحيح أن القوى الفرنسية والنمساوية في الأرض الألمانية كانت متعادلة :
 لأن جيوش الفريقين المتحاربين ، التي كانت تحت قيادة مورو والفرنسي
 وكراي (Kray) النمساوي على الرين الأدنى ، كانت تبلغ مائة وعشرين
 ألف مقاتل . لكن الفرنسيين كانوا مغلوبين على أمرهم في إيطاليا :
 لأنه بينما كان تحت إمرة ملاس (Melas) النمساوي جيش يبلغ ثمانين
 ألفا في بيدمنت ، كان مسينا معسكراً في الريفييرا بجيش يبلغ ثلاثين
 ألفاً فقط . لذلك كان من المحتمل أنه بينما تبقى الحالة سجالات بين قوات
 مورو وكراي في ألمانيا ، تخترق الجيوش النمساوية في إيطاليا حدود
 مقاطعة بروفانس الفرنسية ، معتمدة على مؤازرة الاسطول الانجليزي (١) ،

(١) كان الاسطول الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط بطوف بقيادة نلسن حول شواطئ
 مملكة نابلي . ولذلك كان يمكن الاعتماد عليه لمؤازرة النمساوين إذا احتاج الأمر .

ومعاونة الملكيين من أهل بروقانس .

كان خير وسيلة لدرء ذلك الخطر إحراز الفرنسيين انتصاراً حاسماً على شواطئ الرين : لأنه إذا قضى على كراي في جنوب ألمانيا، أصبحت الطريق إلى فيينا مفتوحة أمام الفرنسيين ، واضطر النمساويون إلى إخلاء جميع مراكزهم الإمامية المتوغلة في إيطاليا . وفي الحقيقة — كما قال نابليون — ، وكانت حدود ألمانيا الشغل الشاغل : أما ساحل جنوا فكان مسألة ثانوية ، . بناء على تلك الاعتبارات قرر نابليون ، بعد أن جمع جيشاً يمكن توجيهه لمساعدة مسينا ومورو حسب الدواعي ، أن تكون ألمانيا ميدان الحرب . وكانت خطته بسيطة وعظيمة في آن واحد : ذلك أنه عقد النية على عبور نهر الرين عند شوفهوزن (Schaffhausen) ، لينقض فجأة بقوة كبيرة على ميسرة ومؤخرة الجيش الذي كان تحت قيادة كراي ؛ وبذلك يقطع عليه خط الرجعة ، ويقضى على جيشه قضاء تاماً ، كما قضى على الأتراك في أبي قير . ثم بعد أن ينجز ذلك يسير إلى فيينا ، فيعمل شروط الصلح في العاصمة النمساوية .

جد عائق شخصي تسبب عنه سحب ذلك المشروع . فلك أن مورو أحس بأنه أكبر من أن يعمل كمرءوس لنابليون ، معتبراً على استحالة الاستغناء عنه لشهرته الفائقة . لذلك قرأ رأى في الأسبوع الأول من مارس سنة ١٨٠٠ ، أن يزحف الجيش الإحتياطي بقيادة

يلبون على إيطاليا لاعلى ألمانيا ، وأن يجتهد موردو في حماية مؤخرة
 ميسرة جيشه بحركة هجومية في جنوب الداتوب ، في حين يسير
 ايلبون مخترقاً سويسرا ، ثم ينقض على جناح ووؤخرة جيش ملاس ،
 بذلك يحو في الحال الضغط الواقع على مسينا ، ويضطر النمساويين
 اضطراراً إلى التقهقر بلا نظام ، ويالحق بهم هزيمة كبيرة . لاغرو
 أن الطريقة التي اتبعت ، ونفذت بها الحطة الجريئة هذه ، وأن التكتم
 والسرعة والعناية بكل تفاصيل الاستعدادات ، تستحق إعجاب
 الأجيال التي جاءت بعد نابليون . ولا شك أن عبور جبل سان برنار^(١)
 في سبعة أيام ، على طريق جميل في شهر مايو اللطيف ، كان من أشهر
 أعمال نابليون ، وأن لم يكن من أصعبها . أنا المسألة التي تشهد بمهارته
 الحربية ، أكثر مما شهد به نجاحه في عبور ممر معروف في جبال
 الألب دون مقاومة ، فهي الابتكار الذي امتازت به خطته العامة ،
 مضافاً إليه السرعة التي عدل بها بعض أمور خاصة ، حتى تلائم
 ظروفاً متغيرة : مثل ذلك أن خطته الأصلية كانت تقضى بعبور ممر
 سبلوجن (Splugen) ، ولكن بسبب وقوف موردو مكتوف اليدين
 من جهة ، وبسبب وصول الأنباء باشتباك النمساويين مع مسينا من
 جهة أخرى ، قرر عبور سان برنار . الواقع على مسافة مائة وأربعين

(١) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا للتحقق من ميادين تلك الحرب .

ميلا غرب نقطة سيره الاصلية . ثم كان في عزمه أيضاً أن يحمل
 على جيش ملاس ، بمجرد عبوره النهر ؛ لكنه علم لدى وصوله إفريرا
 (Ivrea) في ٢٦ مايو ، أن مسينا كان لا يزال يقاوم الحصار في جنوا .
 لذلك رغب نابليون ، والفرح قد ملأ قلبه لنجاحه في عبور النهر ،
 عن الخطة الاصلية التي كانت تترك لعدوه خط الرجعة حراً ، إلى
 خطة ملؤها الطمع ، ترمى إلى الزحف على ميلان والاستيلاء على
 لمبارديا وعلى جميع المنافذ الواقعة على نهر إلبو الأوسط . وهنا يختلف
 النقاد الحريون في هل الواجب الأول على قائد جيش الأمداد أن
 يزحف بثبات نحو المدافع التي تكتنف المدينة المرسل لنجدها ؟
 فمثلا سلمت جنوا بعد دفاع مجيد في ٤ يونيو ، ووجه اللوم إلى نابليون
 الذي لم يخف لملاقاة الكارثة . لكن رأى الثقات الفنيين يستحسن
 الخطة التي اتبعها نابليون : لأن واجب القائد هو إتلاف العدو
 لا مساعدة أصحابه ، ولأن نابليون بوضعه جيوشه في خط
 رجعة جيوش ملاس انتهج خطة ، لو أن جنوا لم تستنفد كل مؤناتها ،
 مؤداها إما حمل الجيش المحاصر على ترك الحصار ، وإما تعريض الجيش
 المتساوى تحت قيادة ملاس إلى القضاء عن آخره ، على يد جيش
 ينموه عدداً . وإذا أضيف إلى ذلك أن النجاح أو الفشل في الحرب
 مسألة متوقفة على الاثر المعنوي ، علمنا أن ظهور نابليون فجأة في عاصمة

لمبارديا أحدث أثراً عظيماً في انحاء إيطاليا ، يوازي التأثير الذي كان يسببه فك الحصار عن جنوا .

وعلى الرغم من ذلك المظلم الباهر في تاريخ الامبراطورية ، كانت موقعة مارنجو (Marengo) في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، التي اختتمت بها تلك الحرب ، شاهداً على ما قد يقع فيه أعظم قائد من الغلطات بسبب استهاتته بعدوه . ذلك أن نابليون نظر بعين الازدراء إلى الرجل الكهل الذي كان يواجهه ، حتى أنه أهمل القواعد الأصلية التي طالما اتبعها في القتال . فشلا زحف على ألسندريه (Alessandria) بجيش لا يزيد على أربعة وثلاثين ألفاً ، وكان النمساويون قد جمعوا عندها كل قواهم . واعتبر نابليون جيشه على قلته أكثر مما يلزم لهزيمة العدو ، حتى أنه في أثناء التقدم الفرنسي غرباً أرسل منه ستة آلاف لحماية كريمونا (Cremona) وبياتشنزا (Piacenza) ، وأرسل منه أيضاً قسماً تحت قيادة ديزيه ، ليقطع الطريق على الجيش النمساوي الذي كان يحتمل تفهمه إلى جنوا . لاجدال أنه كان من الحكمة الحربية سد كل الطرق الممكنة للفرار ، على فرض أن الجيش النمساوي لن يبدى مقاومة كبيرة . لكن النمساوي محارب عنيد ، وأظهرت شجاعته في سهل نهر بورميديا (Bormida) خطر الشروع في تطويق جيش قبل التحقق من هزيمته . بدأت الموقعة عند مطلع الفجر ،

وكانت في أول أمرها تنبئ بهزيمة الفرنسيين ، حتى أن ملاس رجع إلى ألسندريه حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر معتقداً تمام الاعتقاد أن النصر حليفه ، وأن مابقي من أمر مطاردة الفرنسيين يمكن إسناده لصغار القواد . وأخذ النمساويون يدفعون الفرنسيين بتؤدة وترو شرقاً على طول الطريق المؤدية إلى سان جوليانو (San Giuliano) ، حتى كادت المطاردة تتحول فراراً من وجه العدو ، لولا أن ظهر ديزيه ساعة الأصيل فجأة في الميدان . وسبب ذلك أنه سمع قصف المدافع فزحف صوبه ، كما يفعل كل جندي باسل بلا تأخير ، وبوصوله بدأ الجيش يلم أشتاته ، وانقلبت الهزيمة الكاملة انتصاراً حاسماً ، كأحسن ماوعت سجلات الحرب . كان نابليون حين إذ ذاك في قرية مارنجو مملوءاً بقطعة ونشاطاً وحماسة انتقلت كلها إلى الجنود لما صاح فيهم قائلاً : « أيها الأبناء البررة ، تذكروا أن من عادتي النوم في ميادين القتال » ،

أما الواقعة فستلخص في هجوم فرقة ديزيه ، تظاهرها الخيالة بقيادة كلرمان (١) ، والمدفعية بقيادة مارمونت . عراب الصفوف

(١) ولد فرنسوا كلرمان (François Kellermann) سنة ١٧٣٥ ، ودخل الجيش الفرنسي ونزق فيه بسرعة . ويرجع إليه الفضل في الانتصار عند فالمي (Valmy) ، الذي أنقذ الثورة من الفشل ، وفرنسا نفسها من الغزو الأجنبي سنة ١٧٩١ . كما يرجع إليه الفضل في تحويل هزيمة مارنجو انتصاراً . ولقد أصبح كلرمان سنة ١٨٠٤ مارشالاً ، ولسمر يخدم في جيوش الإمبراطورية النابليونية ، حتى سقط نابليون ، ورجع البوربونيون ، فالتزم كلرمان لهم ، وظل في خدمتهم حتى مات سنة ١٨٢٠ .

مساوية ذهول من جراء تلك الصدمة الفجائية ، ووقفت مبهوتة ، ثم ابتدأت تنزحزح عن مواقعها ، ثم تقهقرت بلا نظام حتى عبرت نهر البورميذا . جاء الليل فنام نابليون في ميدان القتال ، وكذلك جعل ديزيه ، إلا أن هذا نام النومة الأبديّة . وفي الرسالة التي كتبها نابليون معدداً غنائم الحرب وأسلابها ، البالغة خمسة عشر علماً متساوياً وأربعين مدفعاً وثمانية آلاف أسير وستة آلاف قتيل ، خصص الفصل الأول فقرة كلها أسف على زميله البطل ، وصاحب الأعمال العظيمة في الحملة على مصر . وقد كان نابليون مديناً له بكثير من الفضل في ضعضة النمساويين إلى درجة جعلت ملاس يوقع على الهدنة في اليوم التالي ، متنازلاً عن كل إيطاليا غرب نهر المنشيرو (Mincio) ليحتلها الفرنسيون مرة ثانية .

كانت أول نتيجة سياسية لذلك الانتصار الهائل أن نالت الحكومة الفصلية — وهي لاتزال حديثة وفي دور التجربة يتقول عليها الناس الأقاويل — ذلك النوع من الصيت الباهر الذي لايقف عند إخراس العائبين فقط ، بل يجعل كل انتقاد غير مجد شيئاً مهما يكن سداًده . والنتيجة الثانية أنه رد إلى فرنسا سيادتها على إيطاليا ، ومهد السبيل للصلح مع النمسا . لكن لما كانت النمسا مرتبطة بانجلترا العنيدة ، وكانت لاتزال جيوشها في ألمانيا حافظة

كياتها ، لم تر في مارنوجو ما يضطرها لعقد صلح شائن . لذلك استؤنفت الحرب بعد فترة قصيرة صرفت في مفاوضات قام فيها الفرنسيون بدور من المهارة بمكان . ثم بلغت الحرب أشدها في يوم من ديسمبر شديد البرد عند بقعة من البقاع الكثيرة الغابات ، التي اشتهرت بها بافاريا ، حيث تم انتصار مورو عند هوهنلندن (Hohenlinden) في ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ما فعلته واقعة مارنوجو . وتم الصلح الذي كانت تبغيه فرنسا ، والذي كانت النمسا تعمل جهدها على اجتنابه ، في ٩ فبراير سنة ١٨٠١ ، عند لونيڤيل (Luneville) . للمرة الثانية اعترفت أسرة هابسبرج المتكبرة باستيلاء فرنسا على البلجيك وعلى حد الرين وعلى سافوى . للمرة الثانية أيضاً اعترفت بالجمهوريات البتافيه والهلقتيه والالاب الشمالية (١) . للمرة الثانية أيضاً وافق أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على قلب نظام ألمانيا ، حتى تتمكن الحكومة الفرنسية التي قامت على قتل الملوك والثورة ، من التأمين على مكاسبها غير المشروعة . وبالاختصار ردت معاهدة لونيڤيل الحال إلى ما كانت عليه بمقتضى معاهدة كامبوفورميو ، مع بعض

(١) الجمهورية البتافيه هو الاسم الذي أطلق على سويسرا بعد أن فتحتها فرنسا سنة ١٧٩٦ .
والجمهورية الملقية هو الاسم الذي أطلق على هولندا والبلجيك بعد أن غزتها فرنسا سنة ١٧٩٢ .
وجمهورية الالاب الشمالية هو الاسم الذي أطلق على شمال ايطاليا بعد الحرب الايطالية الاولى .

تعديلات كلها ضد مصالح النمسا . ولا شك أنه منذ أيام لويس الرابع عشر ، لم يمهز سياسى فرنسى بامضائه صلحا أعظم بهاء من ذلك الصلح ، وربما كان ذلك السبب فى انه لم يعمر طويلا .

أما ما كان من أمر منازلة العضو الآخر من عصبة أعداء فرنسا ، ففقتض طبيعة المسألة إلى اتباع طريقة مخالفة . والسبب أنه لما لم تكن البحرية الفرنسية فى حالة استعداد كافية لجعل فرنسا تفكر فى غزو إنجلترا ، عقد نابليون النية على تكوين تحالف أوروبى ضدها . ويكون على رأس ذلك التحالف العظيم بولس الأول قيصر روسيا ، ذلك المستبد المعتوه ، الذى انقلب فجأة على الحكومة الإنجليزية بلا مبرر كاف لاستيلائها على جزيرة مالطا ، وأصبح مستعداً للاشتراك فى كل ما عرض عليه من الاقتراحات المتطرفة فى سبيل إظهار اشتمازه الخيالى الجديد . كان ذلك التحالف فى نظر نابليون ذا قيمة بقطع النظر عن تذبذب القيصر وقلة ذكائه^(١) ، لأن روسيا تمتلك مفاتيح آسيا ، كما قال نابليون فى يناير ، وبمساعدة روسيا يمكنه فتح الهند والاستيلاء على مصر واقتسام البلقان ، وبمساعدة عصبة الدول الشمالية^(٢) ، التى كونها

(١) كانت تلك العصبة حينها مسلحة ، وهى معروفة فى التاريخ باسم عصبة الحباد للملح برطمة وروسيا التى اتخذت مسألة احتلال إنجلترا مالطا حجة . والحقيقة أن مضايقة إنجلترا لتاجر الدول المحابدة المرسلة الى فرنسا هى السبب فى تكوين تلك العصبة فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ .

القيصر حديثاً لمقاومة القوانين البحرية البريطانية ، يمكنه أن يقضى على اليسر التجارى الذى تتمتع به إنجلترا . بناء على ذلك التفاهم الأول مع القيصر ، وبمقتضى الاتفاقات التى أجريت على يد الأخير مع دول الدنمارك وبروسيا والسويد ، تمت سلسلة مفاوضات ومعاهدات تكميلية . ثم اُرغمت الحكومة الضعيفة فى نابلى على منع المتاجر الانجليزية ، وعلى قبول جيش احتلال فرنسى يعسكر فى أرضها حتى يأتى الوقت الذى يمكن فيه نقلها إلى مصر ^(١) . كذلك اُرغمت إسبانيا ، إذ تعهدت حكومة شارل الرابع الضعيفة الفاسدة ، أن تنزل عن لويزيانا ^(٢) لنابليون مقابل تسكافى ، وأن تغزو هى البرتغال المسألة لكىما يُقضى على آخر حلفاء إنجلترا وأصدق عملائها بين الدول الأوروبية .

شهد ذلك الربيع تكوين هذا التحالف الهائل ثم انصرامه فجأة . السبب أن بولس الأول قتل فى بطرسبورج فى ٢٤ مارس ، وبذلك سقطت دعامة كل الجهاز . وفى ذلك الوقت انتهت على نابليون أنباء غير سارة عما فعلته بحرية ووأمة البدالين ، ^(٣) : وتفصيلها أن القائد

(١) كانت الحملة الفرنسية لاثزال بصر .

(٢) لويزيانا (Louisiana) كانت مستعمرة فرنسية فى أمريكا الشمالية بمحوض نهر المسيسيبي ، اكتشفها لاسال (La Salle) الفرنسى سنة ١٦٨٢ . وسماها بذلك الاسم نسبة الى لويس الرابع عشر ، ثم أخفها إسبانيا سنة ١٧٦٢ واستردتها فرنسا سنة ١٨٠٠ مقابل تسكافى . بعد ذلك ابتاعها الولايات المتحدة من نابليون سنة ١٨٠٣ مقابل ٦٠ مليون فرنك .

(٣) يريد إنجلترا .

الإنجليزي أبركرمي (Abercromby) نال انتصاراً عظيماً في المياه المصرية في ٢٠ مارس ، وأن نلسن قضى على الأسطول الدنماركي عند كوبنهاغن في ٢ أبريل . فاعتقد القنصل الأول — أوبالاً — حري تظاهر بالاعتقاد — أن هناك علاقة بين المقدوفات النارية التي أخطأته في باريس ، ودخول الأسطول الإنجليزي بوجاز السونند ، ومقتل القيصر ؛ إذ قال وهو يحرق الأرم : « ولئن أخطأني الإنجليزي في نيفوز ^(١) ، فقد أصابوني في بطرسبورج » . والمهم هنا معرفة أن خيبة العصبة التي انتجتها سياسته اضطرت به إلى التفكير في صلح مع حكومة السفاكين ^(٢) . وواضح جداً أن مصالحه كانت تقضى — مهما تكلف من تضحية مطامعه مؤقتاً — بأن يحصل على هدنة تمكنه من سد ذلك النقص الكبير في سفنه الحربية ، الذي أضاع عليه مالطا ومصر ، والذي كان السبب في وقاية عدوه الشديد فيما بعد من الغزو . ثم إنه لا بد من بحرية قوية لمناهضة إنجلترا ، لاسيما وقد انتثر عقد التحالف الأوربي : إذ حسم إسكندر الأول — القيصر الجديد — النزاع بين روسيا وإنجلترا ، وانحلت عصبة المحايدين ، وأغضب الألبانيون القنصل الأول لما أظهره من الفتور في غزوهم البرتقال ، ولما أظهره من الاستعداد للصلح في وقت

(١) الشهر الرابع من تقوم الحرية الفرنسية .

(٢) العبارة من كلام المؤلف ، وإنما أراد أن يقترب من نفسه نابليون في ذلك الطرف فوصف الحكومة الإنكليزية بحكومة السفاكين .

غير مناسب، حتى ضاعت الفائدة المرجوة من إجبار البرتغال على رفض المتاجر الإنجليزية . لذلك كله بدأت مفاوضات لعقد معاهدة بين فرنسا وإنجلترا في لندن في أكتوبر سنة ١٨٠١ .

تمخضت تلك المفاوضات بعد مضي خمسة شهور عن صلح أميان (Amiens) . استخدم نابليون تلك الفترة لا في إزالة أسباب شكوك أعدائه ، بل في إيجاد شواهد جديدة على أطماعه وقوته ، حتى أن أشد الأحرار الإنجليز حماسه ، الذين طالما صوتوا مع فوكس ^(١) في البرلمان الإنجليزى ، لم يستطيعوا إلا الاعتراف بأن محبة الخير التى اتصف بها نابليون بطل فوكس ، لم تكن من نوع محبة الخير التى اشتبه بها جماعة الفرنديسون ^(٢) أنصار السلام والإنسانية . والدليل على ذلك أنه

(١) ولد شارلس جيمس فوكس (Charles James Fox) سنة ١٧٢٩ في لندن ، ودخل البرلمان الإنجليزى وهو فى التاسعة عشرة ، ولما نشبت حرب استقلال أمريكا ضد إنجلترا ، كان فوكس من أكبر الدافعين بلسه عن الأمريكين . ولما سقطت الوزارة الإنجليزية التى سيرت الحرب ضد أمريكا ، دخل فوكس الوزارة التالية ، التى اعترفت باستقلال المستعمرات الأمريكية . بعد ذلك أثار فوكس غضب الملك جورج الثالث بمفتركه الوزارات وبقو زعيم للمعارضة لمدة خمس وعشرين سنة محدث فى أفتائها الثورة الفرنسية وظهر نابليون ، وكان فوكس من المعجيين بهما ، وله فى ذلك مواقف برلمانية خطاية مشهورة . وفى سنة ١٨٠٦ دخل فوكس الوزارة من جديد ، غير أنه مات فى السنة التالية . ويستر فوكس أكبر خطيب برلمانى انجيتة إنجلترا ، وكانت مبادئه طليقة ، وأعماله صادرة عن قلب مخلص .

(٢) الفرنديسون (The Quakers) أو جمعية الأخوان ، جمعية دينية أسسها جورج فوكس أحد عظماء المصلحين الهنبيين فى إنجلترا فى القرن السابع عشر .

انضم لفرنسا بيدمنت في إبريل ، وشد الوثاق على هولندا في سبتمبر
 بـأنشأ جمهورية إيطاليا (في المنطقة التي كانت جمهورية الألبي الشمالية) ،
 ونصب نفسه عليها رئيساً. طلق التصرف في يناير. وكانت النتيجة أن
 أصبحت الجيوش الفرنسية موزعة على سكان البلاد من جنوب إيطاليا
 إلى شمال هولندا ، في حين أن الإعانات المالية الأجنبية كانت تنصب
 صباً في الخزينة الفرنسية. لم يقتصر نشاط الفصل الأول على
 أوروبا ، بل وسع في مساحة غينا الفرنسية بأفريقية على حساب
 البرتغال ، وأرسل جيشاً قوياً لاسترجاع سان دومنغو إحدى جزائر
 الهند الغربية من أيدي العبيد. ومن ذلك يتبين أنه كان عاقداً النية
 على إقامة إمبراطورية في الغرب ، ليعوض حرمانه من مصر والشام.
 تخلت إنجلترا بمقتضى معاهدة أميان عن جميع فتوحها الاستعمارية
 ما عدا سيلان وترينداد ، وسلمت مالطا إلى الفرنسيين ، وردت مينورقا
 لأسبانيا ، وتحت عن لقب «ملك فرنسا» ، الذي كان يلقب به
 ملوك إنجلترا من عهد إدوارد الثالث. رضى نابليون مقابل تلك
 التسليمات بالجللاء عن القطر المصري ، الذي لم يعد في مقدور الفرنسيين
 البقاء فيه ، وعن نابلي التي كان يمكنه غزوها أن شاء ، وعن البرتغال
 التي جلبت على نفسها عداوة نابليون لكونها الحليف المستكين لعدوه.
 قابل النقاد الإنجليز ذلك الصلح من أول الأمر بالعبارة ، والحقيقة أنه

كان مبنيًا على قواعد واهية الأساس ، ظهر ضعفها أسبوعاً بعد أسبوعٍ
لما كان يظهر من مطامع نابليون المجامحة .

اعتقد النقاد الانجليز أن المعاهدة سلمت أكثر مما في مقدور
أى سياسى إنجليزى أن يسلم به ، وأنها أهملت نقطاً كان الواجب
على كل وطنى أن يشدد فيها . مثل ذلك أنها سلمت رأس الرجا
الصالح وجزيرة مارتينيك ، ولم تتضمن أى احتجاج ضد فرنسا
بيدمنت ولبارديا وهولندا . ثم لو كان من الممكن أن يقبل العقل
الانجليزى تلك الشروط ، فمن المستحيل عليه احتمالها إنها هى أثقلت
بأعباء أخرى . وبالاختصار لم يفهم الانجليزى العادى معنى لصلح لم
يتضمن أى تخفيف فى الضرائب التجارية ، أو تراخ فى الاستعدادات
الحربية ، أو انقطاع عن النيات الاستعمارية من جانب نابليون . وأدرك
الانجليزى العادى فى امتناع نابليون عن الموافقة على معاهدة تجارية ،
رغبة ظاهرة فى إضعاف القوة الصناعية البريطانية : إذ كيف تكون
دولة صديقة مخلصه لبريطانيا العظمى ، وهى تعتبر البضائع
الانجليزية كأشياء حاصلات موبوءة آتية من جهة مملوءة بالطاعون .
ثم ارتاب الانجليزى العادى أيضاً بالحملة على سان دومينجو ، وبانتقال
ملكىة لويزيانا ، واعتقد أن بونايرت قبل الصلح على نية بناء أسطول
كاف للقيام يوماً بانتزاع مستعمرات إنجلترا فى الهند وأمريكا ،

ونقل جيش كاف إلى شواطئ* إنجلترا. حتى إذا قرأ في جريدته اليومية أن القنصل الأول منح السويسيين دستوراً، وأنه أرسل أميراً من أمراء البحر الفرنسيين إلى الشرق في مهمة سياسية، ظن أن أخطر شكوكه قد تحقق وزيادة.

كان نابليون في آخر أيامه يندم على عناد إنجلترا، التي حالت بين أوروبا وبين «التجدد الاجتماعي»، على حد عبارته. لكن مهماتكن أقواله في مقاصده السلمية في سنت هيلانه، فإن فكرة السلام الثابت الدائم لم تخطر له يوماً على بال. ذلك أنه لم يترك لحظة فكرة استرجاع مصر، وتأسيس دولة فرنسية في الهند، وزعزعة السيادة البحرية الإنجليزية. ثم أنه كان على رأى عصابة الدول الشمالية القصيرة الأمد، التي كانت تعتقد من ضرورات تقدم المدنية إجبار إنجلترا على ترك حقها في تفتيش السفن المحايدة التي تحمل بضائع الأعداء وفي الاستيلاء على السفن التي تتجر مع موالي الأعداء. وكان من دعاة مذهب التجارة المحمية، يعتقد أن الزراعة أكثر نفعاً من الصناعة وهذه أكثر نفعاً من التجارة، ويميل إلى عدم وضع أى حدود لما تبذله أى حكومة من المجهود في سبيل تشجيع الصناعات الجديدة. على ذلك كان نابليون ضد عقد معاهدة تجارية مع إنجلترا، أو تسليم أى شيء إلى أولئك «النظرين».، الأخذين بفكرة حرية

التجارة . ولما كان اتوقراطياً ، وأستاذاً قديماً في فن تدريب الصحافة
للاقامة على الاستبداد ، كان يمقت كل المقت تلك الحرية السبائية ،
التي لم يفهمها أبداً ، والتي كان ينعم فيها الصحفي في لندن .
ومن أول الأمر كان المثل الأعلى الذي يصوره لنفسه ، كما هو
وارد في محادثاته ومراسلاته العادية ، مخالفاً كل المخالفة لما يمكن أن
يسمح به أى سياسى إنجليزى : ذلك أنه اعتبر البحر الأبيض المتوسط
كملك للدول اللاتينية ، أو بعبارة أخرى لفرنسا ، بحيث تبسط نفوذاً
دائماً على أشباه جزائر إسبانيا وإيطاليا . ثم إنه اعتبر ألمانيا اتحاداً أخرق بين
حكومات دنيئة ، أكثر من نصفها تابع لفرنسا ، والباقي سائر بالتدريج
نحو الانتفاع بحسنات الارشاد الفرنسى . هذا وكانت سويسرا فى
نظره تابعا من توابعه ، لاسيما بعد أن هدأ المنازعات الداخلية بين
الديموقراطيين والامحادين من أهلها بحيلة سياسية باهرة . أما هولندا
وإسبانيا وجنوا فكان عليها بحسب النظام الذى وضعه لدولته الواسعة
أن تمد البحرية الفرنسية بالرجال ، فضلا عن شرف الاندماج فى الجيش
الفرنسى ، الذى كان موزعا على حلفاء فرنسا وأتباعها بسطاء .

لما كان ذلك مدى نظرة نابليون العامة فى السياسة الأوروبية كان
من المنتظر أن تستأنف الحرب قريبا . لكن القول بأن وقوع الحرب
لامفر منه فى بعض الأحيان ، ليس معناه أن مسألة اكتساب الوقت

غير مهمة : مثلاً كان يهمل نابليون كثيراً أن تتأخر الحرب ، لأن الاستيلاء على سان دومينجو ، واستعمار لوزيانا ، والمشروعات الاستعمارية الأخرى ، كانت كلها متوقعة على سكون الأسطول الإنجليزي ، حتى يتمكن بناء السفن في أنقرس وبرست وطولون من رفع البحرية الفرنسية إلى مستوى خصمها . وإذا كان دخول نابليون في مشروع فيما وراء البحار ، قبل أن يتم تقوية بحريته تماماً ، وإثارته غضب الدولة الوحيدة التي تقدر على إفساد مشروعه ، في الوقت الذي كان المشروع نفسه لا يزال معلقاً في يد المقادير ، نقطة سوداء في تاريخ نابليون الحازم . اعترف نابليون في سنت هيلانة بأن الحملة على سان دومينجو كانت غلطة كبيرة . وكان يمكنه أن يضيف إلى ذلك الاعتراف أن نبيه إلى اجتتاب المشروع أقدر الفئتين المقيمين هناك . ذلك أن المسألة لم تكن رد مستعمرة نائرة ، أو إخماد فتنة داخلية في مستعمرة غنية من مستعمرات الجمهورية الفرنسية : لأن سان دومينجو كانت لا تزال يحقق على ربوعها العلم الفرنسي ، وكانت لا تزال تعترف بالسيادة الفرنسية ، ثم أنها أرجعت حديثاً بعد فترة اضطراب فطع إلى حظيرة السيادة الفرنسية بفضل الزنجي الأصلي الوحيد الذي أظهر صفات السواس . ذلك الرجل هو تواسانت لوفرتير (Toussaint L'Ouverture) الذي جلب للجزيرة الثلاثة أشياء ، التي

قامت عليها سعادتها : وهي مورد ثابت من العمال السود لسد حاجات
المزارع ، وتبادل تجارى بين الجزيرة وأمريكا ، وجماعة موظفين يديرها
رجال من البيض . كان القنصل الأول يحسن صنعا ، لو أنه واصل
ما قام به ذلك الرجل .

ليس فى العالم شيء أفضح من إثارة مشاغل لاختلاف ألوان الأجناس
البشرية فى أمريكا ، لاسم أن حاجتها حادثة مرعبة أو كارثة مفعمة .
وفى سان دومنغو قال المزارعون البيض ، الذين فروا من الجزيرة فى أثناء
حرب العبيد ، أن من المستحيل على جالية فرنسية كبيرة ، فى جزيرة
كانت بفضلهم الدرة اليتيمة بين جزائر السكر ، أن تصبح تحت قدم
عبد متظاهر بالتقوى ، وجم غفير من العبيد البادية نواجذهم . ولما كان
مما يخالف أفكار نابليون أن تجرأ مستعمرة فرنسية على شراء حاجها
من أمريكا وكالياتها من لندن ، فقد قرأه على القضاء على
توسان . عهد الجيش المرسل إلى سان دومنغو إلى الجنرال لكليير
(Leclerc) ، زوج بولين بونابرت وصهر نابليون . ولما كان
ذلك الجيش قد خدم مع مورو على نهر الرين ، حسيب الذين
كثروا عبيون دائما أعمال نابليون ، أن الغرض من إرسال الحملة
إبعاد مناهضيه . ولا عجب فالتعليمات السرية التى أعطىها القائد العام
تكفى للانحاء باللائمة على نابليون : ذلك أن لكليير أمر بإغراء الحاكم

وقواده ، ثم إيقاعهم في فخ ، ونفيهم من الجزيرة . نفذ الجزء الأول من ذلك البرنامج ، وقبض على توسان بخدعة شنيعة ، ونفى إلى جبال الجورا بفرنسا حيث قضى بين العواصف الجليدية . ثم دارت النائرة على منفذ تلك المأساة التي حركت وردسورث^(١) الشاعر الانجليزي لكتابة أرجوزة من أشهر أراجيزه ؛ إذ انقضت الحمى الصفراء ، كما تنقض الشياطين ، على جيش سان دومنجو الفاجر ، وكادت تقضى عليه لا آخر رجل ، بينما أوصدت الحرب مع إنجلترا أبواب العالم العربي لحجة في وجه أطماع نابليون .

كانت مسألة مالطا السبب في انهيار بناء السلام . وتفصيل ذلك أن إنجلترا ، بما لها من الاهتمام بالهند فوق كل شيء ، رأت أن هناك ضرورة حيوية في عدم تعرض تلك الجزيرة الصغيرة في البحر الأبيض المتوسط ، بمينائها الجميلة وحصنها المنيع ، لاستيلاء الفرنسيين من جديد مهما تكن الأحوال . ثم كان المفهوم بمقتضى معاهدة أميان ، أن يضمن استقلال الجزيرة مست دول عظمى ، وأن تجلو عنها الجنود البريطانية بمجرد الحصول

(١) ولد وليام وردسورث (William Wordsworth) سنة ١٧٧٠ . تربى في كامبردج بقصد أن يكون قسيساً ، غير أنه سرعان ما قضى كل وقته في مطالعة الأدب ، وأصبح في زمنه من أكبر شعراء الانجليز . وله مؤلفات شعرية كثيرة أشهرها « أغنية اللود » ، وأراجيزه من أجل ما كتب في اللغة الانجليزية .

على ذلك الضمان ، وأن توضع فيها حامية من جيش مملكة نابلي لمدة ثلاث سنوات ، على اعتقاد أن يصبح فرسان القديس يوحنا عند انتهائهم قادرين على حمايتها . من المحقق أن كل الصعوبات الخاصة بالجلاء عن مالطا كانت تزول لو أن نابليون وافق على إيقاف تيار مراميته نحو الشرق . عند ذلك كانت الجنود البريطانية تنسحب بسرعة ويحل محلها الجيش النابلي ، وتنفذ المعاهدة حرفاً ومعنى . إلا أنه كان غير قادر بطبيعته على تهدئة خواطر مناجريه ؛ وفي الوقت الذي كانت تقضى فيه المصلحة البحرية والحرية إلى مسألة طويلة الأمد مع إنجلترا ، اثار سلوكه أطمع مخاوف الدول ذات المصالح في السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . من ذلك أنه خاطب القيصر في مسألة اقتسام تركيا ، وفي صلاحية شبه جزيرة المورة للفرنسيين ؛ ثم أنه أعد في يناير سنة ١٨٠٣ حملة إلى الهند . وبالاختصار أن ضياع مصر وسورية أثر فيه تأثيراً كبيراً لدرجة انه سارع في إيفاد بعث للنظر في طريق استرجاعهما .

رأت الحكومة الأنجليزية ، التي رجاها الباب العالي البقاء في مالطا ، أن بعث الأمير لاي سبستيانى (Sebastiani) سبب جديد للتشكك في نيات نابليون . ولما ظهر تقرير البعث في جريدة المونيتور (Moniteur) ، في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ ، وفيه وصف محبة الفرنسيين

عند أهل شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووصف سهولة الاستيلاء من جديد على مصر ، قررت الوزارة الإنجليزية أن تبقى جزيرة مالطا في قبضة جيوشها ، حتى تستوثق من حسن نية نابليون نحو تركيا والقطر المصري . لا حاجة بنا بعد ذلك إلى إيراد الاعتبارات الفنية ؛ فالسألة على ظاهرها من أنها أن إنجلترا برفضها الانسحاب من مالطا لم تحترم المعاهدة . وفضلا عن أن بعض الشروط التي كان ينبغي أن تسبق الانسحاب لم تنفذ ، فإن التبرير الحقيقي لموقف إنجلترا لا يستند إلى مسائل فنية ، بل إلى الأمر الواقع ، وهو نشاط نابليون المستمر الذي لم يتفق مع سلامة مركز إنجلترا العالمي .

يظهر أن العقبة الرئيسية التي اعترضت مجهودات تاليران^(١) وزير خارجية فرنسا ، في سبيل السلم ، هي غطرسة نابليون التي كان يخشى إيلاهما . والدليل على ذلك أن اللورد هويتورث (Whitworth) سفير إنجلترا في باريس ، كتب بعد محادثة دامت ساعتين مع نابليون ، تقريراً

(١) ولد الأمير شارل موريس تاليران (Charles Maurice Talleyrand) في باريس سنة ١٧٥٤ ، وهو من أسرة عريقة ، اشتغل بالسياسة إبان الثورة . غير أن تهادى الزعماء الجاه إلى الملاحقة ، فظل بعيداً عن فرنسا حتى سقوط رويسبير ، وعنده جاء باريس ، وتمين وزيراً للخارجية سنة ١٧٩٥ . بقي كذلك حتى سنة ١٨٠٧ . غير أنه بدأ يعمل في السر ضد الإمبراطور نابليون فغزله . ولما سقط الإمبراطور أعلن تاليران انضمامه إلى الملكية الجديدة ، وظل من كبار الساسة في فرنسا مدة طويلة . وتاليران مشهود له بالبراعة في السياسة غير أنه كان لا يثبت على مبدأ.

ذكر فيه أن الفصل الأول كان يتكلم كأنه قائد فرقة من الفرسان، لا كرأس دولة كبيرة. وكان يتخلل كلامه نغمات كبرياء وغضب و صلف؛ فتارة يتكلم باعتدال في ضرورة المحافظة على السلم لمدة عشر سنين، حتى تعد الوسائل اللازمة للتسلط على المحيطات، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى غيظ شديد، فيقول إن في مقدوره إذا دعت الحالة تجهيز مليوني جندي، وإنه لا يهاب التزال، وإنه لا يمكن أى شىء في العالم أن يلجئه إلى التنازل عن أى شرط من شروط المعاهدة من أجل «جون بول»، وإن الانجليز لا يستطيعون أن يستولوا به أنى كبراً، وإن أقصى ما يمكنهم أن يأسلوا سفيلتين أو يستولوا على بعض مستعمرات، لكنه سيحمل فظائع الحرب إلى لندن. «وإذا كانت أول حرب قد أكسبتا الباجيك وييدمنت»، كما قال في إبريل، «فإن الحرب الثانية ستضع النظام الاتحادى الذى نبغيه على قرار مكين».

ظاهر إذاً أن نابليون لم يخش قطع الملائق الذى سيؤدى حتماً إلى فتوح جديدة في أوروبا، وإلى تعويض كارثة سان دومنجو، وإلى فتح باب جديد تصرف فيه فرنسا قواها. ولقد أقنع نفسه بطريقة ترضى ذمته، أن الحرب والظلم ضروريان لدوام دولة مؤسسة على الثورة ومعرضة للأحقاد التى تنجم عن المطامحات الداخلية. وفي ذلك قال: «إن مركزى يختلف اختلافا تاماً عن ملوك أوروبا المريقين

في الملك . هؤلاء يمكنهم أن يعيشوا عيشة الجمول في قصورهم ، وأن يستسلموا لكل أنواع الرذيلة ، لا يحاسبهم أحد على مشروعية مراكزهم . ولا يفكر أحد في تنصيب غيرهم ، ولا يهتمهم أحد بنكران الجميل . لأنهم ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون . أما أنا فمسألتى على النقيض من ذلك : فليس هناك قائد لا يعتقد أنه كان ذا أثر فعال في مثل مالى ، وليس هناك رجل واحد لا يعتقد أنه كان ذا أثر فعال في طريقى التى اتخذتها في انقلاب الثامن عشر من برعير . . . لذلك أرانى مضطراً لأن أكون قاسياً على هؤلاء الرجال . . . إن ملكى قائم فى الداخل وفى الخارج على الرهبة ، فأذا أهملت تلك الخطة دخلت عن العرش فى الحال ،، فى حماة تلك الأفكار المختمة فى رأسه ، وبينما تغالبه نفسه لتأجيل قطع العلائق بمنح إنجلترا بعض التسليمات ، كان نابليون يعمل بجهد لا تنجاز معدات النضال .

فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ابتدأت الحرب ، فكانت أعظم ترال حدث فى القرن التاسع عشر ، وانتهت أخيراً عند واترلو . وفى رسالة فاخترة إلى مجلس الشيوخ ، ذكر نابليون الاعتدال والصبر اللذين انتهجتها السياسة الفرنسية ، والشطط الذى ركبت منه إنجلترا فى مطالبها ، ونوّه بعدالة أغراضه وشجاعة جنوده . أما خطته الحربية فكانت تتلخص فى منع المتاجر الانجليزية متعاً باتاً من أرض الجمهورية

وأرض حلفائها ، ثم غزو إنجلترا نفسها . ولم يساور نابليون أى شك
فى عظم الحرب التى أصبح لاجأً فيها ؛ يدل على ذلك قوله فى مايو : « وإن
هذه الحرب ستؤدى بطبيعتها إلى حرب أوربية ، واستعداداً لذلك
يجب أن أضرم إلى جانبي النمسا أو بروسيا ،، . ولما كان يعتقد أنه يمكنه
اجتذاب بروسيا بسهولة ، وباعطائها عظمة تلهى بقضيمها ، وأن الروسيا
ستكون دائماً فاترة الهمة ، فإنه وضع خطته على احتمال مواجهة عدوه
القديم ، الذى واجهه مرتين متتصراً بين جبال إيطاليا ووديانها .

بقيت النمسا وإنجلترا — كما كانتا أيام مولبور (Marlborough)
الإنجليزى ، وأوجين (Eugene) القائد النمساوى الشهير ، أعدى
أعداء التوسع الفرنسى فى القرن الثامن عشر — هذه تسد الطريق أمام
فرنسا فى أوروبا ، وتلك تضيق عليها الطريق البحرية الموصلة إلى ما وراء
أوروبا من العالم .

لفصل السّياسِ

فتوح الامبراطورية

ساعد كشف مؤامرة الملكين لاغتيال القنصل الأول ، ومعاقبتهم على مارس سنة ١٨٠٤ ، على إتمام مشروع كان منذ زمن في دور التكوين في رأس نابليون ، وظل سنتين على الأقل موضع حديث الخاص العام . ذلك أن القنصل الأول لم يرق نظره يوما ما دستور ، وظيفته بمقتضاه محدودة لمدة عشر سنوات ، ونفوذه مقيد بحقوق قيام الهيئات البرلمانية التي نصّ عليها ذلك الدستور . لم يعادل ذلك المركز ما يستحقه رجل تطلع إلى حيازة شهرة الاسكندر أو شارلمان أو يوليوس قيصر . لذلك استقنى الشعب الفرنسي سنة ١٨٠٢ في أن تولى نابليون القنصلية مدة حياته ، فكانت النتيجة إيجابية بالاجتماع ؛ وأدى الأمر إلى توسيع عظيم في نفوذه : إذ أعطى في ٤ أغسطس سنة ١٨٠٢ حق اختيار خلقه وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ . ثم أنقص أعضاء مجلس التريون إلى خمسين عضواً ، وعينت لجان الناخبين على أن يشغل أعضاؤها وظائفهم مدة الحياة ، وبذا زالت آخر آثار الحرية

في نظام الدولة . كان القانون الأخير من عمل مجلس الشيوخ ، تلك الهيئة التي نيظبها مهمة السهر على الدستور ، والتي أصبحت من ذلك العهد العامل المساعد على خرابه . ولم يكن هناك أثر للمعارضة ، لأن فناء وردهات قصر لكسببرج ^(١) ملئت بلا داع بفرقة من رماة قنابل اليد ، لتسهيل تقرير القانون واستعداداً للطوارئ .

ولما تبدلت الفصلية لمدة الحياة أمبراطورية وراثية ، في مارس سنة ١٨٠٤ ، لم يحدث التبديل تغييراً كبيراً في حالة الرأي العام أو في رأس نابليون . يرجع ذلك إلى المكانة التي حصل عليها في القلوب ، بدليل أن الفرع الذي شغل الناس على . أثر تنفيذ حكم الأعدام على دوق دانجيان ذهب أمام تصور المصائب التي كانت تنزل بفرنسا ، لو اغتالت يد قاتل رأس الحكومة . ويجدر هنا أيضاً ذكر أن نابليون أنقذ فرنسا من الفوضى ، وأنه أقام فيها حكومة دلت كل مظاهرها على العظمة والثبوت مالم تنكسها نكبة عنيفة . ثم لانفسى أن حياته وحدها وقفت حائلاً بين فرنسا وبين الفتنة الداخلية . نعم هال كثيراً من الفرنسيين ضياع الحرية ، وأسف آخرون على تجديد الحرب ، وأخذ عدد غير قليل يتوجسون خيفة من

(١) أنشأت هذا القصر في باريس في الجهة الجنوبية من نهر السين ماري دي مديسي زوجة هنري الرابع ملك فرنسا من ١٥٨٩ إلى ١٦١٠ .

طرق نابليون ومطامحه . لكن كل هؤلاء مهما يكن ميلهم الى التذمر من الاستبداد ، والى اتخاذ القائد مورو نموذجا لهم في الثبات على المبدأ السياسى ، لم يتطلع أحدهم إلى تجديد أيام ثورة لاغنديه أو عهد الأَرهاب ، لأنهم أحسوا أن الوقت حان ليعلم المتآمرون الأجانب أن فرنسا اتخذت الحكومة الملائمة لحالها الخاصة ، وأن إبعاد نابليون عن الحكم لا يغير الحالة العامة ، فليس لأحد المهاجرين ، أو لأحد رجال الأَرهاب ، ثمة فائدة من إبعاده .

لم يصادف تأسيس الأمبراطورية صعوبات من جهة الأئمة الفرنسية أو الهيئات النيابية ، بل من جانب الأقربين من أسرة نابليون . فلك أن مجسدي الشيوخ والبريوت والمجلس التشريعي كانت كلها مستعدة لقبول مبدأ الحكومة المطلقة الوراثية ، التي فُيذت نبذ النواة اثنى عشرة سنة قبل ذلك التاريخ . ولم يكن في مجلس الدولة ، الذي ضم كثيرا من ذوى الشخصيات الثورية ، أكثر من سبعة أصوات مخالفة لذلك الشعور العام . ثم إن الفلاحين والجنود والطبقة المتوسطة كانت ترى أن أى شئ إنما هو أفضل من القيام بثورة من جديد أو التشويش على نظام قائم على المساواة . إلا أن صعوبة عرضت لما لم تنجب جوزفين أولاداً ، إذ أصبحت مسألة الوارث لعرش الأمبراطورية معروضة على بساط البحث . ولا تخلو المناقشة فيها

من الدسائس ، ولا ينتهى البت فيها بلا ضغينة ونفور . وتفصيل ذلك أن إخوة نابليون الثلاثة ، وهم أكبر منه سناً ، وكلهم ذوو مقدرة فوق المستوى العادى ، كانوا قد نفذوا كالمساهم إلى مراكز كبيرة فى الغنى والسؤدد . وعلى رغم اختلاف كل منهم عن الآخر فى نقط هامة من حيث الطباع — إذ كان لويس بارد الطبع بقدر ما كان لوسيان حادّه — شابه بعضهم بعضاً فى اتصافهم بأوصاف أسرته من خلق الغيرة والأرادة العنيدة . ترك نابليون الخطة الرومانية القائلة بحق الاختيار المطلق لمن يخلفه على العرش ، احتراماً للألحاح الشديد الذى وجهه إليه أخوه يوسف ، وقرر ألا يخرج الإمبراطورية عن دائرة أبناء ليتيشيا ، حتى إذا لم ينبجبالإمبراطورولداً ، ولم يتبن أحدأحفاده ، يؤول التاج إلى يوسف وذريته ، ثم إلى لويس من بعدهم . حرّم من حق وراثّة الإمبراطورية أخوان لسبب واحد : وهوان لوسيانالعنيد تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى ، أجها حباًجماً ورفض حجرها ؛ وأن جيروم عزيز الأسرة ، ارتكب مثل تلك الزلة ، إذ أعلن ذلك البحار الصغير^(١) أنه تزوج من امرأة فى بليسمور بأمریکا ، وأنه مزع الرجوع إلى أوربا بزوجه الأمريكية ، فأثار النبأ غضب نابليون .

(١) كان جيروم ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، ولما أعلنت الحرب بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٨٠٣ كان ذلك الشاب مع الأسطول للوجود فى المياه الأمريكية ، وتزوج أثناء الفترة التى أظها الأسطول من ابنة أحد التجار فى بليسمور .

الذى أصبح كل بونا برتى فى نظره أميراً وزوجاً صالحاً لأميرات
أجنبيات .

كان من مكملات الإمبراطورية ، تكوين بلاط منتظم لحفلات
الاستقبال ، واهتمام بالرسميات . ولقد كانت أساليب القرشقى الحشنة ،
وحركات أقاربه الدالة على الجهل بحياة البلاط ، موضوع سخريه
السيدات والسادة ، الذين ألفوا الظرف الطبيعى ، الذى كان يوماً
سائداً فى قرساي . فلك أن نابليون لم يأبه لواجبات الملاطفة ، وكان
يجعل تقاليد الأرستوقراطية الأوربية ، قليل المهاره فى الرقص ،
متوسط الأئمام بالفروسية ، خلوا من أخلاق هواة الرياضة . وكان
يركب أحيانا للصيد ، كواجب يحتمه عليه مركزه لالهو والسرور ،
أو يطلق بندقته على الطيور الأليفه ، التى كانت تقتنيها زوجته فى
حديثها ، منصاعاً فى ذلك إلى الدافع الذى كان يدفعه إلى الحفر
على الكراسى والموائد بمبراته ، وإلى تقطيع وتمزيق كل أداة صغيرة
تقع تحت يده . وكان ذوقه الموسيقى غفلا غير مهذب ، لا يحفل بالصورة
ولا ينبسط لتجاذب أطراف الحديث فى المجتمعات ، حتى قال فيه
تاليران ، وكان ملماً بكل تقاليد النظام القديم : أن من يستطيع تسليه
نابليون يقدر على تسليه من لا يمكن تسليته ، وأن نابليون رجل
يُعتبر المدينة كعدوه الشخصى . وكم من ناعمة الطرف ممن تضرّون .

من مداعبة الامبراطور لهن بشد آذنتهن بعنف ، أو من جلوسه إلى جانبهن يقص عليهن ما يشاع من عدم إخلاص أزواجهن لهن، سُرّت من تلك العبارة التهكمية التي فاه بها تاليران .

ليس في الدنيا شيء أكثر إفساداً للسرور من الضرب على نعمة واحدة باستمرار ممل ، في موضوع طويل . وأحاديث نابليون إن لم تكن كلاماً طويلاً يستوجب إصغاء الحاضرين ، أو توبيخاً غنياً ، فهي استفهام طويل ممل في موضوع واحد . والغالب أن بلاطاً يسوسه أناني محب للعمل ، يمتاز بكثير من الفضائل : كأن يراعى الاقتصاد فيه ، ويكون في مأمن من تأثير مكاييد النساء ، ويملاً المراكز فيه السياسيون المخنكون والقواد المدربون ، لا رجال ضعفاء وطفيلون ظرفاء — مثل ذلك البلاط لا تبرز فيه شمس السرور . والبلاط الامبراطوري الفرنسي الذي تجلت فيه كل تلك الفضائل المتقدمة ، تخلت عنه مظاهر السرور ، كلما زاد فيه جلال الملك ووقار الرسميات . وكيف لا يكون ذلك وعلى رأس البلاط رجل كل نظم الرسميات عنده ، كالتشريفات والملابس الرسمية ، وطأطة الرؤوس إجلالاً ، وتقديم رجل وتأخير أخرى احتراماً ، ليست إلا بعض مظاهر السلطان ، التي تدخل السرور على النفس ، وتشعر الحاكم بقوته بين الناس ، ولا قيمة لها إلا أنها تهر خيال الرجل العادي ، وتملؤه بالهبة والأجلال المنبعثين من رئيس البلاد .

أما فكرة أن الملك مخلوق وظيفته الرئيسية إدخال السرور إلى قلوب رعاياه فكانت بعيدة عن نابليون . والسبب أنه اعتقد أن واجبه وهمه أن يسوسهم ويسوسهم دائماً ؛ فكان إذا جلس إلى مائدة لعب الورق أو الشطرنج ، كان يلعب ليكسب ، حتى إذا عجز عن الكسب بالطرق المشروعة عمد إلى الغش . وكان لروح السلطة سلطان على طبيعته ، حتى أن كل رسائل أتباعه ، لم تغفل من استقصائه ولو كانت خاصة . وكان كلما خف ضغط الأعمال العامة يجلس بين أخصائه ، فيحدد لبعض سيدات البلاط عدداً فرادى أسرته ، أو مصاريف منزلها ، أو نفقات الخيل التي تقتنيها .

هذا ، وكانت روح حب السلطة ، التي تفسد الحرية والسرور ، ممثلة بأجلى معانيها في علاقات نابليون مع أعضاء أسرته . ومع ذلك كان يحفظ في قلبه حباً خالصاً لأمه ولا أخوته وأخواته ؛ وليس في حياته شيء أعجب من تحمله للشدائد التي تحملها في حدائته ، أو من المروءة التي أظهرها أيام رجولته لرفاة أسرته . ويرجع ذلك من جهة إلى صفة حب العشيرة القرشقية ، وإلى اعتقاده من جهة أخرى في وجوب التحقق من أن أهله كانوا في هناة ، ليرهن لفرنسا والعالم أجمع ، أن أسرة بوناپرت أحسن من آل بربون ، إذا اتخذت الأسرات قاعدة للتقدير والموازنة . وقد كان في تأسيس الإمبراطورية فرصة

أكبر من أي فرصة سابقة لتأييد ذلك القول : فال كبريون الذين حكموا فرنسا ، وكتبوا لايزالون حكام إسبانيا ونابلي ، أسرة فرنسية قضت السياسة والمطامع الحربية أن يصبحوا أذافاً للملكية بين الشعوب اللاتينية ، وليس بعيد أن يكون هناك مستقبل لا يقل عظمة عن عظمة آل بربون مخبوءاً في طيات المقادير لأبناء ليتيشيا . ولو تم ذلك لكانت حادثة من خوارق الحوادث ، وبرهانا ساطعاً على إمكان قلب نظام العالم القديم البطيء رأساً على عقب ، بمجهود رجل ذي مهارة فائقة ، خلق من أبناء ليتيشيا أمراء وكبراء في إمبراطورية يبلغ اتساعها ما بلغه ملك شارلمان . إنما كان هناك شرط قاس للنجاح في ذلك المضمار ، وهو أن الرفعة والمراكز السامية كانت تشرى بالطاعة العمياء لرئيس الأسرة .

من يوم أن أعلن نابليون الحرب على إنجلترا كان يعد المعدات لغزوها . قال يوماً : « ليس المانش إلا حفرة لا يتطلب عبورها كثيراً من الأقدام » . وقد زعم أنه إذا تم ذلك سترعى إنجلترا عند قدميه . فقد قال في حديث عن ذلك الموضوع في سنت هيلانه ، أن أربعة أيام كانت تكفي لدخوله لندن « ولا فائحاً بل محمراً مثل وليام الثالث (١) » ،

(١) وليام الثالث هو وليام أوزلنج ابن أخت شارل الثاني ملك إنجلترا (١٦٦٠ - ١٦٨٥) .
 جاء بعد شارل المذكور جيمس الثاني (١٦٨٥ - ١٦٨٨) . غير أن إنجلترا لم تقب صبراً على أسيادها
 جيمس الكاثوليك ، خلعت وولت وليام العرش ، فقبل وجهه إنجلترا سنة ١٦٨٨ .

مع امتياز في المروعة وفي التنزه عن الهوى والتعيز؛ وأنه كان عازما بعد إعلان الجمهورية في إنجلترا على إلغاء مجلس اللوردات، وإصلاح مجلس النواب، وتوزيع ثروة الأعيان الوطنيين على الفقراء. وعند ذلك يرحب به الرعاع؛ ويمنح هو البحارة و«كل شيء»، يطلبونه^(١)، ويقم جمهورية منفصلة في أيرلندا. وهكذا تصبح الجزيرتان وقدال حكم الخاصة في الأولى، وزال حكم الأجنبي في الثانية^(٢)، تشاطران فرنسا عهد التجديد.

ليس ثمة قيمة في تلك الحرافات: إذ لو سلمنا جدلا بإمكان فتح نابليون إنجلترا فلا مجال للشك في مصيرها إلى ما صارت إليه بروسيا. بعد موقعة ينا^(٣) (Jena): فيبتر الجباة الفرنسيون منها كل ما تستطيع دفعه من الضرائب، ويلقى على عاتقها جيش احتلال، ثم لا يمضي زمن طويل حتى يهب القوم في وجه الجباة والجنود ويطردوهم من أرض الوطن. قال أحد مشهورى الكتاب الحربيين الأوربيين: إن من سوء

(١) ذكر المؤلف البحارة، وأراد أن يشير إلى حالة التمرد التي كانت انتشرت في الأسطول الإنجليزي في بحر المانش سنة ١٧٩٧، لاجل تحيين للرتب والامتياز. ولم يكن هناك سبب سياسي. لذلك الفتنة فيستغل نابليون سنة ١٨٠٤، بل قد أحييت مطالب البحارة في السنة التي تمردوا فيها.

(٢) القصد بالجزيرة الأولى إنجلترا، وبالثانية أيرلندا، وقد أورد المؤلف تلك العبارة بخصوص الجزيرتين، ليشير إلى الحالة السياسية في الجزر البريطانية في أوائل القرن التاسع عشر في نظر نابليون.

(٣) انظر حرب نابليون مع بروسيا في هذا الفصل من الكتاب.

حظ أوروبا كون العلم الثلاثي الألوان لم يخفق أبداً على حصن لندن وقصر وندزور^(١)؛ إذ لو كان استولى نابليون على إنجلترا لاستفد هناك بعض قوته التي آتت بها أوروبا، ولا أصبحت إنجلترا عاجزة عن احتكار ميدان الاستعمار، ذلك الاحتكار الذي يثير الآن نار الحقد عليها في قلوب مزاحمها من الدول الأوروبية. ربما كان من المعقول القول بأنه لو كان ترل جيش فرنسي بأرض أنجلترا القضى على سيادة نابليون في أوروبا في مدة أقصر مما حصل، غير أن هناك ما يفند ذلك الرأي. ثم أن التاريخ لا ينكر أنه كان خيراً لتقدم العالم أن يؤول أكبر نصيب في الاستعمار لدولة تدين بالحرية السياسية والصناعية، بدلا من دولة أو دول تبني الاستعمار من أجل الاحتكار التجاري. هنا ومهما يلحق نابليون بإنجلترا من العطب، فليس ثمة ما يدعوا للاعتقاد في عدم استطاعتها عند سقوطه استرداد سيادتها التجارية والبحرية، حتى تسبق في ميدان التوسع الاستعماري الدول الأخرى التي كانت مصالحها لا تزال جلها — أو كلها — مرتبطة بقارة أوروبا ليس غير.

(١) حصن لندن (Tower of London) كما هو الآن عبارة عن قلعة قديمة، كانت ذات أهمية في القرون الوسطى، حين كان لكل مدينة قلعة وباب. وقصر وندزور (Windsor Castle) قصر قديم بناه وليام الفاتح في القرن الحادي عشر، وأدخل فيه آل تيودور عدة تعديلات. والقصر من أجل مناظر ضواحي لندن، وفيه مسكن خصوصي للملك إنجلترا، وبه جزء مخصص لضيافة الملوك الذين يزورون مملكته، وبالقصر أيضاً مقبرة لآل سترالانك.

مثلا كانت هزيمة إنجلترا في سنة ١٨٠٤ أو سنة ١٨٠٥ كافية لأرجاع جزيرة سيلان أو مستعمرة الرأس إلى الهولنديين ؛ لكنه لم يكن من المعقول أن تؤدي تلك الهزيمة إلى مدّ سنة في أجل الإمبراطورية الاستعمارية الألمانية ، أو يزيد فدانا إلى مساحتها^(١).

يلزم لغزو إنجلترا ثلاث أمور هامة . وهي جيش قوى ، ونظام يكفل نقل الجيوش والمؤن ، وبحرية قوية تحمى عبورها وإزالتها إلى البر . لم يكن إعداد أى واحد من تلك الأمور هينا ؛ إلا أن الأول أسهل من الثانى ، وهذا أسهل من الثالث . استطاع نابليون ، أثناء الفترة ما بين مايو سنة ١٨٠٣ ومايو سنة ١٨٠٥ ، تعبئة جيش مؤلف من ٢١٠.٠٠٠ مقاتل بفضل نظام التجنيد الإجبارى والقسوة التى استعملها المديرون فى إنفاذه ؛ فأدى ذلك إلى كثير من الآلام ، ولم ينتج النتيجة المرجوة بدليل قول نابليون : « وإن خمس المجندين من حثالة الأمة » ، غير أن أولئك المجندين ، الذين كانوا معظمهم من فقراء المدن وفلاحى الأرياف ، ما لبثوا بفضل تدريب ضباطهم الكفاة المحنكين ، أن صاروا جيشاً منظماً فى معسكرات التمرين ، التى أقيمت على الشواطئ الفرنسية الواقعة على بحر الشمال وبحر المانش ، حتى

(١) يشير المؤلف هنا إلى الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى ، ويرد على أقوال المؤرخين الذين يكتبون ضد الإمبراطورية البريطانية الحالية .

كان في وسع نابليون في أى وقت من عامى ١٨٠٤ و ١٨٠٥ أن يرسل إلى شواطئ مقاطعة كنت (Kent)، الواقعة فى أقصى الجنوب الشرقى من إنجلترا، قوة هجومية مؤلفة من ١٠٠.٠٠٠ مقاتل، لا يقلون بأساً ومهارة عن أى الجيوش التى حاربت فى ذلك العصر. أمامسألة تجهيز وسائل النقل لذلك الجيش فكانت أكثر صعوبة: ففي مايو سنة ١٨٠٤ صدرت الأوامر فعلاً ببناء ٢١٠ من النقلات البحرية المستوية القيعان، وفى يولييه صدر الأمر ببناء ١٤١٠؛ وفى أغسطس ببناء ٢٠٠٠؛ وبذل مجهود عظيم لفهم الشعب الفرنسى ضرورة الإعانات المالية. لكن بصرف النظر عن استحالة بناء ذلك العدد العظيم من السفن الثقالة، بدون تعطيل كل الأعمال المرتبطة ببناء السفن الحربية، كان من المستحيل سفر تلك النقلات من المرافىء التى بنيت فيها، إلى المرفأ الذى عين لرحيل الجنود إلى إنجلترا، بدون أن تلحق بها الطرادات الانجليزية عطباً كبيراً. أضف إلى ذلك أن السفن التى تم إنجازها نقصت عما قدر نابليون، فلم يزد عدد السفن التى اجتمعت عند بولونيا على ١٥٠٠؛ وعلى الرغم من توسيع ذلك الميناء، فإنه كان غير صالح لائتزال الجنود إلا بعد عناء كبير.

فضلاً عن عدم كفاية المعدات المتقدمة ورداءتها، كان نقص المطلب الثالث العيب المشؤوم فى كل المشروع: ذلك أنه خيل لنابليون

في خريف ١٨٠٣ أن في مقدوره عبور المانش في ليلة دامسة الظلام
 هادئة الرياح ، بدون حاجة إلى أسطول يحرس النقلات . مثل ذلك
 العمل كان كالسعى إلى الحثف بالظلف ؛ لأنه لم يحسب فيه حسابا
 لأوقات المد والجزر وحالاتهما المتعددة في بحر المانش ، ولا لخرج
 بولونيا الضيق ، ولا لصعوبة إبقاء عدد عظيم من السفن مستوية
 القيمان ، بعضها بقرب بعض ، عند هبوب ريح فجأة في وسط الليل
 إليهم . ولو فرضنا بناء على الخطة المرسومة أن يخرج أيضاً أسطول
 من النقلات الهولندية من جزيرة تكسل (Texel) الواقعة عند مدخل
 بحر زيدرزي ، لمعاونة أسطول النقلات الفرنسية ، فلن يستطيع
 الأسطولان عمل شيء إذا لم تحرسهما السفن الحربية . اقتنع نابليون
 أخيراً أن أول خطوة في سبيل النجاح هي جمع كل قواته البحرية في
 المانش ، حتى إذا أمكنه أن يجمع في مضائق المانش أسطولا حريا
 فرنسياً متفوقاً لمدة قصيرة عن أي أسطول انجليزي يمكن تسييره
 ضده ، فعند ذلك يستطيع أسطولا النقلات العبور . هنا وهنا
 بالضبط كانت الصعوبة الكبرى : وهي أن الأسطول الحربي الفرنسي ،
 فضلاً عن كونه أقل قوة وعدداً من الأسطول الانجليزي ، كان
 مبعثراً في البحر الأبيض المتوسط ، وفي خليج بسكاي وموانئ المانش .
 وكان أكبر جزء منه محاصراً في ميناء برست ، ليلاً ونهاراً ، صيفاً

وشتاء ، ومعرضا لكل تقلبات الجو رديئة ومعتدلة ، بأسطول تحت
 قيادة أمير البحر الأنجليزى كورنوالس (Cornwallis) . ثم كان نلسن
 واقفا بالمرصاد لأسطول طولون ، على رغم أن تلك المراقبة الدقيقة لم تكن
 جزءا من خطته . برهن نابليون على مهارته وإقدامه فى الأمور
 البحرية لما رأى حرج مركزه ، وعلم أنه لا يمكن حل تلك العقدة إلا
 باجلاء أمراء البحر الأنجليزى عن مراكزهم ، واستدراجهم إلى بحار
 بعيدة . والحقيقة أن مكايده العديدة ، وما تضمنت من مهارة وجراءة ،
 بهرت العقول . — فن تظاهر بالاقلاع إلى مصر ، ثم إلى إيرلندا ،
 ثم إلى جزر الهند الغربية ؛ ومن تسيير أسطول طولون إلى ميناء
 شربورج ، ومروره بعد مخادعات طويلة أمام أسطول كورنوالس .
 لو كان البخار مستعملا إذ ذاك فى السفن ، وكان عند نابليون أمراء
 بحر ذوو جرأة ، وبجارة ذوو كفاية ، لا يمكن تنفيذ بعض تلك الخطط
 بالدقة . إلا أن نابليون كان ينتظر كثيرا ويأمل كثيرا من بحرية ناقصة
 خائفة القوى ، ونسى أن الرياح والمد والجزر لا تسخر بأمر إنسان .
 زعم بعض الباحثين أن كل تلك الخطط والاستعدادات المتقنة
 كانت كلها خدعا فى حد ذاتها ، وأن نابليون لم يقصد يوما أن يعبر
 المانش . لكن من قرأ الرسائل الكثيرة الدقيقة الحارة ، التى
 استغرقت ثلاث سنين ، والتى دارت كلها حول المسألة البحرية ،

لايشك لحظة واحدة في أن نابليون كان جاداً في خطته لغزو إنجلترا،
أوفى عزمه على إنفاذها في ظرفين على الأقل : أولهما في خريف
سنة ١٨٠٣ ، وثانيهما في صيف سنة ١٨٠٤ ، وربما في ربيع وصيف
سنة ١٨٠٥ أيضاً . ثم إننا لم يكن جاداً في عزمه فلماذا أمر بضرب
نیشان عليه صورة هرقل يخنق إحدى بنات البحر^(١) من وجه ،
وعليه من الوجه الآخر ، ذكرى غزو إنجلترا . ضرب في لندن
سنة ١٨٠٤ ، ولماذا صرف الأمبراطور خمسة أسابيع على الشاطئ
الشمالي ، في صيف سنة ١٨٠٤ ، يبذل كل ما أوتي من نشاط في إعداد
المعدات البحرية ، وتستهويه نشوة الطرب عند رؤية البحر ؟ أكان
هازلاً عند ما خصص عشرين مليون فرنك في مارس سنة ١٨٠٥ ،
لأصلاح الطرق في بيكاردي (Picardy) ، وهي المقاطعة الفرنسية
المطلّة على الشواطئ الانجليزية الجنوبية ؟ أو حينما رسم خطة
دقيقة بعد كثير من التتميق والتعديل ، تتضمن جمع كل السفن
الحرية الفرنسية عند جزيرة مارتينيك في الهند الغربية ، حتى إذا تم
تضليل الأسطول الانجليزي أسرع السفن الفرنسية قافلة إلى
بولونيا ؟ الحقيقة أنه لما وضع عدم إمكان إنفاذ المشروع ، أصبح من

(١) هرقل بطل الشجاعة في الأساطير اليونانية القديمة ، وقد رسم على النيشان رمزاً لنابليون .
لما نلت البحر فرسمت رمزاً إلى إنجلترا .

السهل، بل من الطبيعي، القول بأن غزو إنجلترا لم يقصد أبداً. عند ذلك أعلن نابليون بلهجة متفطرسة، أن عبور المانش لم يكن إلا إيهاماً، قصد به التمكن من تعبئة الجيش وتموينه وتدريبه، استعداداً لحرب أوربية بدون إثارة خاطر أحد؛ وأن الملايين التي صرفت على العمارة البحرية، وعلى إصلاح الطرق والموانئ، لم تكن إلا لذر الرماد في عين الأجنبي؛ وأن السلاح الذي وجهه باستمرار ومهارة نحو إنجلترا، لم يكن إلا موجهاً لإثارة دولة أخرى في الجانب الآخر من أوروبا، أعني النمسا.

لا تخلو تلك المعاذير من بعض الحق، لأن احتمال نشوب الحرب في أوروبا، الذي كان يشغل رأس نابليون، جعل الجيوش المحتشدة عند بولونيا نافعة من وجهتين: أحدهما وأهمهما توجيهها ضد لندن، وثانيتها — في حالة فشل المشروع البحري — ضد عصبية الدول الأوربية، التي كان من المحقق، عاجلاً أو آجلاً، أن يكونتها يت. رئيس الوزارة الانجليزية حين ذلك. وفي الحقيقة أنه إذا استعصى غزو إنجلترا، فلا يبقى إلا طريقان لاثباتها إلى رشدتها وهما: إما إتخاذ ضربة قاضية في الهند، وإما إقامة حصار قارى في وجه التجارة الانجليزية. جرت نابليون الطريق الأولى سنة ١٧٩٨، وبعد نقض معاهدة أميان، كان جل همهم موجهاً نحو الطريق الثانية، ظناً منه أن

هزيمة إنجلترا تستلزم التسلط على دول أوروبا أولاً ، حتى إذا فشل
غزو الجزائر البريطانية المتقدم ذكره ، كان من اللازم التحرش بدولة
ماوروية إلى حد يكون عنده قطع العلاقات معها أمراً يسيراً .

لم يكن في التاريخ سابقة يتعلم نابليون منها فن إثارة الحواطر .
وتفسير ذلك أن البلاط النمساوى ، بسبب ما تكاثرت عليه من المصائب
الحرية المتوالية ، كان على استعداد لقبول كثير من ضروب الأدلّال
قبل أن ينزل إلى ميدان القتال من جديد . فمثلاً وقعت النمسا جامدة وهي
ترى غزو ولاية هنوفر بألمانيا ، وإعادة احتلال مملكة نابلي ، وإكراه
إسبانيا على دفع إعانة مالية ، وقبلت وهي تحرق الأرم القبض على الأمير
هانجيان ، وهو في أرض الأمبراطورية النمساوية ، والحكم عليه
بالأعدام بعد محاكمة سرية . ولما أعلن نابليون نفسه إمبراطوراً
رضيت صاغرة ، وكذلك فعلت لما أخذت نابليون عزة الملك ، وسافر
إلى إكس لاشابل عاصمة إمبراطورية شارلمان القديمة ، ليتسلم الوثائق
التي اعترفت النمسا فيها بمركزه الجديد . السبب في ذلك كله ، أن هيئة
كبار الفئتين الحريين قررت أن النمسا ليست على استعداد للحرب بعد ،
وأن الأرشيدوق شارل النمساوى ، الذي كان ينصح بالثروى ، تغلب
بإياه مدة طويلة على آراء المتحمسين القائلين بالتعجيل .

خرجت النمسا فجأة من ذلك الموقف السلبي من جراء أعمال

نابليون في إيطاليا : وذلك أن آل هابسبورج شاهدوا مرغمين سلسلة من التغييرات التي لم ترق نظرهم ، منها تأسيس جمهورية في لمبارديا على حسابهم سنة ١٧٩٧ ، واسترجاعها على حسابهم أيضاً سنة ١٨٠٠ ، وتأسيس جمهورية بها ثانية بعد ذلك بستين ، على نظام أدق واشد خطراً تحت رئاسة نابليون . كانت النمسا تفض الطرف عن كل تلك الاجراءات ، آملة أن تصبح «الجمهورية الإيطالية» ، فاصلاً بين الفرنسيين في ييدُمت والنمساويين في البندقية . لكن ظهر فجأة سنة ١٨٠٤ مشروع جديد منذراً بالأخطار : إذ أعلن نابليون أن احتفاظه برأسة الجمهورية الإيطالية لا يتفق ومركزه الجديد كإمبراطور فرنسا ، وعلى ذلك أخطرت النمسا بتحويل الجمهورية الإيطالية ملكية وراثية ، وبقبول يوسف بوناپرت لعرشها ، مع الضمان الكافي لبقاء تاجي إيطاليا وفرنسا لا يحملها رأس واحداً . إلا أن ذلك المشروع على ما فيه من شبهات ، وما تضمنه من مخاوف ، أستبدل بآخر كان ادعى لاقتلاق بال النمساويين : وهو أن قبول يوسف بوناپرت للعرش الإيطالي كان سابقاً لأوانه ؛ لأنه بعد أن فكر وأدرك أنه من ضمن المرشحين لعرش الإمبراطورية الفرنسية ، آثر البقاء في فرنسا متظراً ما تأتي به الأيام ، على أن يقبل مركزاً في لمبارديا مملوءاً بالمتاعب محملاً بالمسئولية . ثم فكر نابليون في تبنى أكبر

أولاد أخيه لويس ، وفي منحه وهو في الثالثة من عمره لقب ملك إيطاليا ، حتى يبلغ أشده فيملك زمام عرشها بيده . إلا أن ذلك المشروع أهمل لمرض أبي الولد ، فاستقر رأى الإمبراطور على أمر ظهر منه جلياً مبلغ أطماعه : ذلك أنه عزم على أخذ التاج الإيطالي لنفسه ، فيصبح ملك إيطاليا ، على أن يكون ربيبه يوجين بوهارنيه قائماً بالأمر عنه في ميلان . جعل ذلك الترتيب مؤقتاً ريثما يخلى البريطانيون مالطا ، والروسيون جزيرة كورفو في بحر الأرخيل . لكن كان من المستحيل على أى سياسى ذكى أن يصدق كل تلك الأقوال والتحفظات ، أو يعتقد أن نفسية نابليون تسمح بالتنازل عن تاج وقع في يده مرة . وفي الحقيقة لم يخف نابليون نياته ، وسرعان ما أصبح شارلمان الجديد ، وملك أكس لاشابل وميلان ، والمهيمن على فرنسا وإيطاليا ، فضلاً عن توجه البابا إليه وتبريكه حديثاً إمبراطوراً على الفرنسيين . على ذلك ذهب نابليون في يونيه سنة ١٨٠٥ إلى إيطاليا ، وتوج نفسه بكل هدوء في كاتدرائية ميلان بتاج ملوك لمبارديا الحديدى ، كما كان يفعل أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في القرون الوسطى ، إذ يأتون وحوهم الفرسان الألمان ليثبتوا لهملاً حقوقهم الخيالية على سهل لمباردى . أجل كانت سلطة نابليون أوسع مما كان لبرباروسا الذى دانت له البلاد في القرون الوسطى ، وامتازت عنها بأنها لم تلق من يناهضها . ولقد

انتهز فرصة زيارته لإيطاليا تلك المرة فكون دو إقطاعا إيطاليا، لآخذه إليز (Elise) من بلدة يومينو (Piombino) الواقعة على الشاطئ الإيطالي في مواجهة جزيرة إلبا ، وضم إلى الإمبراطورية الفرنسية الساحل الذي تتكون منه الجمهورية الليجورية ^(١) .

كانت روسيا وإنجلترا تخرضان النمسا بالحاح لمحاربة نابليون الذي أرغما على محو ماتقدم . والسبب أن القيصر اسكندر — ذلك الشاب الحراق الطموح — كان غاضبا من أجل إعدام دانيجان ، بدرجة أنه وقع في ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٤ على معاهدة دفاعية مع النمسا ضد أي اعتداءات جديدة من جانب فرنسا . وقعت تلك الاعتداءات لما خرقت فرنسا حرمة معاهدة لونيشيل بجرأة ، فوردت الأخبار على البلاط النمساوي أنه إذا لم تهب النمسا بسرعة ، فأنها لن تلقى معونة رجال روسيا ولا أموال إنجلترا فيما بعد . على ذلك انضم فرنسيس إمبراطور النمسا للتحالف ^(٢) ، في ٧ يونيه سنة ١٨٠٥ ، وبدأ في تعبئة جيوشه . بيد أن عين نابليون الساهرة لم تغفل عن تلك الحركة ، ولما كان من المحتمل أن تنصرم بضعة شهور قبل أن تتأهب النمسا للحرب ، رأى أن يعضى

(١) هذا هو الاسم الذي أطلق على جمهورية جنوا بعد أن فتحها الفرنسيون سنة ١٧٩٧ ، وألوا نظام الجمهورية القديمة.

(٢) هذا هو المعروف بالتحالف الثالث ، وقد نجح في تكوينه بت رئيس الوزارة الانجليزية من روسيا والنمسا والسويد وإنجلترا ، وكانت إسبانيا وبافاريا في ذلك الوقت في جنب نابليون .

هو في إعداد خطته العظيمة والاخيرة ضد إنجلترا، حتى إذا ما فشلت.
انقض على جموع النمساويين ليكتسحهم دفعة واحدة.

ثم كتب نابليون في ٢٣ أغسطس، وهو في بولونيا إلى تاليران،
قال: «وقام أسطول من فرول (Ferrol) مؤلف من أربع وثلاثين
سفينة، ولم يجد للعدو أثراً؛ فإنا فقدنا ذلك الأسطول الأوامر المعطاة.
له، ولحق بالأسطول المقلع من برست (Brest) ليدخلا المانش معا،
فإن هناك أملاً أن أصبح المسيطر على إنجلترا»، ثم قال، «وإذا لم يتم
ذلك» فساغادر معسكرى في هذه الجهة، وأكون في يوم ٢٣ سبتمبر
في ألمانيا على رأس ٢٠٠٠ مقاتل، وأبعث ٢٥٠٠ جندي أخرى.
إلى مملكة نابلي والبندقية، وأكون قد وسعت ممتلكات منتخب.
باقاريا، فلا أعود أرهب جانب النمسا». ولكن قبل كتابة تلك
الرسالة بأسبوع، أى في ١٥ أغسطس، كان أمير البحر فيلنيف، قائد
الأساطيل الفرنسية والإسبانية المتحالفة، قد أخفق في محاولته،
وأصدر الأمر بالأياب إلى قانس على شاطئ إسبانيا الجنوبي^(١).

(١) تفصيل ما حدث أن أمير البحر فيلنيف (Villeneuve) نجح أولاً في استدراج
نلسن نحو جزائر الهند الغربية في ربيع سنة ١٨٠٥؛ غير أن نلسن كشف الحيلة لما شاهد السفن
الفرنسية تتأهب للرجوع عند جزيرة أنتيجا إحدى جزائر الهند الغربية؛ على ذلك أرسل نلسن
رسولاً على ظهر أسرع سفنه لتحذير الحكومة الإنجليزية، التي أرسلت إلى أمير البحر كورنوالس،
الذى كان يحاصر الأساطيل الفرنسية الرئيسية في برست وفزول، لمرأ بترك الحصار والخروج إلى.

هكذا فشل المقصد الأول بفضل نقطة البحرية الإنجليزية ،
 فلم يبق أنابليون إلا أن ينفذ الأمر العظيم الآخر . كان النمساويون
 قد عقدوا النية على تسيير الجزء الأعظم من جيوشهم إلى إيطاليا ،
 وعلى إبقاء ٥٠.٠٠٠ جندي فقط للقتال في جنوب ألمانيا . يرجع ذلك
 ، الترتيب إلى شيء من سوء تقدير الأحوال . ثم زاد الموقف حرجا قلة
 صبر النمساويين وعدم مبالاهم بضرورة انتظار وصول الأمداد
 الروسية . تفصيل ذلك أنه بالرغم من الاتفاق على انتظار وصول
 ٥٠.٠٠٠ مقاتل روسي إلى بلدة براوناو (Braunau) على نهر الائن (Inn)
 في ٢٠ أكتوبر ، ظن الجنرال النمساوي ماك (Mack) من الحزم أن
 يتقدم نحو الحدود الفرنسية ، بغية أن ينضم إليه أهل ألمانيا الجنوبية ،
 أو أن يحدث وصوله فرنسا ثورة داخلية . وسرعان ما لقيت تلك
 الغلطة جزاءً وفاقاً ؛ إذ بينا كان ماك يحلم باختراق الغابة السوداء دون
 أن يلقى مقاومة ، إذا بجيش يبلغ عدده مثل عدد جيشه ثلاث مرات ،
 ويمتاز بأنه أحسن منه قيادة وأكفأ ضباطاً وأدق نظاماً ، يعبر مسرعاً

البحر لمقابلة أمير البحر الفرنسي ، فقابلاه عند رأس فنستر (Finistre) في جنوب إسبانيا ،
 في ٢٢ يولييه سنة ١٨٠٥ ، وألحق به الهزيمة . عند ذلك اضطر فيلنيف إلى الاتجاه إلى ميناء قدس ،
 وجاء أسطول إنجليزي لمحاصره فيها . ثم حاول فيلنيف الخروج إلى عرض البحر والانتقام لمزيته
 عند رأس فنستر ، فكانت النتيجة أن لحقت به الهزيمة التامة عند رأس الطرف الآخر في ٢١ أكتوبر
 سنة ١٨٠٥ على يد أمير لمر البحر نلسن الذي جرح أثناء المعركة ومات بعدها بقليل .

ألمانيا من طرق شتى على خطط موضوعة بدقة رياضية . وسرعان
 لما أحاطت الشباك بقنصها الغافل ، ولم تمض ثلاثة أسابيع على عبور
 الجيش الأعظم ^(١) نهر الرين ، حتى كان ماك وجيشه النمساوى قد
 ملأ عند ألم (Ulm) . عند ذلك كتب نابليون : «و لقد نفذت خطتي
 كما رسمتها بالضبط» . وقد لا يمي التاريخ ، بما فيه من ذكريات
 وأمثال ، ونخص بالذكر منها حياة القائد البروسي ملكه ^(٢) ، مثلاً
 كان تنفيذ خطة التطويق منطبقاً تمام الانطباق على الحطة الأصلية
 كما حصل في ألم .

بينما الروسيون والنمساويون يتقهقرون أمام نابليون ، كانت سحب
 حالكة تتجمع في شمال ألمانيا . كانت الحكومة البروسية وقتئذ غير
 الهيئة الرائعة التي تُسير الآن قوى خمسين مليون ألماني ، على نظام
 عسكري كله وطنية متحمسة ^(٣) . وكانت بروسيا نفسها أقل ثروة
 وسكاناً ودرجة من المستوى المنخفض الذي تعيش فيه إيرلندا الحديثة ،

(١) أطلق هنا الاسم لأول مرة على الجيش الذي أعده نابليون لغزو إنجلترا ، وقد بقي ذلك
 الاسم لاحقاً لجيش الإمبراطور في حروبه للتمسدة .

(٢) بنهارد فون ملكه (Bernhard Von Moltke) هو القائد البري البروسي
 الذي بقى رئيساً لمهية أركان الحرب في الجيش البروسي ثلاثين عاماً . وقد سنة ١٨٠٠ ، وتوفي سنة
 ١٨٩١ ؛ وهو أعظم أستاذ ، جاد به النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، في علم خطط
 القتال وتدابيره .

(٣) يصف المؤلف الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى :

حتى خيل أنها نبذت تحت حكم فردريك وليام الثالث أطعمها كدولة
من دول الدرجة الأولى . مثل ذلك أنها اتبعت خلال عشر سنوات
سياسة حيدة دائمة ، بلا شجاعة ولا تبصر ، رغم إشارات تكفي
لاستفزاز أمة ذات شمم للقتال . ولقد جاء الوقت الذي لم تستطع بعده
بروسيا صبرا : ففي خريف سنة ١٨٠٥ بلغ السيل الزبي ، لما سار جزء
من الجيش الفرنسي مخترقا ألمانيا في طريقه إلى ألم ، ثقة منه أن لاجناح
عليه في خرق حرمة حياد بروسيا . ظاهر أنه لو تركت أمثال تلك
الجرائم بلا عقاب ، فلا قيمة لمنطقة الحياد ، التي كانت تحت حماية
بروسيا بمقتضى معاهدة بال . لذلك عقد ملك بروسيا مع قيصر روسيا
معاهدة تحالف في بوتسدام ، مؤداها أن تعرض بروسيا استعدادها
للتدخل في جانب نابليون . ووضعت شروط تلك المنحة بشكل يجعلها
تؤدي للحرب بعد شهر ، تكون بروسيا في أثنائه قد أعدت عدتها :
ذلك أنها طلبت من غازي ألم أن ينسحب من هولندا وألمانيا ونابلي
وسويسرا ويدينت ؛ وإلا أطلقت في سبيل مواصلاته مائة وثمانين
ألف روسي .

كان من الحزم أن يرجي : امبراطور النمسا والروسيا الحرب لوقت
تزوّل الجيش البروسي إلى الميدان ، لاسيما وأن جميع الظروف كانت
تقول في التأييد السلامة وفي العجلة الندامة . وتفصيل ذلك أن نابليون

رغم استيلائه على فينا كان معرضاً للهجوم من كل صوب وحذب
بجيوش الأرشيدوق شارل ، الذي رجع بسرعة من إيطاليا ، وبجيوش
الروسيا التي ارتدت بعد ألم إلى بوهيميا ، حيث أخذت. تنضم إليها
فلول الجيش النمساوى ، التي نجحت في التخلص من الشرك الذي
نصب في ألم . لو أنه أضيف إلى تلك الوحدات الهائلة ، رغم تفوقها ،
قوة جيش بروسى يحارب في وادى اللانوب الأوسط ، لأصبح
مركز نابليون في مورافيا حرجاً . كان الأمبراطور متيقظاً كل البقطة
لخاطر ذلك المركز ، حتى أنه فتح باب المفاوضات مع كل من
الأسكندر وفرنسيس عليه يفسد بينهما . على أنه تخلص من ذلك
المأزق لا بالسياسة ، بل بغيرور القيصر أسكندر ، الذي اعتقد أنه
يمكنه وحيداً قهر نابليون ، فاراد أن ينفرد بذلك الفخار ، وعقد النية
على إجبار نابليون على القتال : كان اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٨٠٥
الموافق عيد تنويم نابليون ، حين وقعت الواقعة الكبرى ، التي
أخذت أسمها من قرية أسترلitz (Austerlitz) في مورافيا ، حيث
أقام الأمبراطوران مراكزهما الرئيسية . في ليلة الواقعة ساد
معسكرات الفرنسيين روح مدهش ملؤه الثقة ؛ وأنارت ظلام
الليل البارد أضواء الرقص بالمشاعل ، الذي اشترك فيه سبعون ألفاً
هاتفين للأمبراطور ، مبشرين بالنصر في الصباح . أما جيش الحلفاء

البالغ عاين ألقاً، فكان معسكراً على مرتفعات پراتزن (Prätzen) التي عرفها نابليون جيداً من قبل ، حتى إذا أشرقت الشمس أمكنه رؤية أعدائه يجذبون من الهضبة وو انحدار السيل إلى الوادي ،، . كانت خطة نابليون أن يحول كل مجهود الهجوم الروسى ضد جناحه الأيمن ، حتى يتيسر له بعد ذلك تسيير قوة كبيرة إلى مرتفعات پراتزن ، ليستت قلب الجيش الروسى . رتبت الحركات بالدقة اللازمة للنجاح في كل الحروب ، مثلاً وجه نابليون إلى القائد سولت ^(١) السؤال الآتى : «كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات پراتزن ؟ » ، فأجاب سولت : «ويلزمنى أقل من عشرين دقيقة » ، . وعندها ردّ عليه نابليون : «وإذا كانت المسألة كذلك ، فيمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر » ، . ثم لما علم نابليون من طقطقة البنادق ودوى المدافع ، أن الروس قد اشتبكوا مع جناحه الأيمن ، سير مورا وبرنادوت ^(٢) وسولت ضد قلب الأُحلاف . وقد حارب

(١) ولد نيقولا سولت (Nicola Ssoul) سنة ١٧٦٩ . دخل الجيش جندياً علياً وترقى فيه حتى كانت أيام نابليون فترقى في أيامه أيضاً . وهربا شك من أعظم قواد نابليون قدرا وخبرة ومهارة في الحرب . ولا سقط نابليون أبداً سولت عن فرسا ، وبقى كذلك حتى استدعته الحكومة الفرنسية نفسها سنة ١٨١٩ ، وخدم لللكية الجديدة .

(٢) ولد جان برنادوت (Jean Bernadotte) سنة ١٧٦٤ . دخل البحرية الفرنسية ، وأظهر كفاية أيام الثورة ، فترقى وقشد بسرعة ، وأصبح من الرجال اللروفين . ويظهر أنه لم يكن بينه وبين نابليون همة أبداً ، لأنه كان من المعارضين في انقلاب بومير ، مع ذلك أصبح برنادوت

الروس بتلك الشجاعة التي كثيراً ما أكسبتهم فخاراً في تاريخ الحروب . بيد أن الفرنسيين ظهروا عليهم لكثرة عددهم وإقدامهم : فاستولى سولت على المرتفعات حوالى الظهر ، وأخذت فلول جيش كوتوسوف (Kulusoff) تنحدر متقهقرة على الجانب الشمالى للهضبة ، بينما تحول قلب الجيش الفرنسى إلى اليمين وحمل على جانب ومؤخرة الجناح الروسى الأيسر . رأى الأمبراطور بعينه من كنيسة سانت أنطونى كيف أيدت ثلاث فرق روسية ، ولما تبودلت الطلقات الأخيرة ، ركب إلى الميدان في ساعة الفسق في تلك الليلة الباردة ، وتفقّد بامعان غريب غنائم اليوم من جثث هامدة وأجسام تنبعث منها أصوات الآلام .

وقفت الحرب فجأة عند تلك الضربة المميتة ، فانسحب القيصر المدحور إلى الشمال ، واضطر هو جغتز (Hangwitz) (المفوض الروسى،

مارشالاً سنة ١٨٠٦ . من المهم ملاحظة أن برنادوت امتاز دون بقية قواد فرنسا في ذلك العهد بحلمه وكرمه وحسن معاملته للأشرى . ذلك أنه حدث سنة ١٨٠٦ أن السويد ملّت الحرب ضد نابليون ، فعزلت ملكها جستاف الرابع ، وولت مكانه شارل الثالث عشر وكان ضعيفاً هزماً وليس له ولد ، فأخارت السويد برنادوت ولياً للعهد لما عرفت عنه من حسن المعاملة للأشرى السويديين في أثناء الحرب ، وكوسيلة لتقوية أواصر المحالفة مع نابليون . ولقد أزعجت إنجلترا والروسيا من ذلك الترتيب ؛ غير أنه لم يكن تمت دواعي التخوف ، لأن السويد أخارت في الحقيقة قوّل الفرنسيين وداع نابليون . ولما قبل برنادوت منصبه الجديد رفض أن بعد الأمبراطور بالاتصاف للحصار القارى . ثم مات شارل الثالث عشر سنة ١٨١٠ فتولّى برنادوت ؛ عند ذلك طلب نابليون من برنادوت أن ينضم إلى الحصار القارى بلا قيد ولا شرط ، فقبل برنادوت وانضم إلى الروس سنة ١٨١٢ ودخل الصفوف ضد نابليون .

الذى بقى في فينا ومصير أوربا في كفتى ميزان ، إلى التوقيع باسمه على صلح شاتن في برسبورج (Pressberg) . أما النمسا فقد وقع عليها الجزاء الاوفى ، وباءت بغضب نابليون للمرة الثالثة ، وبمعاهدة شونبرون (Schonbrunn) ، في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٥ ، وافق فرنسيس على التنازل عن البندقية وإستريا (Istria) ودلاشيا ، وعن خط الطواني الجبلية بالتيروول ، وعن الاراض المنتشرة في الجنوب الغربى من ألمانيا التى كانت من أقدم أملاك آل هابسبورج .

أصبح نابليون بعد أسترتلز سيد إيطاليا وجنوب ألمانيا ؛ وقديما كان يواجهه في إيطاليا ثلاث قوات خارجة عن نفوذه وهى البندقية وروما ونابلى — دول ضعيفة بنفسها ، قوية بشد أزر النمسا لها أدياً وحرباً — ومن ثم أصبحت مسألتها تستدعى علاجاً دقيقاً . غير أنه لما أباد نابليون جيشاً نمساوياً عند ألم ، وكسر جزءاً من جيش نمساوى آخر عند أسترتلز ، أصبح قادراً على الانقضاض على أملاك وأحلاف آل هابسبورج في إيطاليا : فضم البندقية إلى مملكته الإيطالية ، وأرسل مينا لطرده آل بربون من نابلى ، وطلب بمخشونة إلى البابا أن ينضم إلى الحصار القارى ، ونتج عن تردد المجلس البابوى أن أعلن نابليون نفسه إمبراطور روما والرئيس الدينوى في الكنيسة . بذلك أصبحت إيطاليا في قبضته ، ولكى يكون مركزه فيها موثقاً ، أعطى

بمار التيرول لحليفه أمير بافاريا ، الذى أصبح ملكا وصهرا جزءا مساعدته في الحرب . ومن المحقق أن يحرص حارس إيطاليا الجديد على ما يؤتمن عليه ، لأن ابنته التى تزوجت بوجين ريب نابليون ، أصبحت الملكة في ميلان .

بتلك التدابير الفعالة طهرت إيطاليا لثمان سنوات من كل أثر نسائى خبيث . ولقد ذافت إيطاليا حلو العيش ومره على يد غازيها العظيم ، وكانت تلك الفترة من أخرج الفترات وأهمها في دور تكوينها : إذ أرسل أبناؤها في حروب خارجية ، وخربت دور الفنون الجميلة بمدنها ، ونهب خزائنها الوكلاء المليون ، عمال الاستبداد الحربى الفرنسى . لكنها على الأقل نالت من حكم نابليون ، ما كان يستحيل على النمسا أن تنيلها إياه ، وهو إذكاء نار الآمال القومية ، ونظرة جديدة إلى العالم الحديث ، ومبادئ التدريب الجندى في المسائل العامة . من مزايا مركز نابليون أنه كان لانفراده بالسلطة في فرنسا ، يستطيع في أى وقت ، وبدون أن تعترضه العراقيل ، أن يستفيد من الظروف في تحقيق أغراضه الحربية . مثل ذلك أنه لم يدخل الحرب إلا نفة الذكر إلا بعد تفقد الحال السياسية في ألمانيا ، حيث رأى أن الدويلات الألمانية الجنوبية توجس خيفة من مطامع النمسا ، وأن من الممكن استمالتها إلى جانب فرنسا ، بأعطائها شيئا يسد رمقها . بتلك

الطريقة سارت بادن وفرتمبرج وبافاريا مع التيار الفرنسي، واشتركت في معسكر أسترلتز، وبعد الانتصار طلبت ونالت الأرض واللقاب التي تكافأ بها أمثال تلك الخدمات. ولم تكن المساومة في مصلحة طرف واحد، لأن نابليون نال بسرعة مدهشة ثلاثاً من بنات أمراء الدويلات الثلاث: زَوْج إحداهن إلى ريبه^(١)، والثانية إلى ابن عم ريبه، والثالثة لأخيه جيروم؛ وبذلك المصاهرات الغريبة الموفقة، طبع نابليون مشروعه الهائل بطابع من الوقار، وربط ثلاث بيوتات قديمة، ذات مجد غير ضئيل، بعلاقات غرامية أجنبية. مهدت تلك التحالفات التي تمت وتأسست، طريقاً للضربة الأخيرة والقاضية على مركز النمسا في ألمانيا: إذ محا نابليون الدولة الرومانية المقدسة في يونيه سنة ١٨٠٦، وأقام بدل ذلك النظام الألماني العتيق الواهن عصبة قوية، لا تستند إلى مبادئ قومية، مكونة من أمراء يستمدون منه كل سلطة، وعليهم عهد مقطوع، أن يمدوا الأباطورية الفرنسية بمعونات حربية معينة. وكذلك برهن اتحاد الرين — وهو اسم تلك العصبة — برهاناً قاطعاً على الوهن الذي قد تصير إليه أمة متمدينة، بتأثير التفكير السيء والعواطف الخاطئة في السياسة. سبر نابليون غور ذلك الوهن الألماني، وهو جاهل بكتابة

(١) أنظر ص ١٦٧.

أو قراءة كلمة واحدة باللغة الألمانية ، ما عدا قرتر الذي كان مترجما إلى الفرنسية ، فكان لا يعرف عنها شيئا ، حتى أنه وضع اسم كانت^(١) في قائمة الفلاسفة المحترقين ، ذوى الأحلام الطائشة ، ودعاة التدجيل في العالم .

في تلك الآونة لم تفقد المسألة القديمة الخاصة بقوة حكومة «الأعيان الجبناء في لندن» ، — على حد قول نابليون — شيئا من حداثتها ، سوى أن مشروع الغزو أضحي خارجا عن المعقول ، ونبتت الفكرة منذ أغسطس ، ثم حالت موقعة الطرف^(٢) الاغربتاناً دون العودة إليها . فكر نابليون في مشروع غير جديد ، لمشابهته بعض سياسته الأولى وسياسة حكومة الإدارة أيضا : وذلك أنه عقد النية على إغلاق الموانئ الأوربية في وجه متاجر إنجلترا ومستعمراتها ، ولم يذق الراحة لحظة أثناء إنفاذ ذلك المشروع الهائل ، لاتساع الدائرة التي يتناولها اتساعا لا يجد الباحث له مثيلا إلا في تاريخ طغاة آسيا . ولم يعظم على ذهنه الثاقب ، وبصيرته النافذة ، ودقته الهندسية ، التي امتاز بها ، أن يتصور قارة بأسرها تخضع لآثارته ، فنصب أحد أخوته حاكما على نابلي ، والآخر على هولندا ، وخيل إليه أن

(١) كانت (Kant) أكبر فلاسفة العصور الحديثة . ولد سنة ١٧٢٤ في مدينة كونيجسبرج في بروسيا الشرقية ، ومات بها سنة ١٨٠٤ ، وكان أثناء حياة أستاذ الفلسفة في جامعتها وله مؤلفات كثيرة ومنهجه خاص في ذلك العلم الجليل .
(٢) انظر ص ١٢٥ ، ولا سيما الحاشية رقم (١) .

خضوع إسبانيا لن يقل عن خضوع لجهورن أوجنوا أو أنفريس . إنما كان هناك ثلاث ثغرات خطيرة ، في السياج المحركى الذى أقامه ، واقعة في ألمانيا والروسيا والبرتغال ، لو تركت لتهدم مشروعه من أساسه . صادف أن ساحل ألمانيا الشمالى كان أهم تلك الثغرات ، ولا بد أن يدخل ضمن النظام القارى ، رضيت بروسيا أم كرهت .

كانت الحكومة البروسية قد أرغمت بمعاهدة برسبورج على أن تقبل من نابليون متخية هاتوفر ، التابعة للأسرة المالكة في إنجلترا ، والتي كانت في الواقع مطمح أنظار الساسة في برلين . لكنهم حصلوا عليها مقابل قطع العلائق مع إنجلترا : إذ حاول البروسيون سدى أن يرفضوا تلك المنحة ، التي أيقنوا أن استلابها محال بدون أن يعرضوا نفوسهم لعقاب الأسطول البريطانى . لكن لما كان غرض نابليون الوحيد من سياسة الكرم الممزوج بالمخادعة أن يلقى الشقاق بين بروسيا وإنجلترا ، فإنه رفض بتأناً أن يسترجع ما أعطى . ثم أعلنت الحرب ، ووقع ما كان في الحسبان : إذ حاصرت إنجلترا الموانئ البروسية ، واستولت على السفائن التابعة لبروسيا ، التي أصبح مركزها مركز اللص الذى اكره على صناعته . عند ذلك بلغت روح الكراهة للفرنسيين أقصاها في برلين ، وقال الناس من الحماقة أن تدخل بروسيا في حرب مع إنجلترا حليفها الطبيعية ، طوعا

لأمر أجنبي مستبد ، لاتزال جيوشه الكبيرة المظفرة معسكرة
في جنوب ألمانيا . بالرغم مما حدث لم يحرك نابليون ساكناً لتهدئة
المخاوف البروسية ؛ ولما ظهر أنه وعد ، في خلال مفاوضات عقيمة مع
الحكومة الانجليزية ، بأرجاع هانوفر إلى إنجلترا ، طفحت كاس بروسيا ،
وأصدر فردريك وليام الأمر بتعبئة الجيوش البروسية .

كان نابليون على أتم استعداد للحرب : ذلك أنه بالرغم من استلاء
رسائله في صيف سنة ١٨٠٦ بمسائل إيطاليا ، مما يحمل على الاعتقاد
بأنه كان أكثر اشتغالا بتثبيت أخيه يوسف في مملكته الجديدة عن
مسائل الشمال ، فإن عينه كانت ساهرة ترقب البروسيين ، علماً منه
بأن الحرب قد تنشب بينه وبينهم ، وأنها أن نشبت يكن جيش
أسترلتر مستعداً لحوضها . لذلك لما دنت الساعة قضى نابليون على
عدوه بخطة تعتبر من أرق الخطط في فن الحرب : وتفصيل تلك
الخطّة أن الجيش البروسي ، الذي كان ينعم بشهرة لا يستحقها ، زحف
إلى الأمام تحت إمرة قائده الهرم الدوق برنسويك ، متبعاً شمال غابة
ثورنجيا (Thuringia) ، على أمل أن يقطع خط الرجعة على الجيش
الفرنسي الزاحف من الرين ، أو يتجنب هجمته . كان من المحتمل أن
يتصر نابليون حتى ولو اتبع ذلك الطريق ، لأنه كان يفوق خصمه
في العدد والمقدرة . إلا أن مثل ذلك الانتصار كان عادياً وغير حاسم ،

إذ يترتب عليه أن يرتد البروسيون إلى خطوط مواصلاتهم، حيث يحاربون حرباً دفاعية، حتى ينضم إليهم حلفاؤهم الروسيون. أراد نابليون نصراً أميناً حاسماً، لا يقتصر على هزيمة البروسيين، بل يشمل قطع خط الرجعة عليهم، ثم القضاء على جيشهم. لذلك جمع جيوشه عند نهر المين (Main)، وتقدم بسرعة في اتجاه شمالى شرقى مخترباً مسالك الغابة المكسوة بأشجار الصنوبر، وسار نحو نهر السال (Saale)، ومعه ١٦٠.٠٠٠ مقاتل، واثقاً من النجاح، يحمل بين جنبيه احتقاراً للحصم بليد غافل. كان الجو صحواً، والأرض مكسوة بالكلاّ الصالح للرعى، فلم يضل الطريق جندى واحد في ذلك الجيش العرمرم، الذى سار ثلاثين ميلاً في اليوم. وفي مساء ١٢ أكتوبر وصل داقو^(١) على رأس الجيش الثالث مدينة ناومبرج (Naumderg)، ففصل بذلك بين ملك بروسيا وحاضرة مملكته، واستولى أيضاً على مستودعات الذخائر البروسية. أفسدت تلك الأخبار المقلقة على برنسويك خطته، واضطرتّه إلى اقتراح تقهقر عام نحو الشمال. لكن فات الوقت الذى كان يسمح بالافلات من العاصفة، التى كانت تندفع من الجنوب. ثم انقضّ نابليون يوم ١٤ أكتوبر، عن غير قصد

(١) لويس نيقولا دافو (Louis Nicolas Davoust) سنة ١٧٧٠، وتبع مع نابليون في المدرسة الحربية. وقد برز أثناء حروب الثورة، ورافق نابليون إلى مصر، وكان له الفضل في الانتصار في موقعة أبي قير البرية.

بقوات متفوقة في العدد ، على الجيوش البروسية الاثمانية المرابطة
 عندينا (Jena) ، تحت قيادة هوهنلوهه (Hohenlohe) ، فانتصر
 انتصاراً حاسماً ؛ ويرجع الفضل الاكبر لداقو ، الذي برهن عند
 القتائه بالجيوش البروسية الرئيسى عند أورشتات (Auerstadt) ، أن في
 مقدور جزء صغير من جيش أسترلتز ، أن يتصر بدون نابليون ،
 ورغم مواجهة عدو متفوق عنه في المشاة والخيالة والمدفعية .

اصبحت بروسيا تحت قدم نابليون بعد تلك الضربة المزدوجة ،
 التي حدثت في يوم واحد ، والتي أعقبها مطاردة عنيفة . كتب نابليون
 قبل الواقعة يومين ، إلى فردريك وليام الثالث ملك بروسيا ، خطاباً
 في قالب غريب من البلاغة الراقية ، التي ما كان أقدر نابليون على
 صوغها في الظروف الخطيرة ، حذره من الهزيمة المحققة ، ونصح إليه
 بطلب الصلح قبل فوات الفرصة . أما وقد أريق الدماء ، فقد رفض
 الفاتح أن يستمع لطلب الهدنة ، وعقد النية على إذلال البروسيين
 حتى لا يعارضوا أمره مرة أخرى . فحاصر جميع معانقهم واستولى
 عليها ، وأقام مركز قيادة جيوشه في عاصمتهم ، وفرض غرامة حرية
 باهظة على قوم كانوا من الأصل مرهقين بالضرائب . بتلك الحطة
 الخامسة ، و انتقم نابليون لهزيمة ريباخ ^(١) (Rossbach) ، ، .

(١) بلدة صغيرة في سكسونيا واقعة على نهر الاالب ، وعندما هزم فردريك الاكبر ملك
 بروسيا القائد الفرنسي سوبيز (Soubise) سنة ١٧٥٧ ، أي في مدة حكم لويس الخامس عشر في فرنسا .

ثم أصدر في يوم ٢١ نوفمبر من برلين ، أول سلسلة الرسومات الشهيرة التي أعلنت أن الجزائر البريطانية في حالة حصر ، وحرمت الملتحجرة أو المراسلة معها .

كان من المحتم ان يخوض نابليون غمار حرب أخرى قبل أن يجني ثمار تلك الانتصارات الباهرة . والسبب في ذلك أنه على الرغم من اضطراب بلوخر للتسليم عند لوبك (Lubeck) ، بقى جزء صغير من الجيش البروسي لم يمسه ضرر . فلو أن جيشاً بروسياً تقدم عن طريق بولندا ، لمعاونة ذلك الجيش الصغير ، لأمكن تعويض الهزيمة التي وقعت عند السال . لذلك زحف نابليون إلى فارسو (Warsaw) وحاول أن يشتبك في موقعة حاسمة في ديسمبر . لكن العدو نجح من الشباك التي طرحت على مدى واسع لاقتناصه ، وبرهنت الحركات الحربية التي قام بها نابليون عند بلدي پولتسك (Pulask) وجولمين (Golymin) على أن الخطة السريعة المدهشة ، التي اتبعت في ألم لا يمكن تكرارها في وسط شتاء بولندا القارس ، بين الأوحال البولندية . قضى الإمبراطور شهر يناير في فارسو ، حيث هام بحب سيدة بولندية جميلة ، اسمها الكونتس فالفسكا (Walweska) التي أعقبت منه ولداً ، قدر له أن يصبح وزير الخارجية في فرنسا زمن الإمبراطورية الثانية . غير أن الإنفاس في الملاهي لم يقلل من يقظته ،

ولما علم في فبراير أن القائد الروسى بنجسن (B nnigsen) يزحف لرفع الحصار عن دانتزج ، أسرع شمالا لمهاجمته . وقد صارت للحملة المضطربة الهمجية ، التى وقعت عند مروسيس - آيلاو (Prussich-Eylan) ، والثلج المتساقط يعمى الأبصار ، مثالا من أمثلة الملاحم التى تؤيد نظرية تليستوى (١) القائلة : إن مقدرة القائد لاتهم كثيرا فى الحرب ، وإن النصر لا يأتى إلا من وجود فرق كثيرة العدد يصعب تحديد أوضاعها . ولقد كان ذلك اليوم ، الذى اختلطت فيه الدماء بالثلج ، كأول حادثة محزنة فى قصة لذيذة : إذ وقف نابليون لعدوه ، وحاز النصر بعد أن خسر ٢٥,٠٠٠ رجل ، ولم يتقدم خطوة واحدة فى سبيل الصلح .

ثم أنفذ نابليون بحفة مدهشة سهاما لامة ، كسهام البرق الحاطف بعضها تلو بعض ، فى جو مليد بغيوم تلك الحرب غير الحاسمة ، فاخترق بها ظله القاتم ، رغم اختلال النظام فى جيشه لقلة المثونة ، ورغم تهديد السويديين لمؤخرته ، وقرب أعدائه النمساويين من جناحيه . وتقصيل

(١) تولستوى لم أسرة روسية عريقة نبغ أفراد كثير منها فى السياسة والحرب والأدب والكونت ليو تليستوى (Leo Tolostoi) أحد أفرادها ، شاعر وروائي ومصلح اجتماعي ومتصرف ديني ، تربى فى موسكو ودخل جامعة قازان ، وخدم سنة ١٨٥٥ فى حرب القرم المشهورة بين تركيا وإنجلترا وفرنسا والروسيا . بعد ذلك انسحب من الجيش ، وكان قد أصبح شاعرا عبقريا وروائيا معروفا . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « الحرب والسلام » ، وفيه يصف وصفا رائعا تاريخ حملة نابليون على روسيا سنة ١٨١٢ ، ودفاع الروسيين عن بلادهم .

ما عمله نابليون، أنه عقد مع السويديين هدنة، وأعلن تمنياته السلمية للنمسا، ثم فتح باب مفاوضات عقيمة مع خصميه الرئيسيين. ولكي يخلق المتاعب للقيصر في الوقت نفسه، عقد معاهدة مع شاه العجم، ونصح بشدة سلطان تركيا للقيام من جديد في وجه عدوها المشترك، متنبئاً أن الساعة قد اقتربت لهضة الدولة العثمانية. ثم حرك بدهائه العاطفة القومية بين البولنديين إلى حد يكفي لخدمة أغراض فرنسا بدون إثارة مخاوف النمسا. عند ذلك حدث أن ارتكب بنجنسن القائد الروسي غلطة حربية فاحشة، خلصت نابليون من مركز معناه أن كل تأخير في الحرب كان يضيف إلى مركزه الحرج خطر أجدد. ذلك أن هناك رافداً صغيراً اسمه آل (Alle)، يصب في نهر برجل (Pregel)، الذي يصب في البحر البلطي عند كونيجزبرج (Konigsberg)، وعند أحد منعطفات الأسفل تقع بلدة فريدلاند (Friedland). في ذلك المركز الرديء، حيث النهر وراءه، وبجيش صغير جداً، وقع بنجنسن في مخالب نابليون؛ وكان نصر الفرنسيين ميئناً لدرجة أن قيصر روسيا ذا الملك المنيع اعتقد أن مملكته أُنسي في خطر جسيم.

في ٨ يولييه سنة ١٨٠٧ عقد صاحب تلسيت (Tilsit)، وهو عبارة عن تسوية تدل على الحال غير العادية بين الدول المتعاقدة، لاعلى

وافق مصالحها : من المعلوم أن تحالفا روسيا فرنسا في عصرنا الحالي ليس إلا نتيجة طبيعية لما صارت إليه ألمانيا من التماسك والقوة (١) ، ولقد حصل ذلك التحالف فعلا ، وتقوى حديثا لمزاحمة فرنسا والروسيا معا الأمبراطورية البريطانية . لكن لما تقابل نابليون والقيصر على ظهر بلوف في نهر النيمن (Niemen) ، كانت ألمانيا عبارة عن مجموعة من الحكومات الضعيفة المتطاحنة ، وكان يفصل الأطراف الشرقية من روسيا عن المصانع الإنجليزية على الهوجل ، أحد مصاب نهر الكنج بالهند ، مساحات شاسعة من الأرض الجرداء . لذلك كان الروس والإنجليز مرتبطين بمصالح تجارية ، خلافا لما تكون بينهما في أواخر القرن التاسع عشر من العداء في الشرق ، فكان معظم التجارة الروسية الخارجية مع إنجلترا ، وكان لا يوجد تاجر في العاصمة الروسية إلا وتصبح تجارته عرضة للأذى لو نقض التحالف الروسي الإنجليزي .

غير أن القيصر إسكندر كان معتقلا خطأ ، أن لافائدة من القيام بشيء بعد فريدلاند . وكان فضلا عن ذلك متألما من المعاونة الفائرة ، التي أدتها إليه حليفته إنجلترا أثناء الحرب السالفة . لذلك كان ميالا

(١) هذه العبارة صحيحة طالما بخصوص ألمانيا قبل الحرب العظمى .

لقبول تحالف زينه له نابليون بكل ماعنده من تضليل ، وأزجاء لهم
بمستقبل تفوق مزاياه بكثير حرمان طبقة الخاصة في العاصمة
الروسية من بعض ضروب الرفاهة الواردة من وراء البحار ؛ فانه
ليس بين الأماني التاريخية ، التي يتعلل بها الشعب الروسى المتغافى في
خدمة الكنيسة الاغريقية ، أمنية أعظم من استرداد الامبراطورية
البيزنطية من يد الاثراك . ولما لم يكن الاسكندر مجرد داعن الميول
التي استولت على بعض عطاء أسلافه ، فانه لما اقترح نابليون أن
تقسيم تركيا غرض سيسعى التحالف بينه وبين القيصر لتحقيقه ، نبذ
الاسكندر كل شكوكه ظهريا ، ووقع في الأجبولة .

كانت هناك معاهدة عامة وأخرى خاصة : اعترف الاسكندر
بمقتضى المعاهدة الاولى بالتغيرات التي أحدثها نابليون ، وأقترح إجراءاتها
في مصور أوروبا السياسى . وتفصيل ذلك أنه نزع من بروسيا مقاطعاتها
الغربية والشرقية ، وأقام مملكة جديدة باسم وستفاليا (Westphalia)
تحت إمرة أخيه جيروم من جهة ، ودوقية جديدة باسم قارسو تحت
إمرة ملك سكسونيا من جهة أخرى . أما المعاهدة الخاصة ، فنصت
أمورا أهم مما تقدم : إذ عينت السياسة التي تتبع في المستقبل ، إذا
رفضت إنجلترا توسط الروسيا بينها وبين نابليون ، أو رفضت

تركيا توسط فرنسا بينها وبين روسيا . كان المتفق عليه ، إذا وقعت
المسألة الأولى ، أن تنضم روسيا للحصار القارى ، وتعاون فوق
ذلك فرنسا على إرغام الدنمارك والسويد والبرتغال والنمسا على محاربة
التجارة الأنجليزية . وكان المتفق عليه فى المسألة الثانية ، أن يساعد
نابليون القيصر فى اقتسام الممتلكات التركية بينها ماعدا القسطنطينة
والروملى . ولقد كان ذلك الاستثناء كحاشية تفسيرية فى صحيفة أطماع
نابليون ، لأنه لما طلب الاسكندر العاصمة العثمانية ، قابله نابليون
بالرفض البات قائلا : " القسطنطينة ! ذلك محال . هذا معناه السيادة
على العالم " .

كان نابليون أثناء المفاوضات فى أحسن حالاته النفسية ، وكيف
لا يكون كذلك ، وقد أعقب آلام الحرب ومخاوفها فى بولندا ، ولائم
وحفلات وصلاح باهر ، أعلن بعدها أنه يجب القيصر : إذ قال " إنه
إمبراطور ظريف طيب القلب ، يحمل رأسا أكبر مما يعتقد الناس " .
والحقيقة أن نابليون أحس بأنه حصل بالتحالف الروسى على الاتفاق
والمعونة اللازمين لتثبيت ملكه فى الغرب . أما ملكة بروسيا فقد
أدخلت فى قلبه السرور ، لاسيما وأنه رفض مطالبتها رغم توسلاتها
لديه . وقد كان من دواعى سروره أن أصبحت بروسيا تحت
قدميه ، مقطعة الأوصال ، خاوية الخزائن ، مثقلة بجيش احتلال

فرنسى . وكان نابليون يرجو، بل يتَظَر، أن تطأطىء إنجلترا الرأس
أمام عظمة تلك الانتصارات ، وأن تقبل الشروط الروسية ، وتنزل
عن فتوحها الاستعمارية ، وتصلح قوانينها البحرية . وفي تلك الحالة
يصبح نابليون حراً في توجيه أطماعه نحو الشرق ؛ أما إذا تهاوى
الأنجليز في غيهم فركزه يمكنه من «التسلط على البحار بالحرب
على الأرض» .



الفصل السابع

فصل في الأمبراطورية

بلغت إمبراطورية نابليون في ذلك الظرف مبلغاً فاق أفكار وأمانى الشعب الفرنسي، مع أنها لم تكن وصلت إلى حدها الأقصى. قال تاليران يوماً للقيصر: «وإن أقصى فتوح فرنسا هي نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس، أما ما زاد عنها فمن فتوح نابليون»،. والدليل على صحة تلك العبارة أنه على الرغم من استمرار الانتصارات الحربية التي أخرست النقاد وأبقت روح التفاني والحماسة في الجيش، كان الأمبراطور شاعراً بالحقيقة الماثلة أمامه، وهي أن الأئمة ملت الحرب، وأن كل انتصار جديد يلقي لدى الرأى العام حماسة أقل مما لقيه سابقه، وأن الأمبراطورية العظيمة ترتكز على شخصية نابليون لا على رضا الأئمة. وآية ذلك أنه لما وصلت أنباء مارنيجو إلى باريس فاق الاستغراق في الفرح حد المعقول، لكن بعد ذلك بست سنين لم تحرك أخبارنا أحداً. ولقد كتبت مدام جونو (Madame Junot)، التي عاشت بين الجنود، أن الجمهور الفرنسي لم يكن ميالاً لمحاربة

التمساسة سنة ١٨٠٥ ، مع أنه رغب في محاربة إنجلترا؛ وفي حين أن كل مشروعات الأمبراطور في القارة الأوروبية كان ينظر إليها بعين الملل أو الفزع، كان روح الأقدام والتوسع فيما وراء البحار ، وهو سر نمو الأمبراطورية البريطانية ، معدوما جملة من نفسية الشعب الفرنسي في ذلك الوقت، حتى أن الحملة على سان دمنجو لم تكن في نظر الناس وسيلة لمعاقبة مستعمرة متمردة فقط ، بل لتأديب الجمهوريين الفرنسيين أيضا .

إذا ذكرنا ذلك التنافر بين المصلحة الوطنية الفرنسية ، وبين إيجاعات أطماع نابليون ، سهل علينا تعليل كثير من مميزات سياسته الأمبراطورية . فقد أدرك الأمبراطور بذكائه وفطنته أنه إذا ألقى عبء المحافظة على ممتلكاته على عاتق فرنسا ، أدى ذلك إلى تقويض دعائم عرشه . لذا كانت القاعدة الأساسية في سياسة الأمبراطورية أن لا ترهق جيوب الشعب الفرنسي بقدر الأمكان ، وأن تتحمل الدول الأجنبية التي تحت يده نفقات ما تتطلبه أطماعه . لا ريب أن فرنسا تحملت بعض أعباء مالية فوق أعبائها السابقة ، وأن دافع الضرائب بدأ يحس بمتاعب الحرب من طريق غير مباشر ، لما ارتفعت أثمان النيذ والملح والطباق . لكن مادامت الأمة ظليقة من أي ضريبة مباشرة جديدة ، ومن تدهور نقودها ، فإن

لآلام الحرب تظل بعيدة عن عقول البعيدين عن ميدان القتال . لذلك
 لم يفرض نابليون ضريبة على الدخل ، ولم يسمح بأصدار ورق نقدي ،
 وعوض أصحاب المصانع والتاجر ، الذين هم على وجه العموم أشد
 الطبقات تأثراً بمتاعب الحرب ، بنظام يجعل أسواق هولندا وألمانيا
 وإيطاليا مفتوحة للتجارة الفرنسية ، بدون تخفيض التعريفات الداخلية
 من أجل اتباع الأمبراطورية المجدد . نتج عن كل ماتقدم في السياسة
 المالية ، أن لم يشعر بالأزمة الاقتصادية أغنى أعضاء الأمبراطورية
 وأعظمها مدنية ، بل توابعها الفقيرة . أى أن فرنسا نجحت ، في حين
 أن نصف أرض الأقاليم الإيطالية والألمانية والهولندية ، التابعة
 للأمبراطورية ، كانت مخصصة باستمرار للوازم الأمبراطورية ، فضلاً
 عن أن سكان تلك الأقاليم كان مفروضاً عليهم غرامة ذات ثلاث
 شعب : وهى المعونات الحربية ، وإيواء الجنود الفرنسية المربطة
 ببلادهم ، وضرورة تكوين وإعداد فرق محلية للاندماج فى الجيش الأعظم .
 حاول نابليون أن يوجد فى فرنسا شعوراً إمبراطورياً بوسائل
 تدل على امتزاج الرفعة والحسنة فى نفسه ، الأمر الذى نجده فى حديثه
 وأخلاقه . مثل ذلك أنه لآم القائد مارمون عند انتهاء الحرب
 الإيطالية الأولى ، لأهله تجميع ثروة لنفسه ، كما فعل مسينا ،
 وكثير من الضباط الذين ظفروا بثروة طائلة من أسلاب وغنائم

إيطاليا . ثم كان من دواعي سروره أن يكون لقواده مغنم خاصة
في حروبهم وفي الدول التي تدين له بفضل شجاعتهم . ولما توطدت
دعائم الإمبراطورية ، طبق نابليون ذلك المبدأ بأوسع معانيه : فجعل
من أقاليم البندقية وإستريا وبلادشيا ، التي انتزعها من النمسا ، ضيعات
أنعم بها على بعض الدوقات والأمرأء . وبذلك أصبح الركن
المهدد في الإمبراطورية الفرنسية في يد مجموعة من الأسرات الحربية
تحميها مقابل اتفاقات مالية ، كما كانت الحال أيام ملتزمى الحدود
في القرن الخامس الميلادى . ولقد كانت تلك الأموال الطائلة التي
أغدقت على هؤلاء الحراس — لامن الخزينة الفرنسية بل من ربيع
أرض توابع الإمبراطورية — تمنح أيضا كافة الأسرات الحربية
لتحجب الإمبراطورية إليهم . أنا مصالح الجندى العادى فكان منظورا
إليها دون ذلك الاهتمام ، حتى أن أبطال ينا وفريدلاند دفعت لهم
من مؤخر رواتبهم نقود انحط أربعون فى المائة من قيمتها .

لقد كان تكوين طبقة أعيان جديدة ، ذات ثروة طائلة وعقار
ثابت ، خروج على مبدأ الثورة القاتل بالمساواة الاجتماعية ، أكبر
أهمية من نشان الليجيون دونور . ولكن نابليون دافع عن خطته
بقوله إن الألقاب لم يصحبها أى امتياز سياسى ، وأن أحدا لا يستطيع
أن يتهمه بالسعى لتكوين طبقة أعيان . والحقيقة أنه أراد أن يحوط

أسرته بدائرة من الأسرار ذات الجاه والثروة ، تحمي ضيعاتها
امتيازات قانونية ، فتصبح كلها معا كجزائر بارزة في وسط محيط المزارع
الصغيرة التي يمتلكها الفلاحون .

أسس نابليون أيضاً معهداً في الفترة التي نحن بصدد هذا جريا
وراء الغاية الأصلية ، وهي تقوية وحدة الإمبراطورية . ذلك المعهد
هو الجامعة الفرنسية . من الطبيعي أن تلاقى فكرة تكوين هيئة
واحدة ، تحوى كل فروع التعليم العام من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة ،
وتسير مسترشدة بمبادئ رئيسية معينة قائمة على سياسة صحيحة ،
استحساناً عند الذين يؤمنون بمبدأ عدم وضع حد لفهم الناس
واجب الحكومة . ثم كان نابليون لا يعتقد في الحياة البشرية التي
لا تستند إلى نظام ثابت ، ولذا كان معجباً بأعمال الهيئات الكاثوليكية
في غرس خلق الطاعة العمياء . كتب في ١٥ فبراير سنة ١٨٠٥ في ذلك
الصدد قال : « ولا يمكن الثبات على حال سياسية ، إذا لم تدعمها
مبادئ معينة يتبعها المعلمون . وطالما جهل الأطفال ما إذا كان واجبا
عليهم أن يكونوا جمهوريين أو ملكيين ، كاثوليكين أو ملحدين ،
فإن الحكومة تبقى عاجزة عن تكوين أمة » . لذلك قرر رأيه على تربية
نفس فرنسا على الصفات العسكرية الدينية ، التي تحترم الغير ، محتذياً
في ذلك حذو الأسبارطيين واليسوعيين . ولذلك أيضاً كان طراز

المدرسة الثانوية التي اختارها ، جامعا بين حياة الأديرة والمعسكرات، ومملوها من الغراب ، ونظامها عسكري، وديانتها ذلك التعليم الذي يمثل فيه الامبراطور كاهنة قوة الله وظله على الأرض . وكانت كل تلك المدارس الثانوية تابعة لمجلس الجامعة الفرنسية ، وهذه تابعة للحكومة ، بخلاف إنجلترا حيث تعتمد الجامعات القديمة والمدارس على هبات محبوسة ، ولا تجد ذلك التضيق المتعب الذي يترتب على مراقبة الحكومة، فحافظت بفضل حرية نظمها على تقاليد معتبرة محترمة . أما الجامعة الفرنسية التي أنشأها نابليون، فقد بقيت ثلاثة أجيال بعد سقوط الامبراطورية، ووجدت في أثنائها إليها الانتقادات التي تثيرها عادة كل المحاولة غرضها احتكار التعليم ؛ إذ المساواة العقلية التامة بين اربعين مليوناً من الأوربيين يستحيل تحقيقها، وهي مع ذلك غير مرغوب فيها . ولما كان نابليون لم يعمل شيئاً للمدارس الابتدائية ؛ فان سواد الأمة لم يتأثر بنظام الجامعة . ورغم كل ذلك أصبح أثراً خالداً ذلك القسم من أعمال نابليون الذي تناول النظم القديمة في فرنسا . هنا بنى نابليون على أساس الطبائع الفرنسية الموروثة ، وسار في الاتجاه الذي امتاز به تاريخ فرنسا ، وهو التنافس الأقاليم الفرنسية حول مركز واحد ، وخضع لذلك النبوغ المنظم الذي امتازت به الشعوب اللاتينية .

أما الأمبراطورية نفسها فكانت نسيجا أقل متانة ، لأنها مع تقويتها للعناصر الكامنة في الشعور القومي ، كما حصل في إيطاليا ، لم تخرج عن كونها نتيجة فجائية للحرب ، أو على حد عبارة نابليون « نتيجة الانتصار على إنجلترا » . ثم أن حدودها كانت دائماً في تغيير وتعديل ، كآن مصوّر أوربا منظار أشكال ، تقلبها يد عبثه كثيرة الأهواء . فمثلاً كانت هولندا أولاً جمهورية تابعة ، وثانياً ملكية تابعة ، وأخيراً صارت ولاية تابعة لفرنسا ، تسام الحسف منذ أظهر الملك لويس (١) فتوراً في تطبيق قوانين الحصار تماماً . لاغرو أن مثل ذلك القلب كان من شأنه أن يزعج عمال الأمبراطور في البلدان الأجنبية ، والحكومة الرشيدة تعتمد دائماً على التحقق من بقاء جزء على الأقل من أركانها وطبدا . لكن من أين يأتي ذلك التحقق وسياسة نابليون كالرمل المتقلب : فمن ذلك أنه قصد بدستور وستفاليا (٢) الذي كان أعظم الدساتير الألمانية ، أن يكون نموذجاً لأقاليم تلك البلاد ؛ وكان حقاً مفخرة شعوب هسي وبرنزيك وبروسيا ، الذين تكون

(١) لويس بونابرت ملك هولندا وأخو نابليون .

(٢) وستفاليا هي للملكة التي كونها نابليون من إمارة هسي — كاسل (Hesse-Cassel) . ويضى الولايات التي انتزعها من بروسيا غرب نهر الألب ، بمقتضى معاهدة تلت ، وولى عليها أخاه جيروم .

منهم سكان تلك الدولة غير المتجانسة . ولكن ما الضمانات التي تكفل ألا يكون نصيب دستور وستفاليا ، كنصيب الدستور الإيطالي ، الذي اتهم أمام أول عاصفة معارضة ؟ أو ألا يطلع التها على الوستفاليين ، وقد صدر مرسوم إمبراطوري ، باعتبارهم فرنسيين ، وقد محيت مملكتهم الدستورية من عالم الوجود ، واعتبرت عاصمتهم كاسل (Cassel) ثلاثة مدائن الأمبراطورية أو رابعها ؟

كثيراً ما كان نابليون يسمى دولته و اتحاداً دولياً ، ، فإذا اعتبرنا المعنى العلمى لتلك الكلمة ، وجب أن يكون هناك تقسيم للسيادة بين حكومة الاتحاد ، وبين حكومات الولايات ، أو الأقاليم المكون منها ذلك الاتحاد . وأذن تكون حكومة الاتحاد ذات سيادة في حدود أغراض معينة ، وتكون حكومات الأقاليم ذات سيادة في حدود اغراض معينة أخرى . وهناك أيضاً تخصيص في الواجبات وتوزيع في الحقوق ، وحدود معينة مضمونة ضد الاعتداء من أحد الجانبين : إذ أن روح الحكومة الاتحادية تقوم على أن هناك شعوباً تمتاز بصفات خاصة ، وتدين بتقاليد ومصالح معينة ، تتحد لمصلحة مشتركة ، وتتعاهد على مبادئ دقيقة قوامها التراضي المتبادل ، حتى يوفق بين المصالح الخاصة من جهة ، والمصلحة العامة من جهة أخرى . كما أنه ليس هناك مظهر يمتاز به أى اتحاد أكثر من التخصيص الدقيق في الأعباء المالية . كانت الأمبراطورية

النابليونية خلوا من كل شئ من ذلك : فلم يكن فيها مشاطرة في السيادة ، ولا تحديد للأعمال ، ولا تقسيم عادل في أعباء السلم والحرب . وبالاختصار لم يكن هناك دستور ؛ بل كانت الأمبراطورية كدوائر ثلاث ذات مركز واحد ، أولها فرنسا والولايات الملحقة بها ، وثانيها التوابيع الألمانية والأيطالية التي كونها نابليون ، وهي وستاليا وبرج ومملكة إيطاليا ؛ وثالثها الدول ذات الاستقلال الداخلي ، مثل بافاريا وقرنبرج ، التي كان عليها بمقتضى شروط اتحاد الرين أن تمد الجيش بفرق من عندها . لايلام نابليون — أكثر مما تلام الأمبراطورية البريطانية على النظام المفكك القائمة عليه حالا — من أجل عدم وجود وحدة تشريعية تربط تلك الممتلكات الواسعة . كلاهما مألوم إذا توخينا في المقارنة الحرف وتركنا المعنى . تفسير ذلك أن الأمبراطورية البريطانية تربطها المصلحة المشتركة والميول المتجانسة ؛ أما التماسك الذي كان يربط أختها الفرنسية ، فكان أكثر تفككا ، بقدر ما هو أكثر دقة في نظامه ، لارتكازه على إرادة مستبد ، وارتكائه على قوة جيش من جنديّة إجباريّة مختلفة الأجناس . كانت الوظائف الكبرى التي أوجدتها الأمبراطورية مفتوحة لأشخاص خارج طبقات الموظفين المدنيين في فرنسا من أهالي الأقاليم التي اندمجت في الأمبراطورية . فكان يفد على

باريس ، من البلجيك وهولندا وييدمنت وجنوا وتسكانيا وروما .
أعضاء لمجلس الشيوخ ، أو الغرفة التشريعية ، أو مجلس الدولة .
لم يغيب عن نابليون أن تلك الفرص ستساعد على إيجاد روح
إمبراطوري ، وستدرب رعاياه المجدد على قبول النظام الانشائي
الشامل المتبع في معالجة الأمور العامة ، والذي سار بمقتضاه الكفاءة
من أعضاء المجلس بفضل ما أظهره نابليون من خلق متين وفكر
ثاقب . ومن البدهي أن الشعب إذا ريض على صحافة حرة ،
وهيئة نيابية عاملة ، فليست الهيئات التنفيذية في نظر المثل الأعلى
في المضي في سبيل المصلحة العامة ؛ لأنها عادة تكون عرضة لأن
تضم إليها الطاعنين في السن ، ولأن تسير على نهج واحد ممل .
وضع نابليون مشروعاً لمحاربة ذلك النقص الكامن الناتج عن تعيين
أعضاء مجلس الدولة ، فأمر بأن يحضر مناقشات المجلس عدد من
الشبان ، ينتخبون من كل أجزاء الإمبراطورية من الأذكاء
المتحمسين الأغنياء . وعقد الآمال على تكوين الهيئة التنفيذية
الإمبراطورية في المستقبل من هؤلاء « المستمعين » ، كما سماهم .
يلاحظ بين الدولتين النابليونية والرومانية أوجه شبه ، أن لم تكن
دقيقه ، فهي أكبر ما وعاه التاريخ السياسي : فالحكم المطلق والمركزية
والجزرية و الفرق الجنود الأجنبية وامتلاء كل من العاصمتين الإمبراطوريتين

بأسلاب العالم المتعدين — تلك هي أوجه الشبه الظاهرة المعروفة .
ولا جدال في ذلك فقد كتب سويتونيوس^(١) عن يوليوس قيصر
قال : « إنه حل كل الجمعيات التي كانت مبنية على التقاليد القديمة » .
وروح الغيرة هذه التي أملت سياسة يوليوس قيصر ومن خلفه
من القياصرة نحو البلديات الحرة ، لهي ذات أثر ظاهر في قانون
الثورة الفرنسية وقانون نابليون - غير أن الولايات ، في عهد
الإمبراطورية الرومانية الأولى ، كانت تتمتع بنصيب من الحرية
الداخلية ، لم تتمتع به أى ولاية فرنسية أوقطر تابع للإمبراطورية
في عهد نابليون . ولا شك أن نظام الحكم الروماني أيام دقلديانوس
ومن جاءوا بعده ، لم يبلغ في الدقة وتوخى الاقتصاد والتأثير ما بلغه
النظام الذي أقامه نابليون . يرى المؤرخ من جهة أخرى بعض أوجه
الشبه بين نظام إقامة ولايات على الحدود الرومانية ونظام الولايات
الكاتالونية والألمانية والبولندية ، التي أقيمت في القرن التاسع عشر .
كما أن هناك تشابهاً غريباً من الوجهة الدينية ، رغم التقدم العظيم
في الحياة الدينية في العالم . ذلك أن تقديس روما وأغسطس قيصر
يمكن مقارنته بالتحاليم الإمبراطورية ، التي صاغها نابليون ، قاضية
برفع مركز الإمبراطورية وشخص الجالس على أريكته ، إلى مصاف .

(١) سويتونيوس (Suetonius) كاتب روماني لحصر الإمبراطرة دوميثيان وتراجان
لوهادريان ، ولهم كتبه « تاريخ حجة الاثنى عشر قيصراً الأول » .

الآلهة . وكما كانت الحكومات الرومانية تقدم القرابين الخاصة ، في معبد أورشليم ، احتراماً لديانة اليهود ، فإن نابليون اعتنق ديانة القرآن في مصر ، وأرجع الديانة الكاثوليكية إلى فرنسا . ولما رأى نفسه يوما في وسط مجمع من علماء الدين في هولندا ، أعلن أنه على وشك اعتناق المذهب البروتستنتي ، وأنه بذلك سيتبعه إلى معتقه الجديد ثلاثون أو أربعون مليوناً من الناس . فالسياسة الدينية في كلتا الإمبراطوريتين إذ كانت تمتاز قبل كل شيء بتسامح شامل نحو كل المعتقدات ، التي كانت لا تتضارب مع النظام الاجتماعي ، ولا تؤثر في الطاعة السياسية الواجبة للحكومة . لكن كان نظر نابليون في الأمور الدينية أبعد مدى من نظر القياصرة الوثنيين ، وأكثر تساهلاً من القياصرة المسيحيين . والسبب في ذلك أن العواطف الدينية الأوروبية أصبحت على جانب من الأهمية ، لا يمكن معها أن تحقر أو تهمل ، فضلاً عما بها من الاختلافات الجامدة في إقامة شعائرها ، مما لا يسمح بأي اضطهاد أو تفضيل مذهب على آخر . نهجت الإمبراطورية الفرنسية على ذلك سياسة التأسيس والتنظيم ، بلا تحيز لبريق دون الآخر ، فوضعت الأنظمة للأسرائيلي والبروتستنتي والكاثوليكي ، واعتبرت أعضاء هذه المذاهب مواطنين متساوين في نظر الإمبراطورية .

وعلمهم حل أعبائها على السواء . ثم لم يكن نابليون مبشراً دينياً مثل جوليان^(١) أو شارلمان ، بل كان عادياً مثل بونتيوس ييلات^(٢) ، وكانت الديانة في نظره مصلاً نافعاً ضد الاضطرابات الاجتماعية ؛ وكان غرضه الأصلي كسر شوكة الخلافات الدينية ، وتقليل حدة المناقشات اللاهوتية ، وإقامة حد يفصل بين الوظائف الدينية والدنيوية . أذّاهه التافه الذي رآه عند زيارته هولندا للمرة الأولى ، مخاطب طائفة الجانسنست^(٣) قال : « إذا كنتم ضد البابا، فضعوا صفوفكم إلى صفوف البروتستنت . أما إذا كنتم تعترفون بسلطته ، فواجب عليكم احترام قراراته ، ، . ولا شك أنه لم يكن في مقدور ثلّة من صفار العلماء

(١) جوليان (Julian) أحد قيصرة الدولة الرومانية ، ومدة حكمه من ٣١١ — ٣١٢ ميلادية . ولقب بالمرتد ، لأنه نشأ على الديانة للمسيحية ثم أعلن عند اعتلائه العرش خروجه عليها .

(٢) بونتيوس ييلات (Pontius Pilate) هو الوالي الروماني الخامس على (Judaea و Samaria) من ٢٦ — ٣٦ ميلادية . وكان معقداً شخصياً يربطه المسيح بما نسب إليه من ظلم ، وحلول إهوانه أثناء الحكم . لكنه أمر أخيراً بصلبه لأرضه أهل أورشليم . (٣) الجانسنست شعبة دينية تنتمي إلى كورنيليوس جانسن (Cornelius Jansen) قسبي ولد في هولندا سنة ١٥٨٥ ، تهرس الإليكت وصار أساقفاً في جامعة لوفان (Louvain) سنة ١٦٢٠ . ثم عين أسقفاً على أيبير (Ypres) سنة ١٦٢٦ ، وبقي هناك حتى مات بالطاعون سنة ١٦٢٨ . وله مؤلف يقع في أربعة أجزاء ، كان السبب في حركة جدلية واسعة في هولندا ؛ ذلك أن جانسن حاول في مؤلفه أن يبرهن أن تعاليم المسيح مخصوصة بالتبرك وحرية الإرادة والفضل والتفرغ خالصة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ولاسيما اليسوعيين . ولقد نبع منهج جانسن كبير من أهالي أترخت ، وأطلق عليهم اسم (Oude Romsche) أي للتمنحين بالكاثوليكية القديمة .

الهولنديين أن يقيدوا سلطة ممثل المسيح في الأرض . تلك الوظيفة
 الضرورية اختص بها وحده إمبراطور الفرنسيين ، الذي أصبح
 المصدر الأكبر للسلطة المدنية في الدول المسيحية اللاتينية .
 أحيث أيام معركة مارنوجو في عقول الفرنسيين ذكريات أيام
 شارلمان الذي كان يردد نابليون اسمه كثيراً في مراسلاته . وقد روى
 كثير من الإنجليز ، الذين زاروا باريس أثناء عقد صلح أميان ، أن
 الاعتقاد العام كان يميل إلى احتمال اتخاذ القنصل الأول لنفسه لقب
 إمبراطور الغالين . فأنما كان ذلك موضع حديث أهل باريس ومتجه
 شعورهم ، سهل علينا فهم التأثير الحقي الذي جعل من شارلمان —
 بطل الفرنكيين — مثلاً أعلى لنابليون . ولقد ظهر كثير من
 دلائل ذلك الشعور على الإمبراطورية الفرنسية : ذلك أن الحاكم
 الذي يسيطر على فرنسا وبلجيكا وألمانيا والجمعات الأسبانية المتاخمة
 لجبال البرانس ، ويفتح عهد إمبراطوريته باتفاق مع بابا روما ، ويولى
 نفسه ملكاً على المارديا ، ويضع تاجها الحديدي على رأسه ، ويعطى
 إقطاعات حرية لتوابعه ، ويجمع مجلساً دينياً ، ويعتبر نفسه الرئيس
 المدني للكنيسة الكاثوليكية في غرب أوروبا ، ويسير على رأس
 جيش جرار مختلف الأعجناس من جميع أنحاء إمبراطوريته ليهاجم

الامبراطورية المتبربرة الخارجة عن الدين التابعة لقيصر روسيا^(١) ،
 أليس ذلك الحاكم شارلمان الجديد ؟ اقترح المؤرخون لنابليون أشباها
 أخرى اقتبسوها من تاريخ القرون الوسطى ، فاعتبره تين^(٢) مثل
 الكوند وتيرى^(٣) الايطاليين . وقال ماسون^(٤) ، الذى ينهب في
 الإعجاب بنابليون فوق كل حد ، إن اليسوعيين والرهبان ، الذين
 نصروا البابوية في القرون الوسطى ، كانوا سلالة بونابرتين طردوا ، كما
 طرد دانتى^(٥) من فلورنسا ، ليوهم الجبلية^(٦) .

(١) يقصد المؤلف هنا التهم على نابليون لمخاربه روسيا واعتقاده بإمكان هزيمتها ، كما سيعين
 في مكانه بالتفصيل في الفصل التاسع .

(٢) هنري تين (Henri Taine) كاتب فرنسي نقاده . ولد سنة ١٨٢٨ ، وله مؤلفات
 عدة في الادب والتاريخ ، وأهمها ما كتب عن الثورة الفرنسية .

(٣) الكوندوتيرى (Condottiere) كلمة إيطالية ، معناها زعماء المرتزقة في إيطاليا
 في القرون الوسطى ، كانوا يقومون بالخدمات الحربية لمن يدفع لهم أجراً مناسباً .

(٤) داوود ماسون (David Masson) كاتب مسكتندى ، ولد سنة ١٨٢٧ ومات
 في آخر القرن .

(٥) دانتى (Dante) غر الجنس الايطالي . ولد سنة ١٢٦٥ ميلادى في فلورنسا ، واشترك
 في الحروب التي قادت بين أحزاب الجبلين والجولف في إيطاليا سنة ١٢٨١ . ثم حول اهتمامه
 نحو السياسة وخدم الحزب الجبلين . ثم نفي عن إيطاليا سنة ١٣٠٢ ، وبقى ينتقل بين البلاد
 عشرين سنة ، ومات سنة ١٣٢١ .

ودانتى أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة ، وأول من كتب بالطليانية الحديثة لاباللاتينية ،
 فكان بذلك من مؤسسى اللغة الطليانية الحديثة . وأشهر ما كتبه كتاب « الكويندا الالهية »
 وموضوعه عبارة عن زيارة خيالية للجنة والجحيم وما بينهما ، حدث في أثنائها لكان تلك الاطليم
 من رجال الادب والعلم القدماء . وذكر كثيراً من شعراء الرومان والاعتريق الوثنيين بالاعجاب .
 وإن لم نسمح له أفكاره الدينية بأن يكون منواعم اللجنة . وغرض كتابه الفكاك عن نظرية الامبراطورية
 (٦) كان الجبلينون في إيطاليا في القرون الوسطى حزبا يؤيد الامبراطورية . أما الجولف
 فكانوا حزبا يؤيد سلطة الباباوات .

لم تكن إمبراطورية نابليون رومانية ، ولا كإمبراطوريات
القرون الوسطى ، بل كانت حديثة جداً من وجهة واحدة ، وهي
أن نابليون كان بارعاً في الاقتصاد ، فلا ولنجتز ولا بت ، ولا
جلادستون ، أمكنهم أن يبلغوا مبلغه في تلك الميزة القائمة على التوفير
الشديد المستمر بلا رحمة ، وهم — كما نعلم — أحرص ما يكون
على الوقت والمال . لقد كان نابليون مقتصدًا في ملبسه ، معتدلاً في
مأكله ومشربه ، بخيلاً بوقته ، محتقراً لأنواع السرّات ، مدققاً بكل
ما أوتى من حرص على كل فرنك يصرف في المسائل العامة . ويخيل
إلينا أن التاريخ لا يذكر حكومة عظيمة ، غير إمبراطورية نابليون ،
كانت سياستها تعتمد قطع كل المصروفات الحكالية ، ومحاسبة الموظفين
باستمرار على كل صغير ، حتى تعذر على أى هيئة بلدية أن تقوم بأى
تجربة من تلقاء نفسها لاستثمار مواردها . والدليل على صحة الحقيقة
الآخيرة ، ما كتب نابليون عقب انقلاب برومير مباشرة ، يرسم
لأخيه لويسيان ، الذى كان إذ ذاك وزير الداخلية ، ما يجب اتباعه في
إدارة البلديات في فرنسا . وقد ضرب نابليون في تلك المذكرة ،
المعتبرة من أعظم الأوراق الرسمية الخاصة بذلك العصر ، على النعمة
التي لعبها هو باستمرار في سياسته الداخلية : إذ وصف البلديات
الفرنسية ، البالغة ستاً وثلاثين ألفاً ، بأنها وريثة النظام الإقطاعى في

القرون الوسطى ، حررتها الثورة الفرنسية من نير النبلاء والقساوسة ، وأصبحت بذلك ذات شخصية شرعية . ثم ذكر ما حل بها على يد رجال حكومة الأثارة ، الذين ألقوها وسلبوها ، حتى صارت مثقلة بالديون غير قادرة على التصرف بحكمة في حرياتها ومواردها الجديدة . وختم مذكرته بأن المسألة المهمة في حكومة فرنسا الداخلية ، هي السير بتلك الهيئات الواهنة السقيمة إلى حالة مالية ثابتة ، ورسم الطريق المؤدية إلى تحقيق ذلك ، ويّين الخطوات التي يجب اتباعها بالتالى : الخطوة الأولى أن تعمل قائمة بالستة والثلاثين ألف بلدية ، تقسم إلى تسعة أنواع ، حتى إذا ما أحصيت البلديات المستدينة ، وعرفت مقادير ديونها ، وجهت الحكومة كل مجهودها إلى انقاذها . الخطوة الثانية أن يزور حاكم المقاطعة البلديات الداخلة ضمن دائرة نفوذه مرتين في السنة ليتفقد أحوالها ، وأن يقوم وكيله بتشل ذلك أربع مرات في السنة وإلا فصل من وظيفته . أما العمدة الذى لا يتعاون مع الحاكم فى العمل فيفصل فى الحال ، والذى يمتاز عن أقرانه فى خطة الاقتصاد يكافأ بزيارة باريس ، ويحظى بمقابلة القناصل^(١) ، ويقام له عمود تذكارى فى القرية أو المدينة التى نجح فى رفع الديون عنها . بذلك نال نابليون غرضه ، وأقام نظاماً اقتصادياً

(١) يراعى أن نابليون طبق ذلك النظام بعد أن أصبح قصلاً مباشرة ، لئى أن النظام نفسه كان قائماً منذ أيام القسطنطينية .

دقيقاً طبقه بلا فارق على كل قرية ومدينة في فرنسا بواسطة وزارة الداخلية ، ونجح به في تخفيف ديون البلديات تخفيفاً محسوساً . إلا أننا كلما ذكرنا تلك الأعمال المالية والانتصارات الحربية ، التي قامت بها الإمبراطورية ، التي عملت من أجلها كل تلك المجهودات ، وجب أن نذكر أيضاً أن للعجن ظهراً ؛ وأنها إذا أُتيح لنا زيارة أى مدينة من أمهات مدن فرنسا بين ١٨٠٨ و ١٨١٥ ، لوجدنا المعلمين ورجال الدين يعيشون عيشة ضيق بمرتبات ضئيلة جداً ، ولرأينا المدارس خالية من التلاميذ ، والمستشفيات العمومية مفقرة إلى الممرضات والأدوات الطبية ، ولشاهدنا الصناعات كاسدة ، والحكومة تاركة الحبل على الغارب ، وقد فقدت كل عناية بالأصلاح . إذ ليس من العقل ولا من الحكمة في المسائل المالية ، أن يسن قانوناً غير قابل للتغيير ، يفرض بمصاريف الحكومة في بلد من البلاد خمسة عشر سنتماً على كل ساكن . لا يمكننا الخوض في هذا الموضوع إلى أكثر من أن نقول أن المالية ، ككل الأعمال البشرية الأخرى ، تخسر كثيراً إذا طبقت عليها القواعد الآلية . إلا أن مثل تلك القواعد تشاهد دائماً في كل الأنظمة التي ترمى إلى ضرورة الاقتصاد في الأعمال في إمبراطورية مركزية عظيمة . ولما كان من المحتم أن تعتبر مثل تلك الحكومة الأفراد كالأرقام ، فلا غرابة أن تعتقد أن الحياة نفسها ليست إلا مسألة حسابية .

الفصل الثامن

الصرمة الاولى

تسبب عن محاولة نابليون تعميم الحصار القارى ، أن اصطدم بأكبر قوتين فى المدينة الأوربية ، ألا وهما الكنيسة الكاثوليكية والروح القومى . ذلك أنه كان من زمن بعيد يعتقد أن وجود الدولة البابوية مدعاة للخلل فى المسائل الأوربية ، على رغم اعتقاد الكاثوليك أن وجودها ضرورى ، لضمان استقلال البابا فى المسائل الدينية . أغضى نابليون عن ذلك الخلل أثناء الاتفاقات السياسية التى عملت سنة ١٧٩٧ ، وظل البابا الحاكم السياسى على إمارة ممتدة فى عرض إيطاليا من ترانشينا (Terracina) إلى ريمينى (Rimini) (١) ، بعد أن قبل الاتفاقية ، وأتى إلى باريس لتبريك حفلة التوقيع الإمبراطورى . لقد كان خليقا بأى سياسى رصين حازم أن يصبر على تلك الحالة مهما يعرض فى سبيله من المتاعب السياسية ، لأن قوة البابا لم تأت من الحكومة الضعيفة القائمة فى إمارته الصغيرة الفقيرة

(١) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا .

في إيطاليا، بل من مقدرته على إثارة ضمائر الكاثوليك في أورب
 قاطبة. غير أن نابليون لم يكن رصينا ولا حازماً بعد أسترلتز، فـ
 شعر بأنه يلعب دور شارلمان حتى أعلن أنه حاكم روما، وأن البابا تابع
 من توابع إمبراطوريته، معتقداً أن من السهل ومن السياسة صدع
 أمانة فقيرة في الموارد المادية، بارعة في الخاتلة. ثم وجد نابليون من
 امتناع البابا بيوس السابع عن الاشتراك في حرب هجومية ضد إنجلترا
 ذريعة كافية لاثهام إمارته. إلا أن إدماج روما رسمياً في نظام
 الإمبراطورية الفرنسية — الذي أرجىء إلى مايو سنة ١٨٠٩ — كان
 سبباً في نشر البابا مرسوماً بحرمان سالب الكنيسة من رحمتها.
 فأجاب نابليون على ذلك بفعلته وحشية شنيعة، حرض على تنفيذها.
 ثم أنكر اشتراكه فيها، ثم مالبت أن دافع عن ارتكابها: تلك الفعله
 هي القبض تحت جناح الليل في قصر كويرينال (Quirinal) في روما
 على الشيخ الوقور الذي اجتراً على مخالفة الإمبراطور الفرنسي،
 وإرساله بسرعة مخفوراً بالجنود إلى سجن في بلدة ساقونا قرب جنوا.
 من المهم هنا ذكر أن فكرة نابليون عن إمارة البابا كانت على
 طرفي نقيض مع الآراء والعقائد التي لقيت عطف الناس بعد سقوطه.
 ذلك أنه اعتبرها ولاية من ولايات الإمبراطورية، يمكن حكمها بلا
 قلق ولا تعب من باريس، وأن البابوية نفسها لا تزيد على أنها أكبر

أسقية ، وأن من السخف أن يكون معظم أعضاء جمعية الكرادلة من الإيطاليين ، حتى أنه اقترح أن يكون لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ثم أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ، ودفع مرتب البابا ، وتأييد الأعمال الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسي . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوي إلى باريس ، ودار على الألسنة احتمال تأسيس بطريركية ألمانية مستقلة عن روما . وفي الحقيقة لو طال أجل الأمبراطورية عشر سنوات أخرى ، لكان من المحتمل اضطراب العنصر الكاثوليكية في أمريكا إلى قطع علاقاتها مع كنيسة غيرت معالمها ، وامتنت إلى ذلك الحد .

وبينما كان النزاع بالغاً أشده ، وبينما كان كل قس كاثوليكي يصب جام لعناته على رأس نابليون ، بدأ هذا يستولى على أكبر الأهم كشكة . ذلك أنه رأى ، لضرورة تعميم الحصار القارى ، أن يطبق النظام الفرنسى على شبه جزيرة أيبيريا ، ولا سيما مملكة البرتغال . فلم يكذب الصلح مع الروسيا ، حتى بدأ يهيئ الأسباب للسيطرة على بلاط لشبونة . ثم أردف بذلك المشروع مشروعا ، أكبر قدرا وأكثر خطرا ، نجو مملكة إسبانيا وحكومتها الفاسدة الممقوتة ، التى استكانت إلى أبعد مدى فى خدمة مصالح نابليون ، وأمدته بمعونات مالية وسفن

حرية ، وأعلنت الحرب على إنجلترا طوع أمره ، وشاهدت تخريب أسطولها عند الطرف الأغر ، من أجل حرب لم يكن لها فيها مصلحة حيوية . ولكن أثناء الحرب مع بروسيا ، ساد الاعتقاد في مدريد أن نابليون على باب هزيمة منكرة ، فعزم جودوا (Godoy) محبوب الملكة ماريا لويزا ، والحاكم الحقيقي في المملكة الأسبانية ، أن يهب فجأة لتخليص الدولة من قبضة نابليون . ولتنفيذ ذلك صدرت الأوامر بتعبئة الجيش الأسباني ، لكن سرعان ما ألغيت تلك الأوامر عند وصول أبناء ينا . كان في تلك الحادثة كفاية لتذكير نابليون بعدم استمرار سلام ثابت بينه وبين ملك الأسبان ، ولدفعه إلى سياسة زينة عقله في سنة ١٨٠٥ ، تلخص في توجيه ضربة حاسمة إلى تلك الأسرة البوربونية العتيقة ، التي استراحت منها فرنسا وبارما ونابلي .

برهن نابليون أنه وما كيافللي (Machiavelli) ابناوطن واحد بعزمه على القضاء على الملكية الأسبانية . ذلك أن التاريخ لا يذكر مؤامرة دبّرت بترو وبراعة أكثر مما دبّرت به تلك المؤامرة ، التي قصد بها حيرة وإرباك أمة تكره أي انقلاب عنيف ، مع نزع سلاحها ، وإلقاء الرعب في قلوب أبنائها . وقد كانت أول خطوة خطاها نابليون أن طلب من حكومة نادمة فزعة ، فرقة حرية مكونة من خمسة عشر ألفا من صفوة الجنود ، للخدمة على الحدود الدنماركية . فلما

الحبيب إلى طلبه ؛ وارسلت الجنود إلى سهل ولاية ههشتين (Holstein)
 التابعة للدنمارك ، عقد اتفاقا سريا عند فونتينبلو (Fontainebleau)
 بحرب باريس ، في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧ ، مع إسبانيا لغزو
 وتقسيم البرتغال . والاهمية الحقيقية لتلك الاتفاقية ، أنها مكنت
 نابليون من إرسال جنود فرنسية إلى إسبانيا . أما ما كان من أمر
 البرتغال ، فقد قبل القائم بالأمر ، تحت ضغط نابليون ، قتل المواتي
 البرتغالية في وجه التجارة الانجليزية ؛ فلو كان الحصار القاري هو الغرض
 الوحيد في رأس نابليون ، لكفى ذلك القبول لحماية البرتغال من أي
 هجوم . إلا أن نابليون كان يري جوهرها يجب فيها ، ووجد في امتناع القائم
 بالأمر عن مصادرة المتاجر الانجليزية جملة ذريعة كافية لغرضه (١) .
 ثم رسمت الخطة لغزو البرتغال بجيش مكون من قوات فرنسية
 وإسبانية ، حتى إذا ما استولى عليها الجيشان كوفىء جودوا بأمانة في
 جنوب البرتغال . ولا يفوتنا هنا أن جودوا كان في أشد حالات الرعب ،
 منذ فضح حادثة المنشور العدائي الذي أذاعه في وقت غير مناسب .

(١) كان القائم بالأمر هو الأمير بوحنا ، وذلك بسبب احتلال القوى القليلة عند أملاكه ماريا
 الأولى . وكان على اتصال بالحكومة الانجليزية ، وقبل إعلان الحرب على انجلترا وإقالة المواتي .
 البرتغالية في وجه المتاجر الانجليزية بعم الوزارة في لندن . إلا أنه رفض مصادرة البضائع الانجليزية
 جملة ، فكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين نابليون .

ولنا كان مستعداً لعمل أى شيء لمصلحة نابليون . لو كان ذكاء ذلك الرجل مساوياً لجشعه ، لفكر أن ليس من طرق الأمبراطور أن يكافئ الشرب الخير ، وأن مكافأة الصديق الخائن بأمر برتغالية أمل ضائع . ولقد قدر نابليون قيمة ذلك الأسباني لما قال : « أن ناظر السراى هذا ممقوت من كل الأمة ، وسأستعين بجنبه على فتح أبواب إسبانيا » .

في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عبر جيش جونو المراتب في مقاطعة الجيروند ، والبالغ عدده خمسا وعشرين ألفاً ، الحدود الفرنسية الأسبانية عند نهر الينداسو (Bidassoa) في طريقه إلى لشبونة . وكان المتفق عليه أن يعاونه عدد مساو من القوات الأسبانية تتقدم من ثلاث جهات . وضع نابليون ذلك الاتفاق لئلا يخلأ إسبانيا من الجيوش في وقت من مصلحته أن تكون المملكة خالية من وسائل الدفاع الكافية . وكانت الخطة أنه بينما يستحوذ جونو على الأسطول والأسرة المالكة والخزينة في لشبونة ، تسير جنود فرنسية إلى أسبانيا بمحجة معاونته الحملة المزدوجة ، وعندئذ يمكن إرهاب شارل الرابع ملك إسبانيا الضعيف إلى حد التنازل عن عرشه أو الهروب ، ويصبح من السهل القضاء على جودوا ، الذي تمقته الأمة ، والاستيلاء على المملكة بين استحسان الأهالي أو بموافقتهم على الأقل .

وصل جونولشبون في ٣٠ نوفمبر ، بعد زحف لقي في أثنائه صعوبات جمة ، فوجد أن الأسرة المالكة أبحرت على سفينة من سفن الأسطول الاتجايزي ، وأن الخزينة والأسطول البرتغاليين قد أفلتا من يده . ومع ذلك كانت القرائن تدل حتى تلك الآونة على أن مشروع نابليون قد نجح : فالبرتغال قد 'فتحت' ، والحدود الأسبانية قد عبرت بواسطة خمسة جيوش فرنسية ، تحت ستار الاشتراك في الحملة البرتغالية لمساعدة حلفائهم الأسبان أسما ، ولتمهيد الطريق لاحتلال إسبانيا فعلا . وإذا خالج أي إسباني شك في حقيقة مقصد الأمبراطور ، فإن كل الريب زالت في فبراير ومارس سنة ١٨٠٨ ، حينما استولى الفرنسيون على المعاقل الأسبانية المهمة ، وهي باميلونا (Pampeluna) وبرشلونة وسان سباستيان وفيجوراس (Figueras)؛ وأيضا حينما علم الأهالي أن مورا ، أحسن قواد الحيلة عند نابليون ، يزحف على مدريد بصفته رسول الأمبراطور .

عند ذلك جاء الظرف الذي كان يتحينه نابليون ، وهو أن شارل الرابع والملكة مارياتريزا وجودوا هاهم التقم الفرنسي ، فزموا على القرار ، وقرروا الرحيل إلى أشيلية ومنها إلى أمريكا ، للنجاة من حراسة الأمبراطور ، وغضب الأمة الخطير ، لازدياد مقتها القديم لحكمهم ولشعورها بنجاة أنهم خائنون . ألا أن الهاربين أوقفوا عند

آرانجوز (Aranjuez) ، وهناك قامت ثورة كانت تندر بأجباط كل مشروع نابليون ، لأن الثوار أجبروا الملك على التنازل عن عرشه لابنه فرديناند أمير أستورياس (Asturias) .

كان ملك أسبانيا الجديد محبوبا من أمته ، لا لفضيلة اتصف بها ، فإنه كان خلوا من الذكاء والجمال والأخلاق ، بل لأنه كان في نظر الأمة عدواً لبلاط جلب العار لبلاده . كان إذن هيناً على فرديناند وهو ينعم بتلك المحبة العظيمة بين مواطنيه ، أن يلم شعث الأمة الأسبانية ضد الغزاة . ولكن من حسن حظ نابليون كان فرديناند جباناً . فبدلاً من أن يعلن الحرب ألحف في طلب الصلح ، وبدلاً من أن يتراجع إلى مقاطعة أندلوسيا ، لجمع أشتات الجيش الأسباني ، ذهب إلى مدريد ، حيث عسكرت فرقة فرنسية تحت قيادة مورا . وهناك كتب خطاب تذلل لنابليون . رفض مورا ، الذي كان يعرف الجبان بمجرد رؤيته ، أن يعترف بلقب فرديناند ، فجزع الملك وخيّل له أن عرشه على شفا جرف ، وقيل أن يذهب إلى بلدة بايون في جنوب فرنسا لمقابلة الإمبراطور ، على اعتقاد أن مقابلة شخصية مع نابليون لازمة للاعتراف به ملكاً على إسبانيا . فما وصل إليها حتى علم أن نابليون قرر وجوب انتهاء حكم آل بوربون .

قال نابليون في سياق خديشه مع فرديناند : « وإن بلدا كبلادكم

مملوءة بالرهبان يسهل إخضاعها . لا يخلو الأمر طبعاً من بعض مظاهرات ، لكن الأسبانيين سيهدون إذا علموا أنني أكفل لهم بناء حدود بلادهم على ما هي عليه ، ودستورا فضفاضاً مع المحافظة على عوائدهم الدينية والقومية ،، .

ولما ظهر أن فرديناند لم يرض بتلك الشروط، أصبح من الضروري مواجهته بأبيه وأمه . وكان بيد نابليون إقرار من شارل الرابع بأنه أرغم على التنازل عن العرش لابنه ؛ ولما كان الرجل لا يريد سوى أن يكون خلوا من الهموم والمتاعب ، رأى أن يحمل هو وولده على التنازل عن العرش ، ثم يوقع هو على تنازل آخر . وهكذا مثلت رواية هزلية إسبانية أمام نابليون في ٢ مايو ، كان المشلون فيها أميراً حديث السن عبوساً ، وأباً غاضباً مسناً مصاباً بالروماتزم ، وأما سفينة ذات لسان بنديء وخلق ذميم . وتفصيل ما حصل أن الملك السن أمر ابنه بالتنازل ، فقبل أمره بالرفض البات ، إلا أن كنانة نابليون كان فيها سهم أسد من أسر الألب : إذ وصلته أنباء بمحدث ثورة خطيرة ضد الفرنسيين في مدريد ، فاتهم الأمير الشاب بالتآمر وأخبره بأنه إن لم يتنازل عن العرش من ليلته ، فإنه سيعامل معاملة الخائن الباصي . فكتب فرديناند تنازلاً مخافة أن يصيبه ما أصاب الدوق دأنجيان . ولما كان والده قد وقع على معاهدة بينه وبين نابليون في

اليوم السابق، تنازل فيها عن كل حقوقه في عرش إسبانيا للإمبراطور،
فإن الرواية المضحكة المبكية التي مثلت في بايون ختمت على ما يرام.
ثم قبل يوسف بونابرت عرش إسبانيا بعد أن رفضه لويسن ، ولما
خير مورابين البرتغال ونابلي ، دله بعد نظره على أن يختار الحكم
في إيطاليا .

اعترف نابليون فيما بعد أن السبب في خراب ملكه هو ما سماه
بالقرحة الإسبانية . ولا غرابة في ذلك ، فإنه أراد إخضاع بلاداً لم
يصادف مثلها في كل حياة المتنوعة الحوادث : فأيطاليا والنمسا وألمانيا
لم تكن سوى اصطلاحات جغرافية ، مكونة من دول متعددة
لا تسود فيها عاطفة مشتركة ، خاضعة لحكومات لم يكن لها في قلوب
الناس أصل ولا قبول . أما إسبانيا فكانت أمة واحدة منفصلة عن
الدول الأخرى انفصالاً تاماً ، حتى أصبحت لا تتأثر بالحوادث التي
تمحركها الأفكار وتغيرها. الدليل على ذلك أن ريح الثورة الفرنسية لم تهب
على ما وراء جبال البرانس ، ولم تصادف الحريات الدستورية وحقوق
الإنسان والتسامح الديني ، وغيرها من العبارات التي حققتها الثورة
الفرنسية ، هوى في فؤاد الأسباني الذي كان يرى في نابليون عدو
دينه ، وخاطف ملكه وغازي بلاده . وسرعان ما انتشرت في أنحاء
إسبانيا حركة فجائية كانت درسا لكل أوروبا ؛ ولما سلمت الفرقة الفرنسية

بقيادة ديون (Dupont) ، في ٢٣ يونيه ، لجيش أسباني عند بابلين (Baylen) ، أدرك نابليون خطأه في تقدير صعوبات مشروعه ، وعلم أن إسبانيا لا تُفرر بدستور جبر على ورق ، ولا يمكن السيطرة عليها بجيش مفكك العرى ، مكون من مجندين حديثين لم يدربوا بعد على أصول القتال .

كانت الثورة الأسبانية الحلقة الأولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية ، التي قضت في آخر الأمر على الامبراطورية النابليونية القضاء الأخير . في تلك الثورة كانت الصعوبات الهائلة الناتجة من طبيعة أرض إسبانيا : كجذب الهضبة الوسطى ، وتقاطع كل السلاسل الجبلية مع طريق الزحف من بايون إلى قادس ، وقلة الطرق ورداءتها ، ونظام الأنهار الذي كان عقبة لاعونا في المواصلات — كل تلك الصعوبات — جعلت إسبانيا صالحة جداً للحرب الكروالفر . وازداد سوء حظ نابليون في ذلك النضال ، الذي أثاره دون أن يحسب للعواقب حساباً ، إذ مهدت حرب شبه الجزيرة ميدانا لجيش إنجلترا البري يلى فيه أحسن البلاء . ذلك أن وزارة الدوق بورتلاند في لندن قررت ، بدلا من صرف قوة إنجلترا الحربية في حروب لا طائل تحتها

في جزائر السكر (١) الموبوءة بالحميات ، أن يشترك الجيش البريطاني في النضال القومي في إسبانيا والبرتغال . كان لذلك القرار شأن عظيم في مصير تلك الحرب : لأنه ينماتج عن وجود جيش القائد الانجليزي ولزلى (Wellesley) شد أزر المقاومة الباسلة ، التي قام بها الأسبان على سوء نظامهم ، كان اشتباك الأسبان مع الفرنسيين ، في جهات مبعثرة ، عوناً كبيراً للحركات الحربية البريطانية . ولقد كان خليقاً بنابليون أن يعتبر من الضربة الأولى عند فيميرو (Vimiero) ، في ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٨ ، حين بددت الجيوش الانجليزية القليلة العدد بقيادة ولزلى جيش جونو ، وطهرت البرتغال من الفرنسيين . رفض نابليون أن يعتبر ، وظل طول مدة الحرب يستخف بصعوبات أرض إسبانيا ، ويصدر إلى قواده أوامر تنفيذها من اربع المستحيلات . وربما قوى ثقته بحسن المستقبل تلك النتائج الباهرة ، التي انقضت بها الحرب القصيرة في شتاء ١٨٠٨ المتداخلة في ١٨٠٩ ، لما زحف بنفسه على رأس جيش عظيم مكون من ٢٠٠.٠٠٠ مقاتل ، وقضى على مقاومة الأسبانيين في الشمال ، وأعاد أخاه يوسف ملكاً في مدريد ، ثم طارد السير جون مور (Sir John Moore) القائد الانجليزي على سهل ليون إلى سفح تلال غاليسيا . غير أنه لم يكن نعمة دافع للتفاوض

(١) جزائر السكر هي مجموعة في جزائر الهند الغربية .

من وراء ذلك . ولو أن نابليون اتعظ من منذرات بايلن وشميرو ،
وحصر أعماله الحربية في الأقاليم الواقعة شمال نهر الألب ، لكان
حكيماً . لكن الذى حصل هو أن تقدمه الجرىء اضطره لمواصلة
حرب استنفدت زهرة جيوشه ، وأضعفت قبضته الحربية على
بروسيا ، وشجعت كل أعدائه في أوروبا .

ليس من شئ يبين خلق نابليون أكثر من أنه فتح باب
المفاوضة مع روسيا للمرة الثانية ، والم شروع الأسباني محتمر في رأسه ،
لاقتسام تركيا ، ولتسيير حملة مزدوجة عن طريق نهر الفرات لمهاجمة
الممتلكات الهندية التابعة لـ إنجلترا . رأى نابليون إسبانيا بساحلها
الطويل وموانئها الكثيرة مصدر قوة بحرية بعد إيطاليا في القيمة ،
فالاستيلاء عليها ، كالإستيلاء على إيطاليا ، يساعد على كسر شوكة
إنجلترا ، على اعتبار أن قانس مفتاح كلكتا . غير أن الثورة الأسبانية
غيرت وجه الأشياء وعكست دورة السياسة ، فزال مشروع اقتسام
تركيا ، الذى راوغ به روسيا والنمسا ، وزال معه المشروع الهندى ،
من صفحة السياسة العملية ، وحل محلها غرض نابليون الأسمى ، وهو
تجديد تحالف تلتقى النمسا ساكنة ، حتى يمكنه أن يصفى حسابه
مع أهل إسبانيا المذبذبين . لذلك دُعِيَ القيصر إلى مؤتمر في ألمانيا ،
عقد خصيصاً لـ إظهار نابليون في دوره الجديد ، كحبيب الأمراء
الألمان وحاميهم . وذهب إسكندر إلى إرفرت (Erfurt) ، في

٢٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨ . غير أن نجمه الشديد نحو نابليون أضحي تشوبه بعض الريبة . ومع ذلك وقع على اتفاق سرى وعده فيه بالمساعدة في حالة ما إذا بدأت النمسا بامتناسق الحسام . بذلك سُدَّت منافذ الخلاف بينهما مؤقتاً ؛ ولكن لم يخف على أى بصير أن حالة أوروبا تغيرت عن أيام تلتست ؛ وأن التحالف الفرنسى الروسى أخذت تبلى جدته ، وأنه بينما واجهت نابليون صعوبات جديدة ، ازدادت قوة القيصر بالاستيلاء على فنلندة وإمارتى الأفلاخ والبغدان على مصبات الدانوب .

كان لفشل نابليون في إسبانيا نتيجة حتمية ، وهى فتح باب النزاع القديم مع النمسا من جديد : ذلك أن موقف فرنسيس إمبراطور النمسا لم يقتصر على الدهشة لخلع آل بربون فى إسبانيا ، لأن بين الروس التوجه رابطة ملكية ، كأنها نقابة يتأثر أعضاؤها بمصائب الملوك إخوانهم . هنا ، ومن يدرى إذا كان خلع الملوك ، الذى نجح فى تيورين وبرنزويك وكاسل وفلورنس ونابلى وبايون ، لا يطبق بنجاح لا آخر مرة فى فينا ؟ وقد ظهر فى المسألة الإسبانية ، أن أطماع نابليون لا يوقها ضعف فريسته ، أو استعدادها لأجابة ما يريد . ثم إذا كان الإمبراطور لم يردد فى خلع حليفه فى الحرب ، فلا مجال إذاً للظن أن يفلت المحاييد من يده . وبالاختصار قد بدأ روح جديد يسرى

في النمسا، ظهرت بوادره في تكوين قوات حرية أهلية، وضاعفت تكوينه أثناء الثورة الأسبانية . وفي ديسمبر سنة ١٨٠٨ قر الرأي على انتهاز اشتغال نابليون بالحرب في إسبانيا للاستعداد من أجل إعلان الحرب في الربيع التالي . كان أقطاب تلك السياسة ثلاثة وهم الأرشيدوق شارل ، والكونت ستاديون (Count Stadion) رئيس الوزارة ، وسفير حديث السن عرف نابليون في باريس، وقُدِّر له أن يلعب دوراً كبيراً في القضاء عليه : ذلك الشاب هومترنيخ (Metternich) ، الذي صار اسمه رمزاً للقوة الرجعية أكثر من جيل من الزمان ، مع أن السفينة السياسية التي ركب متنها انزلت لأول مرة في وقت المد الذي أحدثته الحركات القومية في بحر السياسة .

في تلك السنة بلغ نابليون التاسعة والثلاثين من عمره . نعم إنه أضحى بدينا ، إلا أن صحته كانت جيدة ، ولم يعثر نشاطه وتحمله للمصاعب شيء . يبرهن ذلك أنه عبر أثناء تعقبه السير جون مورجبال الجواداراما (Guadarrama) ، على رأس جيشه سيراً على القدم ، في وسط عاصفة ثلجية أعمت الأبصار ، وقطع ٢١٤ ميلا في اثني عشر يوما في جو ديسمبر، متجشما الجليد والثلج ، وعاد من فلادوليد (بلد الوليد) الى باريس في أقل من ستة أيام ، فكان في تلك المرة لا يقل في المهارة عن المرات الكثيرة التي قام فيها بأسفار كلها عبات بسرعة الطير . ثم أن ثقته بالمستقبل كانت عالية كملوها أيام الحملة المصرية . وكان جيشه

يبلغ ٨٠٠.٠٠٠ مقاتل حسب الأحصاءات الرسمية . وبالرغم من اضطراب ٣٠٠.٠٠٠ للبقاء في إسبانيا ، فإن عوامل ثلاثة جعلته يشعر أن ليس ثمة ما يخيفه من النمساويين ، وهي ووجنوده الألبانيون ، واسمه الرنان ، وأحذيته الطويلة ، ، وهذه الأخيرة على الخصوص هي التي أمنت .

يرجع السبب في عدم تحول حرب سنة ١٨٠٩ إلى حرب عامة لتحرير ألمانيا إلى السرعة المدهشة التي انقض بها نابليون على النمساويين في الوادي الأوسط للدانوب ، والتي طاردهم بها إلى فيينا قبل أن تشتعل نار الثورة في الشمال . ذلك أنه رأى بثاقب نظره ، وبقدرته على توجيه كل الهمة إلى جلائل الأمور ، أن العمود الفقري للمقاومة في وسط أوروبا هو الجيش النمساوي ، فأنا كسر ذلك الجيش بحيث لا تقوم له قائمة بعدها ، شلت الوطنية الألمانية والتيروية . إلا أن الحرب كادت في أول أمرها تعود بالخسران ، من جراء خطط برتييه (Berthier) ، الذي كان ماهراً كأي كان حرب لا كقائد . ذلك أن نابليون أمر بتجميع كل فرق الجيش حول راتزبون (Ratisbon) ، وأضاف تعليمات تقضي بأنه في حالة عبور النمساويين نهر الأن (Inn) قبل ١٥ إبريل ، يجب على الجيش الفرنسي أن يتراجع إلى نهر لخ (Lech) . نفذ الجزء الأول من التعليمات تقريباً ، وزحفت فرقة دافو (Davoust) إلى

راتزون في ١٦ إبريل ، أى في اليوم الذى نجح فيه الأرشيذوق شارل
 فى عبور نهر الأيسار (Isar) ، على رأس ١٢٦.٠٠٠ مقاتل . بلغ الخطر
 بمركز الفرنسيين أشده ، لأن دافو كان فى راتزون ، وبرتية فى أجزبرج
 على مسافة ٧٦ ميلا غربا ، وكانت هناك بين جناحي الجيش فرقة
 بافاروية ضعيفة معسكرة عند آبنسبرج (Abensberg) . ولو كان
 الأرشيذوق من مهرة القواد لهزم فرقة دافو المكونة من ٦٠.٠٠٠
 مقاتل قبل أن تصل إليه الأمداد ، ولتقدم بعد ذلك وقضى على فكرة
 ترتية . لكن بينما الأرشيذوق فى غفلته ، إذا نابليون ينهب الأرض
 و بأحدثه الطويلة ، ، نحو ميدان القتال ؛ لأنه سمع بأعلان الحرب
 فى الساعة الثامنة من مساء ١٢ إبريل وهو فى باريس ، وعند الساعة الرابعة
 صباحا من اليوم السابع عشر كان فى دوناو فورت (Donauworth)
 يهيمن على أعمال الميدان . ولقد حازت الحركات الحربية التى قام بها
 تلك المرة إعجاب معظم النقاد الحريين ، واعتبرها نابليون أحسن
 أعماله الحربية ، على الرغم مما كان ينقصها من دقة فى بعض تفاصيلها . ذلك
 أنه جمع أشتات جيشه بأصدار الأمر إلى دافو بالتراجع مع الجناح
 الأيسر ، وإلى مسينا بالتقدم مع الجناح الأيمن . ثم زحف لكسر
 عدوه فرقة فرقة ، فضرب الجناح الأيمن النمساوى ضربة ألقت وحداته
 صرعى عند آبنسبرج . ثم أجبر الجناح الأيسر إلى التقهقر بلا نظام

حتى عبر نهر الأيسار عند لاندشوت (Landslut) ، وأخيراً سارع نابليون نفسه لنجدة داقو ، الذي كان يحارب القوات الرئيسية ، التي كانت تحت إمرة الأرشيديوق عند إجمهل (Eckmuhl) ، وبذلك تغيرت مواضع كفتي الميزان . فارتد النمساويون إلى راتربون ، واشتبكوا في موقعة يوم ٢٧ إبريل ، ثم انسحبوا بانتظام عابرين الدانوب ، وقد خسروا خمسين ألف مقاتل في تلك الحرب ، التي دامت خمسة أيام ، حيث كانت الغلبة لقوة الابتكار السريع على التردد في ساحة القتال . ثم علم نابليون في إبريل ، أن الأرشيديوق بعد عبور الأيسار انحرف شمالاً عن طريق التقدم المستقيمة ، « فاستوى قائماً ، وتألفت عيناه ، وظهرت على نظراته وصوته وإشارته نشوة الفرح » . ثم قال : « والآن وقعوا في يدي ! لقد ضاع جيشهم ! سنكون في فينا في ظرف شهر » . كان نابليون معتدلاً في آماله : إذ لم تمض ثلاثة أسابيع ، إلا وهو تزل قصر شونبرون (Schönbrunn) بالعاصمة النمساوية .

مثل الفصل الثاني من تلك الرواية على ضفاف الدانوب السريع الجريان ، على بعد ثلاثة أميال من فينا ، حيث تشطر النهر شطرين جزيرة لوباو (Lobau) الكبيرة المكسوة بالغابات . قال نابليون فيما بعد يصف ما كان أمامه من الأعمال الحربية في تلك المرة : « وإن عبور نهو كالدانوب أمام غدو يعرف المكان جيداً ، ويملك عطف

السكان لهوا أكثر الأعمال الحربية خطراً،،. ولما كانت النمسا تنجى كثيراً وفرنسا تنحسر كثيراً بسبب الأبطاء في العبور، تحتمت محاولة تلك العملية الصعبة . وفي ليل ٢٠ مايو عبرت فرقة القائد مسينا ، وفرقة الحرس والحيلة الخفيفة تحت إمرة القائد لان ، النهر من الجزيرة إلى الضفة الشمالية ، حيث قوبلوا بمقاولة كافية لا لحاق الوهن بأى جيوش عادية : إذ لبث جيش فرنسى مكون من ٣٦,٠٠٠ طول النهار حول قريتي أسبرن (Aspern) وإسنج (Essling) ، يحارب قوات متفوقة عليه ، سدّت في وجهه السبل ، وقطعت عنه الأمداد ، بتهديم الجسور . وفي ليلة ٢٢ أرسلت أمداد ، ولكنهم لم تك من القوة بحيث تغير أوضاع كفتى الميزان ، وبعد انقضاء يوم آخر، في حرب سجال حمى وطيسها، سحب نابليون جيوشه إلى الجزيرة ، وخسر في وسط معمة أسبرن - إسنج القائد لان ، الذى كان أشجع الشجعان . عند ذلك أدركت أوروبا أن قهر نابليون ليس عليها بمستعجل .

بعد ذلك بثلاثة أسابيع ، وقعت الواقعة التى ختمت بها الحرب ، وهي المعروفة للتاريخ بواقعة فاجرام (Wagram) . عبر نابليون نهر الدانوب فى ليلة ٥ يوليو بجيش عرمرم يزيد على عدوه بنسبة عشرين فى المائة . وفى اليوم التالى تأهب للقتال . برهنت تلك الواقعة أن الشجاعة النسبوية ليست حادثاً عرضياً ، وأن التفوق الفرنسى ليس

من ضرورات النظام الطبيعي . ذلك أنه بعد قتال عنيف ، بدأ في فجر يوم من أيام يوليو ، واستمر حتى بعد الظهر ، انسحب الأرشيدوق شارل من الميدان مغلوباً ، لكنه غير مفلول القوى ، وبدون أن يترك أسيراً أو علماً في يد العدو . فكان المهزوم هو الأرشيدوق شارل حقلاً الجندى النمساوى ، وكان المتصر رجال المدفعية الفرنسية لا مشاة الجيش الأعظم ، الذى لم يعد بعد الأداة الفاخرة ، كما كان في أيامه الأولى . وسبب ذلك أن زهرة الجيش كانت تهلك في أسبانيا . هذا وقد برهن النعر الشائن ، الذى استولى على الجيوش أصيل الواقعة ، لما ذاع خبر اقتراب جيش الأرشيدوق جون ، أن هناك بونا شاسعاً بين المجندين الأحداث الذين حاربوا في قاجرام وبين الجنود المدربين الذين حاربوا في أركولا وأسترلتز .

عقدت هدنة بين الأباطورين مداها أربعة شهور ، ظل في أثنائها كلا الفريقين يتتبع باهتمام المنازعات القائمة في الجهات الأخرى من أوروبا ، أملاً في ابتسام الحظ مرة . وكان الخطران الرئيسيان أمام نابليون أن تعلن بروسيا الحرب ، أو يقر رأى القيصر ، الذى كانت مساعدته الحربية من أضعف المساعدات ، على نقض التحالف مع فرنسا . وكان هناك خطر آخر بعيد الاحتمال ، وهو حصول هزيمة منكرة في إسبانيا ، أو نزول الإنجليز على شاطئ البحر البلطى ، في وقت ما كان أنسبه لاثارة العناصر الثورية ، التى تحتشد في شمال ألمانيا .

لكن كل تلك الغيوم انقشعت بانقضاء الصيف وحلول الخريف ،
 فالبروسيون لم يعلنوا الحرب ، وظل التحالف الروسى قائما مؤقتا ،
 على أن تأخذ روسيا جزءا من غاليسيا من النمساويين . ثم وردت أنباء
 من إسبانيا أُعتبرت أعظم ما تكون في صالح الفرنسيين ، وهي أن
 ولزلى تقهقر إلى البرتغال بعد موقعة تالافيرا (Talavera) ، وأبنت
 حملة إنجليزية ، وجهتها الاسمية مهاجمة أنفوس ، سارت إلى حيث تنفذ
 قواها في مستنقعات والشرين (Walcheren) الموبوءة بالحميات ،
 فلم تنل أربا ، سوى أن نابليون اتخذ وجودها ذريعة لتجديد جيوش
 جديدة . ثم قامت في شمال ألمانيا ثلاث ثورات طائشة لا اتصال
 بينها ، أخذت الواحدة تلوا الاخرى . أمام كل ذلك ، ونظرا لتفشى
 الامراض في الجيش النمساوى ، جاء فرنسيس يطلب الصلح صاغرا .
 ذكر نابليون علنا في أثناء المفاوضات أن الأجدد بفرنسيس أن
 يتنازل عن العرش ، إذ قال للأمير لشتنشتين (Lichtenstein)
 اللغوض النمساوى : « و أريد أن أتفق مع رجل أعتمد على اعترافه بالجميل ،
 فلا يعود إلى مناجزتي مدة حياتي . كثيرا ما برهنت السباع والقبيلة
 على قوة العاطفة وتأثيرها في القلب ، لكن سيدك لا تحركها العواطف ، ..
 لاغرو أن إمبراطور النمسا ، الذى كان عدوه نزيل قصره ، عجز
 عن أن يحذو حذو العجاوات ، التى تعترف بالجميل . لذلك سلبه

نابليون إقليما يبلغ سكانه أربعة ملايين ، بما فيه ميناء تريست العاصمة
 والساحل الشمالى للبحر الأدرياتي . هذا فضلا عن الأمانة التي لحقت
 بالنمسا في تلك المعاهدة ، التي عقدت في فينا نفسها ، في ١٤ أكتوبر
 سنة ١٨٠٩ ، من جراء ترك التيروليين الشجعان ، الذين بذلوا كل
 مرتخص وغال في سبيل الرجوع إلى حظيرة الوطن ، لانتقام نابليون .
 حدث بعد الصلح بمدة يسيرة ، أن عقد أشهر زواج سياسى
 يذكره التاريخ الحديث : ذلك أن نابليون طلق جوزفين بعد رجوعه
 إلى باريس ، وطلب يد أرشيدوقة نمساوية ، ونال موافقتها . كان
 محالاً أن يحوله عن السبب الأعلى ، الذى من أجله أقدم على ذلك ،
 دموع وتوسلات امرأة جميلة ، أحبها مرة ملء قلبه ، وبقي يشعر نحوها
 بعاطفة الحب . والسبب في ذلك أن جوزفين لم تعقب منه نسلا ، ولما
 كانت الإمبراطورية في حاجة إلى وارث للعرش ، قرر مجلس الشيوخ
 الحاضع لسكل أوامر الإمبراطور ، انحلال عقد الزواج . ثم أفتى
 مجلس الأساقفة في باريس بجماعة أعظم ، أن الزواج لم يحصل أبدا .
 كان اختيار بديل صالح موضع أخذ ورددحا من الزمن ؛
 وفتحت مفاوضات عدة في وقت واحد مع بلاطى فينا وسان
 بطرسبورج . وأخيرا قرر نابليون التزوج من مارى لويز النمساوية ،
 لأنها كانت في سن الزواج من جهة ، ولأنها كانت كاثوليكية من جهة

أخرى ، ولأنه أحس بعدم رضا البلاط الروسى به ، واعتقد أنهم سبرفضونه من جهة ثالثة . ولما قال لا كويه (Lacuée) وزير الحربية ، وكان معارضا في الزواج النمساوى ، إن النمسا لم تعد دولة عظيمة ، رد عليه نابليون : «وإنني أخيل إلى أنك لم تحضر واقعة فاجرام ،، من الطيعة أن يستشهد نابليون بحوادث الحرب الماضية ، ليحمل على الاعتقاد أن التحالف النمساوى سيكون دعامة قوية يستند إليها هيكل الأمبراطورية الفرنسية المحتلة . هكذا تزوج القورشيق الصغير من أعرق أسرة في أوروبا . ولقد تلبدت بسبب ذلك الزواج غيوم من الشر : فإن المرأة لم تكن بالخلصة ، وانقلبت دولتها عدوة ، وعاش وليد ذلك الزواج الهابسبورجى البونابرتى عيشة رديئة تعسة ، بين أعداء اسم أبيه .



الفصل التاسع

انهيار البناء

يقع سقوط نابليون في ثلاث روايات متصلة الحوادث وهي موسكو وليبزج وفونتبلو ، يتلوها فصل ختامى فى واترلو . وقد امتازت المجهودات التى بذلت ، والضحايا التى ذهبت فى ذلك النضال الأخير ، بالجسامة والتهور إلى مدى جعل الحلف يعتقد بزيادة ما بذل عن طاقة ذلك العصر المنضب بالدماء . فالدول التى اشتركت فى الحرب اشتراكا فعليا كانت أكثر عدداً ، والجيش أكثر نفراً ، والخسائر التى لحقت المتحاربين من جراء القتال ونفاد المؤن أكثر هولاً ، مما رأته حرب سابقة . بلغ عدد القتلى فى واقعة بورودينو (Borodino) وحدها ثمانين ألفاً ، وعدد جرحى ليزج مائة وعشرين ألفاً . غير أن نابليون على الرغم من اضطرابه إلى الارتداد وراء نهر الرين بخسارة ما يقرب من مليون رجل ، لم يذعن لفكرة قاعزال الملك إلا بعد الاشتباك فيما يقرب من عشرين واقعة . والسبب أن ذلك كله حدث فى عصر لا عهد له بالتلغراف ، أو التليفون ، أو الطرق

الحديدية، أو بأى تأثير جدى من الصحافة فى عقول الجمهور . فكانت الأمم لا تثار بسرعة ، وكانت الأفكار بطيئة التغير ، والناس أصعب قياداً عند إثارتهم وتنظيمهم للأغراض الحربية . إلا أن ذلك العصر ، الذى كانت الأسفار فيه بطيئة ، والمواصلات رديئة ، رأى أوربا جمعا تسلس قيادها طوعا لتأثير قوة إرادة واحدة ، سبرت الفلاحين الفرنسيين إلى موسكو، وأنت بفرق القوازي والكلوك الروسية إلى باريس للالتحام فى نضال سدها ولحمته مصالح وأطماع الأمم العشرة الكبرى فى الدنيا القديمة .

لأريب أن مغزى تلك المأساة الثلاثية الهائلة انتصار الروح القومى على السيطرة الأجنبية، تلك السيطرة التى تدرب وتشجع بلا قصد الوسيلة التى تقضى عليها . فى إسبانيا والروسيا وإنجلترا ، وفى بروسيا أخيراً ، اصطدم نابليون بقوة لم تخطر نتائجها على باله، وتمتاز ، كما برهنت الحوادث ، بالقدرة على التجدد والرجوع دائماً لسيرتها الأولى . نعم كان نابليون يعرف مظاهرات الشوارع ، وكيف يمكن تفريق المظاهرات باطلاق حفنة من البارود ، كما حصل فى باريس (١) وبأفيا (٢)

(١) حادثة باريس تقسم ذكرها . انظر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) تفصيل حادثة أفيا أن نابليون لما دخل ميلان ظافراً فى مايو سنة ١٧٩٦ ، إبان الحرب الأيطالية الأولى ، جمع كثيراً من التفاس ، بناء على تعليمات حكومة الاثارة ، وأخذ جميع مواهبى فلاحى البارديا لتمرير الجيش . قنار الفلاحون ، وهاجوا أفيا ، وقتلوا كل من لقوا من الجنود الفرنسية . أخذت تلك الثورة بشدة باطلاق البارود على الثوار ، ثم استيحت أفيا قهراً بالجنود .

والقاهرة^(١) . إلا أنه أخطأ لما اعتبر كل الحركات القومية من ذلك النوع لا قيمة لها ، ولا شجاعة فيها ، وسهل إخمادها بشيء من الصلابة الحربية . فحسب مثلاً أن ليس من خطر في إسبانيا إلا الجيش الأنجليزى ، وأنه يكفي لإخماد ثورة الكالابريين في جنوب إيطاليا إضرام النار في بعض المباني ، وإعدام بعض الأفراد رمياً بالرصاص . ولقد قال في شيء من الاستخفاف في إحدى رسائله : «و يجب علينا أن نغيت الروح القومية في ألمانيا» ، كأن من الممكن تدريب أمة عظيمة على نسيان مدينتها القديمة بسهولة ، كما يدرب الجندي الجديد في دو التابور ، «على ترك عادة السير المسترخى البطيء» . قد يكون السبب في وقوع نابليون في ذلك الخطأ طول وجوده في مركز الأمر النهائي ، لأنه ليس من شيء أكثر خطراً على الذكاء من الاسترسال في الأمر . ولا شك أن الانفراد بالحكم ، وما يترتب عليه من ثقل الأعمال ، أضرب بعقل نابليون ، وآخا في أخلاقه ، إذ أصبح أقل انصافاً للنصيحة ، وأسرع غضباً

(١) بدو واقعة أبي قير البحرية ، زعم الفرنسيون أنهم سيعمرون في مصر طويلاً . ولكنهم أتوا بأعمال استغزت المصريين ، كهم بعض الأتراك من أجل تنظيم الشوارع ، والتشديد في حيازة الضرائب بنظام أوربي ، وسوء معاملة نابليون لبعض العلماء الذين أتوا وضع الشارة الفرنسية على صدورهم . وفوق ذلك نواترت الإشاعة بأن السلطان يمد جيشاً عظيماً لطرد الفرنسيين ، فكان كل ذلك سبباً لقيام ثورة في القاهرة . لكن سرعان ما أخذها نابليون ، فوضع للدافع على ربي القطم ، وهند مرا كز الثور في الأزهر وجهة الحسينية ، ودخلت الجنود الفرنسية الأزهر بجيها فتهكوا حرمة ، وما زال نابليون بالمصريين حتى طلبوا منه الامان .



نابليون بونابرت أثناء واقعة واجرام
جزء من صورة كبيرة رسم هوراس فرنيه (Horace Vernét)
محفوظة بمتحف فرساي

وأقل احتمالاً لمخالفة أوامره ، وإن في تابع وزراء الخارجية من تاليران إلى شامباني (Champagny) ، إلى ماريه (Maret) ، الذين كان كل منهم يقل عن سابقه في المقدرة واستقلال الرأي ، لأحسن دليل على اتساع شقة الخلاف بين سياسة الإمبراطور ومصالح فرنسا.

كان سقوط نابليون النتيجة المنطقية للنظام القاري ، الذي وجه إليه أكبر جزء من نشاطه في الستين التاليتين لموقعة واجرام . ذلك أن مشروع إغلاق كل موانئ أوروبا في وجه المتاجر الإنجليزية أو مستعمراتها لم يستلزم توسيع دائرة فتوح نابليون فقط ، بل نتج عنه أن ضم نابليون لفرنسا هولندا والمدينة الهنسية ^(١) ودوقية أولدنبورج (Oldenburg) . وبصرف النظر عن الاستياء والفرع العامين ، اللذين نتجا عن تلك الأعمال ، فإن الحصار البحري جر صنوف الفاقة وويلاتها على رأس كل فرنسي .

(١) يرجع تاريخ المدن الهنسية للقرون الوسطى ، وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من المدن الألمانية ، التي كانت فيما بينها عصبة تجارية سماها الهنسية (Hanseatic League) سنة ١٢٤١ ، لحماية الموانئ الألمانية ، التي تستعملها تلك المدن في متاجرها من قرصان البحر النفاكين والسويدين . ثم أخذت العصبة في الضمحلل لما ابتدأت التجارة تتحول في أواخر القرن الخامس عشر إلى المحيط الأطلسي . وبلغت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨) ، فكانت نتيجة انتصاره للمدن الهنسية ، ولم يبق منها إلا ثلاث مدن ألمانية حافظت لظل العصبة القديمة ، وهي هامبورج (Hamburg) ولوبيك (Lubeck) وبرمن (Bremen) ، وهي التي استولى عليها نابليون لاحقاً بحكم السياج . انتهى أولاد إلفنت في وجه التجارة الإنجليزية .

وصف جيته^(١) الشاعر الفيلسوف الألماني نابليون بأنه أحد
الرسل المبعوثين لأقامة مدينة أعلى من المدينة التي قامت في أوربا في آخر
القرن الثامن عشر . لكن إذا كان من مقتضيات الرسالة أن يبلغ عن الطباقي
ما بلغ ، وأن يندر وجود البن والسكر في الأسواق ، وأن تبقى السفن
في الموانئ حتى تبلى ، وأن تصرف المحال التجارية الكبرى الواحد
بعد الآخر عما لها ، وتعلق أبوابها ، فأنا نعرف أن أناساً أقل فلسفة
وشاعرية من جيته لم يروا في أعمال نابليون إلا الاستبداد القاسي
والأسراف بلا مبرر : فالحصار القاري تخضع عن الحسائر في كل مكان ،
وأصبحت البلاد التجارية مثل هولندا ودوقية برج خراباً ، والحق
أنه لم يوجد في سياسة نابليون — إذا استثنينا التجديد الجباري —
ما جعل حكمه مكرهاً في أوربا أكثر من الحصار القاري .

لا يخفى أنه لو أمكن تنفيذ المشروع بدقة، لجاز أن يتج عنه الأثر
المطلوب . لكن ثروة إنجلترا الطائلة لا تعتمد اعتماداً كلياً على التجارة ،
كما زعم نابليون ، لأن معظمها عبارة عن ثمرة نشاطها الصناعي .
أما نقطة الضعف في حالتها الاقتصادية ، فهي أن سكانها نمواً سريعاً ،

(١) ولد يوهان وفلجانتج فون جيته (Johann Wolfgang von Goethe) سنة ١٧٤٩ ، وهو أعظم شعراء الألمان في العصر الحديث ، ومن أكبر رجال الأدب في عصره . وحدث
أنه وقع في حب فتاة مخطوبة هامها وكتب كتبه وادام فرتر ، وصف لواعج حبه . وبعد ذلك
انتقل بالأدب ، وما زال يتقلب بين الأدب والسياسة ، ومخرج كتابا عدتها روليفافاوست (Faust)
الشهير وكتاب الشعر والحقيقة . ولقد عمر اثنتين وعشرين سنة متماً بشهرت عالية فائقة ومات سنة ١٨٤٢ .

حتى أصبحت بحاجة من آن لا آخر إلى استيراد القمح من أوروبا .
ولو أن كميات الغلال الأجنبية قُطعت عن السوق الإنجليزية ، لكان
من المحتمل أن تقع الدولة في مجاعة أليمة تضطرها لطلب الصلح . لكن
ذلك النظام لم يتبع ، بل سُمح للمصدرين الفرنسيين برخصات خاصة
لأرسال غلالهم لا تجتثرا . ليس غريبا إذاً أن يفشل الحصار في تحقيق
ما وُضع له ، بسبب التجارة الواسعة التي سمح بها بمقتضى تلك
الرخصات الخاصة ، وبسبب النشاط العظيم بين المهرين . إنما الغريب
أن يظل نابليون معتقداً أن إصدار القرارات ، التي كان كل منها أشد
تضييقاً من سابقة ، والتي يستحيل تنفيذها بالدقة ، سيمكنه من إرغام
إنجلترا على الخضوع .

حمل ذلك السبب نابليون ، وأسباب أخرى أهمها مسألة زواجه ،
على أن يعدل عن عزمه الأول ، وهو العودة لإسبانيا ؛ لأنه اقتنع
بعض الشيء بأنه إذا أدار اللولب الضاغط على التجارة الإنجليزية
دورة أخرى ، فإن حرب شبه الجزيرة يقضى عليها من جذورها .
لذلك أناب عنه مسينا ، أقدر قواده ، ونزو البرتغال . إلا أنه لم يفرد
بقيادة الجيوش الفرنسية في إسبانيا ، ولم يزوده بجيش كاف ، ولم
يترك له الحرية التامة في العمل .

ولقد رأى مسينا وهو يسكر على مرتفعات بوساكو^(١) (Bussaco)، وأمام خطوط توريس-فدراس (Torres-Vedras)، وفي معسكره الشتوى عند ستاريم (Santarem)، ما لم يدر بخلد نابليون قط : وهو إمكان تدريب البرتغاليين على مواجهة النار . رأى مسينا أيضاً أن خطة التخریب العام ، التى قام بها ولنجتون فى أنحاء البرتغال ، كانت صدمة شديدة للنظام الفرنسى القاضى بتموين الجيوش الفرنسية بميرة البلاد التى تحتلها . لذلك كله نكس الغزاة على أعقابهم ، ونجت البرتغال : إذ عبر مسينا فى إبريل سنة ١٨١١ الحدود الأسبانية بجيش ساخط متعرد ، مختل النظام ، خالى الوفاض ، بادى الانفاض ، بعد أن خسر ثمانية وثلاثين فى المائة من رجاله ؛ فبرهن بارتداده المشهود على مهارة ولنجتون وعدم حكمة نابليون ، وعلى الفشل النهائى فى محاولة إجبار البرتغال على دخول حلقة الحصار القارى .

كان يهدد الحصار مصيبة أدهى من الطرف الأوربى الآخر نتيجة سياسة نابليون ، التى أدت إلى إضعاف التحالف الفرنسى الروسى . وتقصيل ذلك أن القيصر كان غير مستريح من أول الأمر للمعاملة القاسية التى خصت بها روسيا ، ولتشجيع الآمال القومية

(١) انظر مصور أسبانيا للتحقق من ميادين حرب شبه الجزيرة .

بين البولنديين بإنشاء دوقية فارسو . ثم إنه قبل التحالف مع فرنسا على رغم عدم رضا الأشراف والدوائر التجارية في روسيا ، تحت تأثير شخصية نابليون من جهة ، ولينتهى من جهة أخرى من مشادة مؤقته قامت بينه وبين إنجلترا . هذا وكان القيصر يعتقد أن مصادقة نابليون تعينه على تنفيذ أطماعه في الشرق . لكن سرعان ما أذهبت الحوادث الزبد جفاء ، وشتت عما تحته من حقائق ، إذ أخرجت الثورة الأسبانية اقتسام تركيا إلى أجل غير مسمى . لذلك دخلت روسيا حرب سنة ١٨٠٩ مضطرة ، وعلى غير رغبتها ضد النمسا ، وأمدت فرنسا بمساعدة فائقة . أدرك نابليون بسرعة أن أوروبا على باب انقلاب سياسى . تفصيل ذلك أنه على الرغم من مكافأة القيصر على خدماته بجزء من غاليسيا ، فإنه أعطى الجزء الأكبر من ذلك الأقاليم ، بمقتضى معاهدة شونبرون ، إلى البولنديين بقصد الاعتماد عليهم في حالة وقوع حرب مع روسيا . وقد عدت وزارة خارجية روسيا توسيع رقعة دوقية فارسونديرا بالويل ، فطلبت من نابليون وعدا صريحا بأنه لن يوافق على إحياء مملكة بولندا^(١) . لكنه أبى

(١) كانت بولندا حتى عام ١٧٧٢ مملكة مستقلة واقعة بين روسيا والنمسا وروسيا ، وفي تلك السنة اقترح فريدريك الأكبر ملك بروسيا على مارياتريز إمبراطورة النمسا ، وكاترين الثانية قيصرية روسيا إيفال باب التنازع بين الدول الثلاث بتقسيم بولندا الضعيفة فيما بينهم ، وبهذا تم ما يسمى في التاريخ بتقسيم بولندا الأول الذى قضى على استقلال تلك الدولة المنيعة ، حتى كانت الحرب العظمى ، إذ أخرجت معاهدة فرساي إلى البلاد لستقلالها ، وهى الآن جمهورية .

أن يقطع على نفسه ذلك العهد ، لاعتقاده باحتمال وقوع حرب مع
الروسيا ، حيث تكون الوطنية البولندية عوناً له على النصر . لو
كان نابليون بلا حليف في أوروبا لساو في سياسته بشيء من الحذر ،
لكنه ، وهو زوج ماري لويز ، أحس بأنه ليس مضطراً للتراضى مع
الروسين .

لم يكن ليؤدي ذلك التوتر إلى حرب ، لولا أسباب مالية جعلت
من المحال على روسيا البقاء على سياسة الحصار القارى : وهى أنه
لما طلب نابليون من القيصر ، في منتصف أكتوبر سنة ١٨١٠ ، أن يمنع
من السفر جميع السفن الانجليزية الراسية فى المياه الروسية والرافعة
أعلاماً محايدة ، وقبل طلبه بالرفض ، لأن روسيا لا تستطيع الاستغناء
عن حاصلات المستعمرات الانجليزية ، ولأن المراكب التى تحملها
لموانئها ترفع أعلاماً محايدة . وفى أواخر سبتمبر سنة ١٨١٠ ، صدر
أمر عال روسى لتسهيل دخول المراكب المحايدة إلى الموانئ الروسية ،
ولفرض ضرائب جمركية باهظة على الأنبذة والحرائر التى كانت
أهم الصادرات الفرنسية . بالاختصار رأى نابليون أن ذلك الانقلاب
فى نظام روسيا المالى إعلان للعداء .

قال بعض المؤرخين إن الحرب كانت واقعة لا محالة ، وألقى
بعض آخر اللوم على القيصر . والحقيقة أنه لا سبيل لاتقاء الحروب ،

إننا اعتبرنا أخلاق وأعمال مثيرها جزءاً من نظام ثابت في الطبيعة .
والدليل على ذلك أن ما نعلمه عن نابليون وعن القيصر ، وعن أحوال
التجارة والمالية الدوليتين في ذلك الوقت ، لم يترك مجالاً للشك في
اقتراب وقوع الحرب . إنما ليس في تغير الرسوم الجمركية في دولة ما -
في ذاته - ما يدعو إلى نشوب حرب : إذ كان للروسيا كل
الحق ، بعد أن رأت ما لحق ميزانيتها من العجز ، في تعديل رسومها
الجمركية إلى ما يناسب حاجاتها الداخلية ، ولم يكن لنابليون أى حق
في التدخل . فالتصادم لم ينشأ لأن القيصر كان يبحث عن مشكلة ،
بل لأن نابليون اعتبر أن أى تهاون في تنفيذ نظام الحصار القارى
يكون بمثابة طعنة في إمبراطوريته ومركزه .

كانت حالة نابليون العقلية ، سنة الاستعداد التى سبقت الحرب
الروسية ، برهاناً قاطعاً على أنه لم يهتم لاجتتاب الحرب . ذلك أنه لم
يعتبر النضال القريب عائداً قد ظهر لتعكير صفو السلام الأوروبى يجب
إزالته ، بل كان مملوءاً حماساً وطرباً يشبهان ما يجيش في صدر القرصان
عند ما يظهر له باب للسطو والنهب . قال نابليون في ذلك الصدد :
« و يريد الناس أن يعرفوا إلى أين نحن مسوقون . إنا عازمون على القضاء
على البقية الباقية من أوروبا ، وعلى أن نقض كاللصوص على لصوص
أقل منا جرأة ، لنصبح المسيطرين على الهند » . وبدأ فعلاً يجهز

الحملة إلى القطر المصري ومستعمرة الرأس ، وقال ناربون (Narbonne) ^(١) عن موسكو إنها محط رحال القاصد إلى الهند وعن الحرب الروسية إنها ليست إلا الدور الافتتاحي لرحفه المظفر في أصقاع الشرق . ليس شيء من ذلك غريباً ، فقد اعترف نابليون منذ عام ١٨٠٤ أنه مل أوروبا العتيقة ، والآن يقول إنه سيسيطر على العالم في ثلاث سنين .

مما أخذ على مقدرة نابليون في وضع الخطط الحربية ، أنه حاول جدياً فتح دولة كالروسيا ، حيث تنهزم الجيوش الصغيرة ، وتموت الجيوش الكبيرة جوعاً بسرعة أكثر مما حصل في إسبانيا . غير أن حادثاً سبق وقوعه قبل ذلك وترتب عليه نجاح ، وليس من المستحيل وقوعه مرة أخرى فتكون نتيجة كسابقه ، أي نصر كبير على الحدود يتبعه صلح سريع ^(٢) . ولم يترك نابليون شيئاً في السياسة والحرب إلا استعدله ؛ واعتمد على ضعف القيصر لتخليصه من صعوبات القتال في أرض كالصحراء . إلا أنه أخطأ في تقدير طابع خصمه ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام خطة سداها اجتناب الحرب وحرمانه من القتال ، ولحماتها

(١) ولده الكونت لويس دي ناربون (Comte Louis de Narbonne) سنة ١٧٠٠ وهو أحد أساقفة فرنسا المشهورين ، ووزير الحربية في عهد لويس السادس عشر . وكان وزيراً قديراً ، غير أن المناشحات الحزبية بين البقويين والجيرونديين أدت إلى عزله سنة ١٧٨٤ ، وتوفي سنة ١٨١٣ .

(٢) يشير للأولف هنا إلى موقعة فريدلاند .

استدراج جيشه الجرار إلى قلب مهمه قفر . ومع ذلك لم ينصت نابليون لصوت حكمته ورويته ، وعزم على اقتفاء أثر الجيش الروسى ، حتى وصل موسكو . ولوأن القيصر أنصت لمطالبه من موسكو ، لماشهد العالم سلسلة المآسى الحربية الطويلة ، التى لا نقتأ تذكر كلما ذكر نابليون .

غير أن الحملة الروسية سنة ١٨١٢ ستبقى دائماً البرهان القاطع على ما ينتج عن انفراد دولة واحدة بالقوة الحربية في أوروبا ، بقطع النظر عن عيوب الخطط الحربية التى ساز عليها القتال . ذلك أن الحرب لم تكن مسألة تنازع بين أمتين ، بل مسألة تنازع للبقاء بين أطماع رجل واحد ، وبين وطنية قوم أنجاد على جانب عظيم من الدين .

أما الشعب الفرنسى ، الذى لم يعلم بوقوع الحرب إلا بعد عشرة أيام من نشوب القتال ، فقد تلقى الأخبار بالرضاء المهود . في وسط كل ذلك وقف نابليون هادئاً صامتاً ، معتمداً على أنه على رغم فشله في ضم السويديين والأتراك إلى جانبه ، قد أعد الوسائل لاثارة حماسة البولنديين ، وحصل من النمسا وبروسيا على جيش لحماية جناحي جيش بلغ عدده ستمائة ألف مقاتل ، لم يسبق لنابليون أن قاد مثلهم ، بعد أن جندهم بطرق لا تختلف عن غارات العبيد : إذ كان ثلثا عددهم من الأقاليم التابعة أو المتحالفة مع الإمبراطورية ، لاشتغال زهرة جيوش فرنسا بالخدمة في إسبانيا . ومع ذلك فقد حارب من أجل

نابليون ذلك الجمع المتنوع الوحدات ، من الماينين وإيطاليين وهولنديين وپولنديين ، وأراق الدماء تحت إمرة ضباطه الفرنسيين ، ولم يحدث عصيانا ، ولم يتمتع عن مواصلة القتال . ولا شك أنه لو فني الجيش الأعظم عن آخره في محاولته ، فلا يرجع ذلك إلى الجنود أنفسهم ، بل إلى أسباب نقشت نقشا عميقا على وجه الطبيعة ، ليس في مقدور أى قوة بشرية مهما تعظم أن تغلب عليها .

كانت خطة نابليون الأصلية مرتبة على استمرار الحرب سنتين ، فيقاتل الروسيين في السنة الأولى في ليتوانيا ، ثم يتقدم في الثانية من سمولنسك إلى موسكو . بناء على تلك الخطة كان لديه متسع من الوقت للعناية بالاستعداد الغاية الواجبه ، ولا رجاء القتال حتى شهر يونيه ، حين تكون سهول ليتوانيا صالحة لامتداد خيله بالعلف . ولو أن القيصر انتظر في الخنادق التي أشير عليه بعملها عند دريسا (Drissa) ، تقليدا أعمى لخطوط ولنجنين في تورس - فدراس ، لكسب نابليون الحرب . غير أن التفوق العددي العظيم ، الذي امتاز به الجيش الفاتح ، أضر بالفرنسيين ، ونفع الروسيين ، على عكس ما كان متظرا . والسبب أن القواد الروسيين ، على رغم تطلهم لمنازلة العدو ، كانوا مضطرين إلى التهور دون الاشتباك مع جيش عدده أكثر من ثلاثة

(١) انظر مصور روسيا لمعرفة ميادين الحرب الروسية .

ضفاف القوات التي تحت إمرتهم . ثم أن جيش نابليون البالغ
 ٦١٠.٠٠٠ مقاتل، عدا سرايا المؤن، لم ينجح في حركات التطويق، ولم
 يتمكن فيها لتحقيق اللازمة للقيام بحركات المطاردة. والنتيجة أن الأمبراطور
 وجد نفسه في منتصف أغسطس في سمو لنسك، عند الطرف
 الشرق من أرض جرداء قاحلة، وقد فقد من جيشه مائة ألف مقاتل،
 دون ظفر حاسم يمكن التحدث به. وفي خرائب سمو لنسك المحترقة،
 وفي مستهل الحريف، عزم نابليون على الزحف على موسكو. ذلك أنه
 فضل أن يقامر بكل ما لديه، فيخسره أو يكسب مثله، على أن يواجه
 تهمة رآ غير مشرف، أو خسارة تعود على جيشه من سكونه في الشتاء
 السiberian. عند ذلك وقف الجيش الروسي في طريق نابليون بقيادة
 كوتوسوف (Kutusoff) الوطني المحنك، الذي لبي صوت الأمة
 لأنقاذ الوطن، واشتبك في موقعة بورودينو (Borodino)، التي
 وصفها تليستوى وصفاً خالداً بأسلوبه البديع، ولقد فتحت مذبحه
 بورودينو لنابليون الطريق إلى موسكو، ولكنها لم تأت بشيء لأخذ
 العزيمة الصادقة في قلب عدوه. ثم ترك كوتوسوف موسكو، وانسحب
 إلى نقطة في الجنوب غير بعيدة عن العاصمة، أملاً في الانقضاض فجأة
 على الجيش الفرنسي المفكك. غير أن استيلاء الفرنسيين على موسكو
 لم يجد شيئاً، اللهم إلا أنه زاد حق الروسيين، إذ وجد نابليون المدينة

لدى دخوله خاوية على عروشها ، وقد أسلمها للتدمير الغل الوطني المتأجج في قلب حاكمها ، بأشغال النار التي اندلعت ألسنتها من كل صوب ، بشكل حير الكل في أمر مصدرها . وعلى الرغم من ذلك بقي نابليون في موسكو ، بين كتلة كثيفة من الخرائب المحترقة السوداء ، حتى ١٨ أكتوبر ، أملاً في أن يأتي الإسكندر صاعراً . ووضع في أثناء تلك الفترة قانوناً للمهازل والملاهي الفرنسية . ولما بدأ يتقهقر كان الأوان قد فات بشهر كامل ؛ إذ على الرغم من تأخر هطول الثلوج في ذلك الحريف ، فإن ما هطل منها في وقت تقهقره كان كافياً لابقاع خسائر فادحة بجيش بالي الأتطار ، حامى الأقدام ، يجر أذيال الحية ، مهرولاً أمام حراب القوازي . ولما كف الروسيون عن المطاردة عند نهر نيمن (Niemen) ، الذي كان إذ ذاك الحد الغربي للإمبراطورية الروسية ، كان الجيش الأعظم قد فقد خمسمائة ألف أوزيريدون .

مثلت الرواية الثانية في ألمانيا . وبينما يظهر فيها نابليون بدور عظيم خطير من أدوار حياته ، إذ إنها نفسها فصل مهم في تطور الأئمة الألمانية . لا يفتنى أنه أصبح من الضروري تكوين جيش كبير يقوم مقام الجيش ، الذي قضى عليه قضاء مبرماً في روسيا ، لحماية المراكز البعيدة في الإمبراطورية . ولقد كان بين سكان فرنسا ، البالغ عددهم ٣٦ مليوناً ، ما لا يقل عن مليونين ونصف من الرجال الصالحين للخدمة

الحرية ، على رغم ما تكبدته فرنسا من الخسائر في الحروب الأخيرة .
إلا أننا نتساءل كم من هؤلاء يمكن تجنيدهم بسرعة ، وإعدادهم باللوازم
الكاملة لحرب بعيدة المزار ؟ أمكن نابليون ، في أربعة شهور ،
توידون الوسائل الحديثة التي تساعد على التعبئة السريعة ، أن يعد
للقتال في ألمانيا ٢٢٦ر٠٠٠ مقاتل و٤٥٧ مدفعاً . وتم ذلك العمل ، الذي
يكفى لاداعة صيت وزير من وزراء الحرية في العصر الحاضر ،
بعد حرب طاحنة ، ومع العلم بأنه جزء من برنامج أعمال الإمبراطورية .
أسرع نابليون بعد ذلك إلى الميدان ، وياشر أعمالاً حربية شاقة جداً .
لأنه فضلاً عن الجيش ، الذي سيره القيصر للاتقام ، كانت بروسيا
قد انضمت لأعدائه ، وأصبح معنى هزيمته خروج النسا عن حيدتها
وكف اتحاد الرين عن مساعدته .

كانت الواقعتان الاُوليان انتصارين مزيفين لنابليون . ذلك أنه
التقى عند لوتزن (Lutzen) ^(١) قرب ليبزج ، ثم عند بوتزن (Bautzen)
في سيليسيا ، بقوة تفوق جيشه عدداً ، مكونة من البروسيين
والروسين ، ولم يوفق في أحدهما إلى انتصار حاسم . لم يكن السبب
في ذلك فتور مواهبه الخاصة ، لأن بوادر الملل ، التي ظهرت على
نابليون في الأدوار الأخيرة لتلك الحرب ، لم تتطرق إليه في الأدوار

(١) انظر مصور أوروبا الوسطى لتتحقق من ميادين القتال في تلك الحرب للدمشة .

الافتتاحية . ولا سبيل إذاً إلى استنباط السبب مما تقدم . غير أن أول ما يجب على القائد الوصول إلى ساحة القتال بجيش يفوق عدوه عدداً ، والأسراع إلى الاشتباك والفرصة في جانبه . قام نابليون بتلك العملية التي هي أصعب العمليات الحديثة في لوتزن وبوتزن خير قيام : فكان تخيره للأرض الصالحة ، ومواهبه في القيادة ، كما هو معهود فيه . وحدث ، أثناء تراجع الفرقة الثالثة من جيشه أمام الهجوم عند لوتزن ، أنه ركض بجواده على رأس حرس من الأحداث ، فكان منظرًا بديعاً تجددت به شجاعة الفرقة المكسورة . ولا شك أن في حمل جيش من المجندين الأحداث ، الذين كان تدريبهم الحربي الوحيد مكتسباً من سيرهم إلى الميدان ، على تلقي ضربات تلك الواقعتين الهائلتين لدليلاً على قوة تلك الإرادة الحديدية . أما الواقعتان فكانتا سجالاتاً ، لأن خيالة نابليون كانت من الضعف بحيث لم تقو على مطاردة الأعداء .

لم يكن لمثل ذلك الانتصار قيمة . وبالرغم من أن نابليون أجلى العدو عن سكسونيا وسيليسيا ، وكسب موقعتين ، كان عالماً أنه لا يمكنه إنفاذ ضربة قاضية بلا إمدادات كبيرة لا سيما من الخيالة ، وأن قواده ملوا الحرب ، وأن جيشه الذي لم يدرب بعد أنقصه الموت أو المرض أو الحرب إلى نصف قوته . ثم إنه لم يعد يعتمد

على النمسا وصادقتها ، واعتقد أنه إذا لم يتخذ احتياطات سريعة تهديدية ، فمن المحتمل أن تصبح النمسا في صف أعدائه . وسبب ذلك الاعتقاد أن النمسا كانت مهمة بتعبئة جيوشها في بوهيميا ، بيد أنها كانت مستعدة لمسالمة نابليون إذا تنازل عن الولايات الأليزية وعن فتوحه البولندية والألمانية . غير أنه رفض تلك الشروط ، واعتبرها إهانة كبرى ، وعزم على تسير جيش من إيطاليا إلى لايباخ (Laybach) ، حتى يعدل النمساويون عن سخافتهم . بناء على تلك الأفكار ، وقّع نابليون في ٤ يونيو في بلاسفيتز (Plaswitz) على هدنة تستغرق شهرين . ولم يفكر في التنازل عن فتوحه ؛ وإنما كان يبغي بتشجيع الكلام في الصلح كسب الوقت ، لاعداد مجندين جدد يقذف بهم إلى حيث يهلكون . والدليل على ذلك ما جاء في مذكرات مترنخ ، مينا كيف أُلح السفير النمساوي على نابليون في ٢٦ يونيو في قبول شروطه وإقامة السلام في أوروبا ، وإلى رد نابليون بفضب . إذ قال : « ماذا تنتظر مني ؟ أنتتظر أن ألحق العار بنفسى ؟ ذلك محال . سأعرف كيف أموت ، ولكى لن أنزل عن شبر من الأرض . أن ملوككم الذين ولدوا في الملك يمكن أن ينهزموا عشرين مرة ، ومع ذلك يؤوبون إلى عواصمهم . أما أنا فلا قبل لى بذلك ، فقد بلغت الملك عن طريق الحرب » . ثم سأله مترنخ ماذا هو صانع ، إذا حل بجيشه المكون

من المجندين الأحداث ، ماحل بالجيش الأعظم أثناء الحملة الروسية .
فعلت وجه الإمبراطور صفرة ، ثم عبس وقال بعنف : وو إنك لست
جندياً ، ولا تعرف ما يجيش بصدر الجندي . لقد نشأت في ميادين
الحرب ، ومثلي لا يعبأ إلا قليلاً بضياح حياة مليون رجل ،، . وبينما
هو يلفظ هذه الكلمات بصوت عال قذف بقبعته في زاوية من
زوايا الغرفة . عند ذلك قال له السفير ، بعد ما استأذن بالخروج :
« مولاي على ملكك العفاء ! لقد كنت أشعر بذلك عند ما وفدت ،
وها أنا واثق كل الثقة لدى ارتحالي عنك ،، .

أجمع النقاد الحريون على ضرر عقد الهدنة ؛ لأنها وإن مكنت
نابليون من جمع الإمدادات ، كانت أكثر نفعاً لأعدائه . الدليل أنه
لما ابتدأت الحرب في أغسطس ، كانت النمسا والسويد قد انضمتا إلى
صف الحلفاء ، فأصبح جيشهم ٨٦٠.٠٠٠ يقابلهم ٧٠٠.٠٠٠ من
الفرنسيين ، بما فيهم من الجنود الأسبانية والإيطالية . وإنا لتسائل
عما إذا كان في استطاعة أي قائد حازم في ظروف نابليون أن يتنبأ في
يونيه بتلك النتيجة . تلك مسألة تفتح مجالاً للتشكك ، وكل ما نعرفه
بالتأكيد ، هو أن الحرب عادت والظروف أقل ملاءمة لنابليون ،
فكانت جيوشه كتلة قوامها أحداث غير مدربين ، وكان أعداؤه
أوثق تماسكا وأعز نفراً ،، ولم تكن عزائمهم بأقل قوة مما كانت قبل .

تقع درسدن عاصمة سكسونيا على نهر الاالب ، على مسافة
 شرين ميلا شمال الحدود الجبلية لبوهيميا . هناك عزم نابليون على
 الوقوف بجيشه ، لا لحماية خط نهر الاالب فقط ، بل ليتمكن من
 المحافظة على ولاء حلفائه السكسونيين ، وثقة حلفائه البولنديين ،
 ولاعتقاده أنه بوقوفه في ذلك المكان الملاثم يقابل جمع الهجرات ، التي
 يوجهها إليه الجيوش الثلاثة المتحالفة الزاحفة ، من بوهيميا وسيليسيا
 وبراندنبرج . لكنه اعترف فيما بعد بسوء اختياره ، لقرب درسدن
 من الجبال ، حيث يمكن تمزيق الجيش الذي يتجهق إلى بوهيميا ، قبل أن
 يتمكن من الوصول إلى المضائق والمبار ليحتمي فيها .

كانت واقعة درسدن مفعمة بالنكبات حقاً . إذ اتفق الحلفاء على
 أن يجتنبوا ما استطاعوا ملاقاته نابليون نفسه ، وأن يهاجموا قواده بنشاط
 كلما التقوا بهم . نجحت تلك الخطة ، وذاقت فرق القائدين أودينو^(١)
 وناي^(٢) ، اللتان كانتا أرسلتا لمقابلة جيش الشمال ، مرارة الهزيمة عند

(١) ولشارلنيكولا أودينو (Charles Nicolas Oudinot) سنة ١٧١٧ . وهو من
 أعظم قواد الإمبراطورية المدعومين في فرنسا ، وقد ظهر في مواقع عدة على البروسيين والساويين ،
 وحضر واقعة أسترازينا ، وكان السبب في انتصار الفرنسيين في واقعة فريدلاند .

(٢) ولد ميشيل ناي (Michel Ney) سنة ١٧٦٩ . وهو من أعظم قواد الإمبراطورية
 النابليونية ، ومن أئدهم إخلاصاً لنابليون ، لقى منحه وسام الشرف لانتصاره انتصاراً سنياً
 في واقعة فريدلاند ، وسماه أشجع الشجعان (Le Brave des braves) . ويلاحظ أنه

بلدنى جروس بيرن (Gross Beeren) ودنفنز (Dennewitz) ،
 حيث وقعت واقعتان خالدتان فى التاريخ الحربى البروسى ، برهتا على
 بعث العظمة البروسية من جديد . وفى الطرف الشرقى من ميدان
 الحرب الواسع هزم بلوخر قائد جيش سيليسيا القائد الفرنسى ماكدونالد
 عند نهر الكاتزباخ (Katzbach) . أما الواقعة الوحيدة التى شذت
 عن سلسلة الهزائم الشنيعة المتقدمة ، فحدثت فى أول أدوار القتال .
 والسبب أن زحف الجيش البوهيمى على درسدن فى ٢٢ أغسطس ،
 كان مبنياً على الاعتقاد الراسخ أن المدينة تستضطر للتسليم ، نظراً لرداءة
 تحصينها ، قبل أن يتمكن نابليون من الرجوع لحمايتها ، ولانشغاله ضد بلوخر
 فى سيليسيا . إلا أن الحوادث برهنت على خطأ ذلك التقدير ، لأن
 شقارزنبرج (Schwarzenberg) كان بطيء الزحف بقدر ما كان
 نابليون سريعاً فى الرجوع . وفى أثناء الواقعة ، التى نشبت خارج
 اسوار درسدن ، كان الدفاع أحسن حالا ، لوجود القيادة فى يد
 الأباطور : فبعد حرب استغرقت يومى ٢٦ و ٢٧ أغسطس ارتد
 الجيش البوهيمى إلى الحدود . ولو تابع نابليون ذلك الظفر بنشاطه

لما نفى نابليون إلى جزيرة إلبا سنة ١٨١٤ خضع ناي البوربونيين ؛ ولما فر نابليون إلى فرنسا ،
 بشت الحكومة ناي على رأس أرملة الافجندى ، للقبض على ولي لعمته القديم . غير له سلم جنوده
 لنابليون ، وانضم إليه ، وحارب معه فى واترلو . ثم لما لهزم نابليون فى تلك الواقعة ، حاول ناي
 الهروب إلى سويسرا فلم يفلح . وقبض عليه . وحكم عليه بالاعدام ، أمام مجلس الاعيان الفرنسى .
 وأعدم رسمياً بالرصاص سنة ١٨١٥ .

القديم ، لأن صبحت درسدن في صف بنا ، كواحدة من انتصاراته
 الخامسة . ولكن التاريخ حافل بأمثلة حوادث عظيمة ، كان للصحة
 والعافية أثر فعال وخطة مقطوعة في تكييفها : أظهر نابليون في أول
 أدوار تلك الموقعة مرونته وسرعته وقوة عزيمته الموهودة ، فرجع بالحرس
 إلى درسدن بسرعة تسعين ميلا في اثنين وسبعين ساعة . وفي اليوم الأول
 للواقعة ، أجلى جيشا مؤلفا من خمسة عشر ألفا عن مراكزهم بقوة
 تقل عن نصف ذلك العدد ، فاقصد اقتصادا حكيما في صفوف الاحتياطى .
 وفي اليوم التالى ، أخذ الهجوم الفرنسي يقل عن نشاطه العادى ، على رغم
 وصول أعداد عظيمة إلى الأمبراطور أثناء الليل ، حتى أن قلب الجيش
 النمساوى ظل سليما ، في حين عزم شقارزنبرج على التقهقر ، عندما وصلت
 إليه الأخبار ، في الساعة الخامسة صباحا ، تنبئه بهزيمة الجناح الأيسر
 من جيشه . فلو أن نابليون في أوج قوته ، لكان في مقدوره مطاردة
 فلول النمساويين ، وإلحاق العطب بصفوفهم ، لأن الجيش البوهيمى
 كان الجيش الرئيسى للحلفاء ، وكان يحتوى على نمساويين وروسين
 وروسين ، ويرافقه ملوك تلك الدول الثلاث ، وفي إلحاق الدمار
 به تأثير على أوروبا لا يمكن تقديره . كان الواجب أن يكون ذلك
 التدمير الغرض الاصلى من تلك الحرب ، لا سيما وأن الحظ والمهارة
 اجتمعا لنابليون ، وأفلح بعد لا شئ في إكراه شقارزنبرج على التقهقر .

وكان قينا به هنا الا يترك أى فرصة لتحويل التفهق هزيمة ، والهزيمة تسليما . لكن الأمطار هطلت كالسيل يوم ٢٧ ، وأصاب نابليون برد ، وأهك التعب بعد بقاءه على صهوة جواده خمسة أيام . فلما ابتداء العدو يلين تحت ضغطه اعتبر أن مهمته انتهت ، وأرسل في طلب جواده . ثم ركب إلى درسدن والمطر يتساقط من معطفه الرمادى . وفى الساعة السابعة مساء كتب إلى القائد برتييه أن العدو لم يتقهق بعد ، وأن كل القرائن تدل على أن واقعة عظيمة ستندب في اليوم التالى : وعلى رغم ما أتى به الند من تكذيب النبوءة ، ترك نابليون أمر المطاردة للقواد ، وبقي في درسدن ، فى حين أن فرقة القائد فاندام (Vandamme) ، التى أرسلت لقطع خط الرجعة على العدو ، أحيط بها . ودمرت عند كولم (Kulm) .

وفى أواسط سبتمبر نقص عدد الجيش الفرنسى فى سكسونيا من ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل ، وتقشى الهروب ، وغصت المستشفيات بالمرضى والجرحى ، وازدادت مصاعب التموين بسرعة خطيرة ، ولا سيما بعد هزيمة ناي فى ٦ سبتمبر . وكان الأمل الوحيد أن يقع أحد الجيوش المتحالفة فى شباك نابليون ، فيقضى عليه قبل أن يصل الاثنان الآخران لا نقاذه . غير أن ذلك الأمل كان بعيد الاحتمال ، وظل الأمبراطور شهراً يروح ويغدو بجيشه متخذاً درسدن مركزاً له ، فأجهد نفسه وجيشه ابتغاء الالتحام مع العدو ، ولم يوفق

إلى بغيته . هنا ابتداءً يستولى عليه شيء من التردد ، فلم يقطع بالتقهقر ؛
لكنه أكره آخر الأمر بفعل الحلفاء . ذلك أن بلوخر خرج من
سيليسيا في الأسبوع الأخير من سبتمبر ، وعبر نهر الألب ، واتصل
في ٧ أكتوبر بالجيش البروسي السويدي تحت قيادة برنادوت ،
منعطفاً من الشمال إلى خط رجعة نابليون ، بينما برز شقارزنبرج من
الجلال البوهيمية ، ودار دورة بطيئة من الجنوب لمقابلته . رأى نابليون
لما علم بتلك الحركة التطويقية ، أن يرسل مورا إلى لينزج لاثقال
شقارزنبرج ، إذ يحاول هو بالجيش الرئيسي أن يحقق الدمار بجيش
بلوخر . لكن سرعان ما ظهر أن بلوخر لا يقع في الشرك . لذلك
عكست الخطة ، وفي يوم ٢ أكتوبر ، بعد أيام انقضت في حيرة
مؤلة ، عزم نابليون على الانضمام بقوته إلى مورا ، وعلى هزيمة الجيش
البوهيمي الزاحف من الجنوب على لينزج ، قبل مجيء بلوخر
وبرنادوت لتجديده . دخل الإمبراطور لينزج ظهر يوم ١٤ أكتوبر ،
غير أنه انقضى يومان قبل أن يكون جيشه مستعداً للقتال في صبيحة
اليوم السادس عشر .

واقعة لينزج من الملاحم التي يحارب فيها جيش ذو عدد محدود
جيشاً تصل إليه الإمدادات تباعاً بعد ابتداء الواقعة ، فيظفر الأخير ظفراً
ميناً بسبب تلك الإضافات المتتابعة لكتلته . بدأ نابليون القتال
بجيش يبلغ عدده ١٩٠.٠٠٠ ، ضد خصم عدد رجاله ٢٠٠.٠٠٠ . على

ذلك كان عنده في اليوم الأول ، وبالأخص في الساعات الأولى من النهار ، فرصة صادقة في النجاح . فلو أنه وجه قواته إلى ليزج — كما كان واجبا عليه أن يعمل — بحيث يلتحم بجيش شقارز نبرج يوم ١٥ ، لقابل جيشا يقل عن جيشه بكثير ، لعدم تكامل جموعه ، ولكان من المحتمل الانتصار ؛ أو لو لم يترك نابليون ٣٠.٠٠٠ مقاتل في درسدن ، تحت قيادة الجنرال سان سير (St. Cyr) ، — تلك الخطوة التي رفضها مرة لنفسه — لتحسنت آماله في النجاح . وعلى الرغم من فتور الهمة ، وتضارب الخطط ، التي امتازت بها الأذوار الأولى في زحفه غربا ، فإن ذكاه عاد إليه . وفي ١٢ أكتوبر سبق النمساويين ، ووقف برجالة في الميدان بالسرعة المهدودة . إلا أنه أخطأ التقدير في مسألة حيوية ، ملخصها أنه بينما كانت الحرب مستعرة في القرى الواقعة جنوب ليزج ضد شقارز نبرج ، سمع نابليون فجأة دوى مدافع من شمال المدينة ، فركض إلى مصدر الصوت ، ووجد مارمون مشتبكا مع بلوخر البروسي الهرم ، الذي تقدم بسرعة نحو ليزج من الشمال الغربي ، وابتدأ يصب جام ناره على المراكز الفرنسية بنشاط ، حتى أصبح مستحيلا على نابليون أن يسحب رجلا واحدا لاستخدامه في الملاحم العنيفة ضد شقارز نبرج ، التي اعتمد عليها للحصول على تفوق حاسم .

كان يوم لينزج يوما عصيبا ، ومذبحة لاتنسى . وماجن الليل على نابليون حتى كان رجلا مقهوراً ، إذ فشل في تحطيم قلب الجيش البوهيمي ، أو بالحرى أخفق في اختراق أى نقطة في دائرة أعدائه . ولا غرابة في ذلك ، فإنه بينما بلغت خسائر نابليون مبلغا جسيما وصل شقارز نبرج مدد قوى بعد الظهر . في مثل ذلك الطرف تعد الضربة غير الحاسمة بمثابة هزيمة ، والقائد الحازم هو الذى لا يضع دقة في تخليص جيشه من مأزق يزداد خطورة ويأسا من وراء التأخير . ولشد ما كانت دهشة القواد لما لم يصدر نابليون أى أمر للتقهقر . وفي اليوم التالى — يوم أحد ماطر — كتب نابليون وهو في فسطاطه للإمبراطور النمساوى يقترح هدنة ، ويشير إلى التسليم . إلا أن أعداءه أدركوا أنه أصبح في النهاية في قبضتهم ، فعولوا على ألا تقبل الفريسة من أيديهم ، ورفضوا المفاوضات . ولما استؤنف القتال في اليوم التالى ، وهو الثامن عشر ، كان كل الاحتياطي النمساوى في الميدان ؛ وكان برنادوت قد زحف بجيش يبلغ ٦٥٥٠٠٠ ، لمساعدة بلوخر في الجهة الشمالية . ثم انجلى الجيش الفرنسى كرها عن لينزج ، بعد أن طوقته جيوش متفوقة ، وبعد الاستبسال في الدفاع عن كل شبر من الميدان . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أصدر الإمبراطور أوامره للتقهقر العام ، وظلت الجيوش الفرنسية تتدافع طول تلك الليلة نحو

المدينة ، لكي تعبر نهر إلستر (Elster) في صباح اليوم التالي . وفي ذلك اليوم وقعت الطامة الكبرى ، واندفع سيل الهاربين في هرج لا يوصف نحو الجسر الوحيد . هناك قابل القائد شاتو (Chateau) ، حوالى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، رجلا «و غريب البزة» ، وسط جمع صغير ، وعليه سيما أهل المدينة مطرقا رأسه ، سابحا في بحر من الفكر ، يردد أنشودة «و ما لبروك ذهب يحارب» ،^(١) . ذلك الرجل الغريب البزة هو الإمبراطور بعينه ، يردد الآنشودة القديمة ، بينما يمر سراجا في مخيلته ذلك المنظر المؤلم منظر جيشه المحطم المفلول . لم يبق بعد ليبرزج إلا التسليم للظافر ، لأن هيكلا الإمبراطورية تقوض من جراء تلك الهزة المركزية . إذ هبت ألمانيا لتطرح نير نابليون ، وانقلب الباقاريون من أحلاف إلى أعداء ، وحاربوا الجيش المتقهقر ؛ وأعلنت هولندا ولائها لآل أورنج ، وعقدت نابلي معاهدة مع النمسا ؛ وتبدد حلم الملكة الفرنسية في إسبانيا ، لما طارد ولنجن القائد سولت على جبال البرانس . وكانت الرغبة في الصلح شديدة في جميع أنحاء فرنسا ، لأن الطبقات الغنية والمتورة من الأئمة نظرت منذ سنين لأعمال نابليون بعين القلق والاستهجان .

(١) أنشودة فرنسية مشهورة مطلما :

“ Malbrouck s'en va-t'en guerre ”
 Mironton, mironton, mirontaine.”

أما وقد قفى جيشان عظيمان فى سنتين ، وتعطلت المصانع ، وخلت خزائن الحكومة ، وأصبحت الدولة مهددة بالغزو من الخارج ، أخس كل عاقل إحساساً شديداً بالنعمة الناتجة عن العبودية السياسية . ثم على الرغم من أن كتلة الفلاحين والمجنود كانت تميل لفكرة الأباطورية ، فإن الطبقة المفكرة من الأمة بدأت تستسلم للآراء الحرة ، وتنادى بصلاح مشرف ، وبسيطرة الأمة على السياسة العامة . وقد صرحت بلا وجل الهيئة التشريعية ، المكونة من رجال عاديين من الطبقة الوسطى ، بعدم ثقتها بالحكومة ، وبرغبتها فى الحرية الدستورية ، فأوقف نابليون المجلس الجسور عند حده بتأنيب عنيف . بيد أن الدول المتحالفة لمحت أنه لم يعد بين نابليون وفرنسا وفاق . هناك صنف من الناس يأبى التفكير أو الاعتراف بالالهانة . ولكن نابليون اعترف فى ساعاته الهادئة^(١) بأن اتحاد الرين كان ومشرعاً رديئاً ، وبأن الحصار القارى كان « وهافارغا » ، وبأن الأباطورية العظمى نعيم زال ولا يمكن استرداده أبداً . ولكن عزة نفسه أثبت أن تقبل تحكيم ضميره لما قال يوما ، وهو أمبراطور ، لمجلس الدولة ، وهو يحاوره : « أتريدون الهبوط من السماء التى رفعت فرنسا إليها ، وتصبحون ملكية بسيطة مرة ثانية بدلا من إمبراطورية فاخرة ؟ » .

(١) وهو فى جزيرة سانت هيلانة .

عز عليه أن يترك فرنسا أضعف مما جعلها ، أو مما وجدها . ولما جالت
في فكره مسألة تخلي أحلافه استولت عليه سورة الغضب ، وأقسم أن
لا بد من الانتقام ، إذ قال : « ولتحرق ميونخ ، ولتحرق على يدي » ،^(١) .
وكان عازما في حالة اضطراره إلى التسليم ألا يستكين للأهانة زما
طويلا ، بل يستعد في ظرف عامين للحرب ثانيا . وما دام هناك
بصيص نجاح في ميدان الحرب فسيجنب ذلة المصالحة ، ويعتمد على
الغلطات الحربية التي يحتمل وقوع أعدائه فيها ، وعلى احتمال تخلي
النمسا ، وعلى البسالة التي تنفجر عند ما ترى الأمة الفرنسية بلادها
تغزى . لذلك كانت خطته التسوية والمماطلة في المفاوضات ، حتى
يظهر أمام الشعب الفرنسي بمظهر المستعد للصلح ، بينما يترصد
للكاية بأعدائه عند أول فرصة .

كان ذلك التصلب في طبعه هو السبب في خرابه ، لأن خطة
الحلفاء لم تطلب في الأصل تنازل نابليون عن العرش ، أو تغيير الأسرة
المالكة . والدليل على ذلك أن الحلفاء بعثوا في نوفمبر سنة ١٨١٣ ، من
فرنكفورت رسولا إلى باريس ليعرض المفاوضة مع نابليون على
قاعدة الحدود الطبيعية لفرنسا : وهي نهر الرين وجبال الألب وجبال
البرانس . وفي ٤ فبراير سنة ١٨١٤ ، بعد أن أجيحت فرنسا ،

(١) ميونخ عاصمة بافاريا التي انقلبت على نابليون بعد واقعة لينج .

ووقعت أول هزيمة بالجيش المدافعة ، كان في مقدور نابليون أن يحفظ عرشه ، لو أنه قبل التنازل عن بلجيكا وسافوى ، والموافقة على حدود الملكية القديمة . كان الواجب على نابليون أن يصيخ لصوت فطنته الشخصية ، ويستمع لنداء الواجب الوطنى لعقد الصلح .

حدث بعد هزيمة نابليون عند لاروتير (La Rothière) ^(١) ، أن ظهر على نابليون كأنما قرأه على أن يطأ إلى الرأس ؛ إذ خول القائد كولانكور (Gaulaincourt) ، في ٤ فبراير ، سلطة غير محدودة للمفاوضة مع الحلفاء . لكنه كان في صبيحة اليوم التالى ممتداً على أرض غرقته ، يرقش مصوراً بالدبابيس . والسبب أنه بلغه في المساء أن الحلفاء قسموا قواتهم إلى فرق ، وأن شقارزنبرج سيزحف بالجيش الرئيسى إلى باريس ، متبعا الطريق الجنوبى المحاذى لنهر السين ، بينما يسير بلوخر على رأس قوة أصغر ، مكونة من البروسيين ، شمالا إلى وادى المارن . فلما جاء ماريه ، وزير الخارجية ، للتوقيع على التعاجات الصادرة للسفير ، لمح بريق الحرب فى عين سيده الذى قال : « و إنى عازم على هزيمة بلوخر ، ، . لكن على الرغم من تحقيق ظنه ، وإحراز ثلاثة انتصارات باهرة ، فإن هزيمة بلوخر أفقدت نابليون عرش فرنسا .

(١) كانت المزيمة التى لحقت بنابليون عند تلك البلدة الواقعة فى فرنسا نفسها ، على نهر أوب (Aube) أحد فروع السين ، فى فبراير سنة ١٨١٤ ، هزيمة منكرة ، إذ وقع من جيشه ٣٠٠٠ فى الأسر ، وخسر ٧٣ مدفعا ، فضلا عن ٥٠٠٠ جندي بين قتيل وجريح من جيش يبلغ عدده أربعين ألفا فقط .

كانت الحرب الدفاعية التي قام بها نابليون في وديان السين والمارن^(١) موضع الإعجاب ، إذ ظهر فيها كيف يتمكن جيش صغير ، يدير حركاته قائد ماهر واسع الخبرة ، يتحرك على خطوط داخلية ، من إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بعدو يفوقه عددا ، تموزه قيادة موحدة . من ذلك الانقضاض السريع على بلوخر عند تروى (Troyes) ، والثلاث ضربات المتوالية عند شامبوبرت (Champaubert) ومونيراي (Montmirail) وقوشان (Vauchamps) ، التي أفنت مقدمة الجيش البروسي على طول نهر المارن ، ثم الانتصار على الطلائع الجنوبية عند مونتيرو (Montereau) . كانت كل تلك الأعمال التي استغرقت من ١٠ إلى ١٧ فبراير كافية للدلالة على أن الإمبراطور لم يفقد شيئا من فنه القديم . ولكنها على رغم إيقافها لتيار التقدم مؤقتا كانت غير كافية لتقرير انتصار أحد الفريقين . عند ذلك عزم أحد أعداء نابليون أن يفتح لجيشه طريقا مهما يكفه الأمر . ذلك هو بلوخر ، الذي لم يكن نابغة ، بل جنديا غليظ القلب أميا ، يتأجج قلبه الوطني بالانتقام للعدلات التي لحقت بروسيا . فلم يابه للاضطراب الذي ساد المعسكر النمساوي ، ووقف لا يتزعزع ، لأنه كان من هؤلاء الذين لا يستكينون للهزيمة ، بل تقدم ثانية نحو الشمال الغربي ، وانضم إلى جيش روسي قادم من بلجيكا تحت قيادة بولو (Bülow) . وبذلك الأمدادات صد بلوخر نابليون إلى كراون (Craonne)

(١) انظر مصورفرنسا للتحقق من ميادين تلك الحرب للمائة .

ولون (Laon) ، فاصبح بذلك في مركز يسمح له إما بالزحف على باريس وإما بالانضمام إلى الجيش الجنوبي. اختار بلوخر الطريق الأخير، بينما تقهر نابليون شرقاً، ليهده خطوط مواصلات العدو، اصطدم عند أرسيس - سير - أوب (Arcis - Sur - aube) بالجيش الرئيسي لأعدائه . ومن المستحيل على ثلاثين ألف مقاتل ، قد أعياهم التعب ، أن يظهروا على مائة ألف كانوا نسبياً على أتم استعداد . لذلك صدّ نابليون ، لكنه على الرغم من ذلك ، واصل سيره شرقاً بضعة أيام، بدت فيها قدرته العظيمة . إذ يقول بعض النقاد باستحالة اتباع أية خطة أكثر ملائمة من الخطة التي هيأها نابليون في الأيام السابقة مباشرة لواقعة أرسيس : لأنه بجمعه حاميات الألزاس واللورين ، يمكنه تكوين جيش قوى يقطع به مواصلات الحلفاء ، ويزيد في انقسامهم . إلا أن الخطة نفسها أخطأت ، وبمجرد سماعه أن الغزاة يزحفون على باريس عزم على الاشتباك في آخر واقعة له قرب العاصمة ، لكن العدو سبقه إليها بثلاثة أيام ، وسلحت لقيصر روسيا قبل أن يتمكن نابليون من دخولها . ولما حيل بين نابليون وبين العاصمة على ذلك الوجه ارتد إلى قصر فونتينبلو (Fontainebleau) قرب باريس ، متشوقاً — لو وافقه قواده — إلى استمرار النزاع ضد سلام أوروبا ، والمصالح الحيوية في فرنسا . لكن القواد سئموا حالة قل فيها الرجاء ، فأرادوا الاطمئنان على مستقبلهم قبل ضياع الفرصة . وليس من الممكن أن نعتبر هؤلاء

الرجال القادرين المخلصين مجرمين ، لما أشاروا على نابليون بالتنازل ،
لعلمهم أن ملوك أوروبا أرادوا ذلك ، وأن مجلس الشيوخ قرر نفس
الطلب ، وأن جمهور الباريسيين متفق معهم . وكان أملهم أن يسمح
للإمبراطور بالتنازل لولده ، وأن تبقى الأسرة النابوليونية الحاكمة في
فرنسا . لكن القيصر ، الذي استولى تاليران على أذنه للتشفع لآل
بوربون ، قرر أن يطلب من نابليون التسليم بلا شرط . ثم قبل القواد
القرار بعد أن حاولوا تعديله بلا جدوى . وفي ٦ إبريل ألحوا على سيدهم
لكتابته تنازل عن عرشى فرنسا وإيطاليا ؛ وبعد ذلك بخمسة أيام
أضيت معاهدة تمنح نابليون السيادة على جزيرة إلبا ، وحرساً خاصاً
ومخصصاً مالياً . قبل أن نابليون تخرج سماً ليله رحيله من فونتينبلو
إلى جزيرة إلبا . ولكن التاريخ يكذب تلك الرواية ، فمثل ذلك القنوط
لم يكن من خلق رجل عرك الدهر ، ودرس كثيراً من مصادقات
الآقدار ، وشعر في أشد الأيام محنة أن عمله لم ينته بعد ، إذ قال يوماً :
« سأظل دائماً رجلاً فوق مستوى البشر » .

بينما يسير نابليون جنوباً مخترقاً ولاية بروقانس الملكية تشيحه
اللغات ، إذا برجل هرم شرس دميم مثقل بداء النقرس ، أقام مدة في
مزرعة جميلة بين المراعى الخضراء في مقاطعة كنجه مشير بأنجلترا ،
يتأهب لتولى الحكم في باريس^(١) .

(١) يشير المؤلف إلى لويس الثامن عشر ملك فرنسا جده نابليون .

لفصل العاشر

الدور الأخير

تعتبر الحلقة التالية في حياة نابليون أقرب حوادث التاريخ مضى نابليون في أوائل تلك الحلقة عشرة شهور يحكم مملكته الصغيرة ، ثم ما لبث أن أنسل فجأة بطريق البحر ، ونزل إلى شاطيء فرنسا على رأس ١٢٠٠ رجل ، وسار متجنباً أهل بروفانس الملكيين ، مخترقاً المار الجبلية حتى جرينوبل (Grenoble) ، ومنها أسرع إلى باريس دون وقوع حرب أو مناوشة ، وبدون تبادل إطلاق النيران ، أو إراقة قطرة من الدماء ، فوصلها وتسلم مقاليد حكم الدولة . وهنا لايفوتنا أن نذكر أن الجيوش التي أرسلت لرده عن باريس انضمت إليه بتأثير شخصيته الساحرة . وتفصيل ذلك أنه لما وقف رجال الفرقة الخامسة في طريقه عند ممر لافريه (Laffray) الضيق ، في الجهة الجنوبية لبلدة جرينوبل ، جاء إليهم نابليون فاتحاً معطفه الرمادي ، وطلب إليهم أن يطلقوا النار عليه ، قال : « يا أيها الجنود ! يمكنكم أن تطلقوا ناركم -

ألا ترون في عالمكم ؟ ألسن قاتدكم القديم ؟ ليس الطمع هو الذي حدا بي إلى هنا ، وإنما طلبنى من جزيرة إلبا الحسنة والأربعون رأساً المتولية أمر الحكم في باريس ، وقد وافقت الثلاثة الدول الأولى في أوروبا على رجوعي ، . عمى الناس عما ورد في قوله من الأضاليل ، وقابلوه على طول الطريق بحماسة شديدة . فلو كان الأرب البار بشعبه ، وقضى السنين الطوال في السهر على حل ضائقة العسر عن الفقراء ، لما كان من الممكن مقابلته بأكثر تهليلاً ، كما نسي الناس فجأة ضرائب أيام الحرب والحصار ، وضحايا النفوس . وبالاختصار افقتن الناس على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم بحديثه معهم ، لاسيما عند ما خرج من عربته ليعانق حداً جهورياً كهلاً ، وليطاور تلميذاً في تاريخ بلده ، وليتكلم مع أديب باهتمام عن رجمة سترابون^(١) ، ومع بعض المحامين عن عزمه على إصلاح قوانينه . ولما تسربت إلى باريس أخبار تقدمه الناجح ، وعدم القبض عليه ، انقلب غضب الملك قلقاً وفزعاً . وقتل . وما وصلت عربية نابليون إلى قصر التويليري ، مساء ٢٠ مارس ،

(١) ولد إسترابون (Strabon) الجغرافي الاغريقي الشهير حوالي سنة ٦٤ ق.م بمدينة أماسيا (Amasia) بأقليم بونتس (Pontus) جنوبي البحر الاسود . ومات في أول حكم الامبراطور طياريوس (Tiberius) . وله مؤلفان عظيمان أحدهما تاريخي ، ويشتمل على ١٧ كتاباً لم يصلنا منها إلا القليل ، والاخر جغرافي ويشتمل على ١٧ كتاباً ، وصف فيها بلاد الدولة الرومانية ، وأتى بنقد عن أخلاق أهلها وطبقاتهم ونظام أمهم وتعاليمهم .

للمطر حتى كان الملك الهرم قد غاب وحاشيته عن باريس ، وترك
المدينة لرجال الأمبراطورية .

لا يرجع السبب في تلك المعجزة إلى مؤامرة مدبرة . وإنما فر
نابليون من إلبا ، لأنه كان يحفظ بين جوائحه من النشاط ما لم يكن
في الحسبان ، ولم يجد في الأمور التافهة الخاصة بمملكته الصغيرة
ما يستنفد تلك النشاط . ونجح في الوصول إلى باريس ، لأن طبقتين
من الناس — الجنود والفلاحين — كانتا تودان أن تريا الحكومة البوربونية
تُجازى جزاء وفاقا على ما اقترفت من أعمال . وليس معنى ذلك أن
حكومة لويس الثامن عشر كانت فاسدة أو مستبدة ، بل أن سياستها
كانت قائمة على توطيد السلام وتخفيض النفقات ، فنحت بمقتضى
دستور مكتوب نصيبا من الحرية السياسية والمدنية ، أكبر مما تمتع به
الناس على عهد نابليون . إذن لا يحق لأحد أن يتهما بسوء النية ، أو
تعطيل نهوض الأمة . لكن عدم استنادها من أول الأمر إلى تأييد
الأمة ، جعلها تثير الشعور القوي ضدها ، بسبب سلسلة من الأعمال
غير الحكيمة . فمثلا أغضبت الجيش باتباع سياسة متطرفة في تقليل
النفقات ، وأغضبت الفلاحين بترويح الأمشاعات القائلة بأن نظام توزيع
الأرض ، الذى أحدثته الثورة ، سينسخ عما قريب .

بأزاء تلك الحكومة الرجعية الجامدة ، التى تولتها عصبة من

الملكيين ، لآخ نابليون كبطل الثورة الفرنسية : إذ علم كل فلاح ، أن « الأوباشى القصير » ، لن يطلب منه أن يرد الأرض التى كان يملكها المنتزح ورئيس الدير قبل الثورة ، وأنه مهما تكن الخسائر التى تبترج عن حكمه ، فلا خوف على الأقل من القسيس والمهاجر فى ظل نابليون ، ابن الشعب ، الذى يفهم عقولهم ، ويعرف ماتكنه قلوبهم ، والذى كانت صورته معروفة فى كل دار ، وأحاديث انتصاراته تروى وتردد فى كل مكان ، حتى أصبح مثل شارلمان جزءاً من الأساطير القومية ، يدعى باللقاب إعزاز طريفة ، وتؤلف حول شخصه قصص لا تحصى . أما حكمها المستجدون فكانوا على عكس ذلك ، لا تعرف عنهم فرنسا سوى أنهم عاشوا خمسة وعشرين سنة منفيين محتجين على أعمال الثورة الفرنسية ، وقد عمت أبصارهم عما أتته الأمبراطورية من الأعمال الجليلة . وعلى الرغم من كل ما أوتى شاتوبريان (Chateaubriand)^(١) من البلاغة فى أسلوبه ، الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد أسلوب روسو اكبر ملوك البيان فى النثر الفرنسى — فإن الأسرة القديمة لم تصادف

(١) ولد فرنسوا رينيه شاتوبريان (François René Chateaubriand) سنة ١٧٦٨ . هاجر من فرنسا إبان الثورة الفرنسية ، وظل عدة سنين يعيش عيشة ضيقة فى لندن . ثم تمكن من العودة لباريس سنة ١٨٠٠ ، واشتغل بالكتابة والتأليف ، حتى أصبح من يشار إليهم بالبنان . وفى أثناء ذلك دخل فى خدمة نابليون ، ثم استقال من منصبه بسبب إعطام اللوق دليجان ، واحتل بقتل بيندول الشرق . ولما سقط نابليون رجع إلى فرنسا ، ثم عين سفيراً لفرنسا فى إنجلترا فى عهد لويس الثامن عشر ، ومات عام ١٨٤٨ .

هوئى فى قلوب الناس : إذ كرهها البعض لسالف تاريخها ، واحتقرها البعض الآخر لماضيها السيئ ، وخشيت الأكرثية ماعساه أن تعمل إذا هي تسلمت مقاليد الأمور . أجل ! لم يكن هناك خوف على الدستور فى عهد لويس الثامن عشر ؛ لكن الكونت دارتوا أخوا الملك ، والوارث للعرش ، كان متعصباً دينياً ضيق الأفكار ، مبدؤه السياسى الحكم المطلق ، الخاضع لاشد طبقات الكنيسة تعصبا .

وجد نابليون ضالته فى تلك الحالة ، التى كان عليها الرأى العام من الريية والسخط . لذلك كان يجوس خلال الديار ، يتكلم أحيانا بلغة اليعقوبيين ، وأحيانا بلغة الأحرار ، مما يروق سامعيه . فكان يقول للفلاحين إنه يقف حياته على درء خطر المبادئ الاقطاعية والدينية ؛ ويقول لأهل المدن إنه فاتح اعتزل الحرب ، قد ندب على ما فعل ، وامتلاً قلبه بحب الحرية والسلام . ولما وجد أن لا شئ يمشاه الناس بوجه عام أكثر من ذكر الحرب مرة أخرى ، صور نفسه للثامن رجلاً ارتكب بلاشك أغلاطا أوحى بها الطمع ، غير كلف فى الحقيقة بحياة كلها فتوح خارجية ، أو بسياسة تمخذ أنفاس الناس فى الشؤون الداخلية . ثم أبان أن المثل الأعلى الذى سعى لتحقيقه مدة حياته ، هو تكوين اتحاد أوربي بقيادة فرنسا ، وأنه ليس من العدل أن يحكم الناس غايه بما أقامه من النظم فى وسط مشاغل الحرب

وأهوالها ، أو على السياسة التى كانت قسوتها نتيجة ضرورية لظروف متقلبة . وقال إنه كان يتوق للجمل فرنسا سيدة أوربا ، لكن النكبات التى حلت به علمته أن ذلك المطمع الذى سبقه إليه الكثيرون فوق المستطاع . على أن جزءاً لم يتحقق بعد من برنامجه ، لا يزال ممكناً إنفاذه ، وهو إعطاء فرنسا تلك النظم الحرة ، التى تأجلت بسبب صعوبات الحرب . بتلك التصريحات ، التى فاهبها ، حمل كارنو (Carnot) الجمهورى القديم على قبول وزارة الداخلية ، ودعا على الفور بنجامان كونستان (Benjamin Constant) ، كبير علماء شرائع الأمم ، من حزب الأحرار ، لرسم دستور جديد .

لو كان فى استطاعة الأمبراطورية أن تتمشى حقا مع الحرية والسلام ، لما وجدت الأمة الفرنسية حكومة أوفق لحاجاتها منها . وليس أذل على ذلك من أنه بعد وفاة نابليون ، بزمن طويل ، ظلت نظم الكنيسة والقوانين النابليونية والجامعة كما تركها مهندسها الأعظم ، كما ظلت التقاليد الفرنسية نابوليونية تحت حكم ولاية نبذوا نبذ النواة مالا مبراطورية من الحقوق . إنما الذى قلل من عظمة نابليون هو الشك ، الذى تحول اعتقاداً راسخاً بين الفرنسيين ، أن الحرب والاستبداد جزءان لا يتجزآن ولا يتغيران من طبيعة نابليون . وقد كان محو ذلك الاعتقاد أول ما عليه الحزم ؛ ولذلك عزم نابليون على إحاطة مبادئه الحرة الجديدة

برضى الأمة من طريق الاستفتاء العام ، وبالهبة التى تنتج عن الاحتفال فى باريس بنزوله على إرادة الأمة . وفى أول يونيه ، وسط جمع كبير دُعى إلى شان دى مارز (Champs de Mars) بباريس ، أقسم الأباطوريين الطاعة للدستور الجديد ، الذى ضمن حرية الصحافة ، ومسئولية الوزراء ، والحكم النيابى . ولكن الرسميات والاحتفالات لا تغير الحقائق ، التى منها أن وجود مجلس نيابى حر ووجود نابليون أمران لا يتفقان . والدليل على ذلك أن الأباطور على الرغم من قبول القانون الإضافى كان عازماً - كما نوه فى سنت هيلانه - أن يحل الهيئات النيابية فى أول فرصة يوفق فيها للانتصار فى الميدان . ثم إذا كان هناك أمل أن أوربا سترضى رضاء سلباً عن رجوع نابليون ، بعد ما قضت السنين الطوال ، وبذلت المهج ، فى سيل إخضاعه ، فقد أضحى الأمل سراباً : إذ لم تكد أنباء فراره تصل إلى قينا ، حتى اجتمع المفوضون عن الدول الثمانية الكبرى ، وقرروا أن نابليون أصبح طريد القانون . بعد ذلك مباشرة تماقت بريطانيا والروسيا والنمسا وروسيا على أن تجهز كل منهما ١٥٠.٠٠٠ جندي إلى الميدان ، وإيقاعهم تحت السلاح ، وحتى يصبح بونابرت عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأُمور من جديد ، . بيد أن نابليون على الرغم من ذلك كله ، لم يعدم الأمل من فصل إنجلترا والنمسا عن حلقة

أعدائه . وقوى ذلك الأمل في قلبه علمه أن مشادة وقعت في مؤتمر
فيينا بخصوص مصير بولندا وسكسونيا ، كانت روسيا بأزائها في جانب ،
وإنجلترا والنمسا وفرنسا في جانب آخر . وعلى الرغم من تسوية المسألة
بسلام ، حسب نابليون أن الشعور بالتباغض والارتياح لم يزل قائما .
على ذلك أرسل إلى النمسا وبريطانيا كتابا يؤكد رغبته في إقامة السلام ،
وقبوله الحدود المقترضة ، التي أصبحت لفرنسا ، فلم تقبل إحدى الحكومتين
وعوده . الحقيقة أنه لو كانت هناك فرصة لتغير موقف النمسا ، فأن تلك
الفرصة ضاعت في إبريل ، لما قام يواقيم مورا ملك نابلي من تلقاء نفسه ،
وخرج من نابلي ، وغزا الولايات البابوية ، داعيا الأمة الإيطالية إلى
الثورة ، وإلى قبوله ملكا على إيطاليا كلها .

فصل في النزاع بين نابليون وأوربا في بلجيكا ، حيث اجتمعت طلائع
جيوش الحلفاء ، المكونة من جنود إنجليز وهولنديين وبلجيكيين
وألمانيين تحت قيادة الدوق ولنجتن ، ومعها جيش بروسي تحت
كان بلوخر مصدر قوته ، وخنيسناو (Gneisenau) رأسه المفكر .
كان من المحتم أن يطلب نابليون عدوه في البلجيك ، حتى ولو اضطر
إلى ذلك بجيش قليل العدد . إذ من الحق من الوجهة الحربية ، ومن
الخطر من الوجهة السياسية ، أن ينتظر في وسط فرنسا ، حتى تعبر
جيوش الحلفاء الحدود . ولقد كان خير الطرق بلا شك أن يهزم نابليون

البروسيين والآنجليز ، قبل أن تتأهب جموع الروس والنمساويين
للانزول إلى ميدان القتال . وعلى الرغم من أن القوة ، التي كانت معه ،
لم تزيد كثيراً على نصف عدد جنود العدو — إذا استثنينا الجنود التي
خصصت للاحتياطى ضد قيم فتنة فى لاقنديه ولحمية الحدود —
فإن هذا الجيش على صغره كان مكوناً من جنود لا يقلون فى دربتهم ،
ولا فى نفسياتهم ، عن أى جيش قاده نابليون . ولذلك لم يكن مستحيلاً
أن يهزم نابليون بذلك الجيش أعداءه هزيمة منكراً ، وأن يستولى على
الأراضى المنخفضة ، وأن يثبت ثقة فرنسا به . لذلك أيضاً أعدت
منشورات محررة فى بروكسل ، لأرسالها من هناك بعد الانتصار .
لم تنتشر تلك المنشورات . غير أنه لو انتصر نابليون فى واترلو ،
لما أمكن تلافى النكبة ، التي لم يكن لوقوعها بد . ذلك أن الكتلة
العامة لجيوش الحلفاء — وكانت القوات المربطة فى بلجيكا جزءاً
صغيراً منها — بلغت ٨٠٠.٠٠٠ مقاتل ، تظاهروا قوات احتياطية
لاحد لها من الأمم الأوروبية الحاقدة ، حيث كان الشعور شديداً ،
لدرجة أن فرنسا مهما تحافظ على حماسها المتأججة ، التي جاشت بها
إبان الثورة الفرنسية ، ومهما يملك نابليون من النشاط النادر ، الذى
ملأه فى أحداثه ، فمن المحتم أن يخسر الحرب . هذا وقد تغيرت الحال
غير الحال ، فى سنة واترلو كانت فرنسا (إذا استثنينا جيشها النظم

الصغير) أمة زالت عنها الأوهام؛ وكان نابليون اليوم غيره بالأمس-
نعم أنه ظل مدهشاً في نشاطه وحسن تصرفه؛ لكنه كان أقل ثقة
بنفسه، وأقل شدة، وأقل تدقيقاً عنه من قبل. ثم لم يكن من
المتظر أن تشايحه أمة أصبح الرأي السائد بين الطبقات الوسطى فيها
المناداة بالسلم والحرية بمثل ما كان يشايح به قديماً من الشاء. ولم يكن
الرديف، الذي جنده بسرعة من البحارة والشرطة والحرس الأهلى
وحرس الجمارك، يصلح لأمداد جيش منظم - مع العلم أن نابليون لم
يستطع، على رغم ما بذل من المجهود، أن يحصل على أكثر من ٨٤٠٠٠
رجل. ظاهر إذن أن واقعة واترلو ليست إحدى الوقائع العالمية
الحاسمة، التى لو كانت نتيجتها غير ما كانت لتغير مجرى التاريخ.
فإن نابليون كان رجلاً مقهوراً قبل أن تدوى أول طلقة. غير أن
الواقعة معروفة بحق بأنها الحادثة الوحيدة، التى وجد نابليون نفسه
فى مواجهة الأستاذ الإنجليزى العظيم فى حرب المشاة، وبأنها الواقعة
التي انتهت عندها سيادة فرنسا فى أوربا، والتي ختمت ذلك النزاع
الطويل، الذى قام بين مبادئ الثورة الفرنسية وبين التقاليد الأرستقراطية
والكنيسة، الموروثة عن القرون الوسطى.

كان التفوق العددي الهائل فى جيوش الحلفاء هو العامل الأكبر
فى واقعة واترلو، حيث كان من المستحيل على الفرنسيين الانتصار

على قوات بلوخر وولنجتن مجتمعة . على ذلك كانت خطة نابليون أن يقطع وسط الخط البروسي الانجليزي ، الممتد على طول الحدود البلجيكية ، وأن يقضى على ما يأتى فى طريقه من أيهما . امتازت الأدوار الأولى فى تلك الخطوة بالسرعة والتكتم والدقة : فى مساء ١٤ يونيه اجتمع الجيش الفرنسى بجوار شارلوا^(١) ، فى حين أن القوى الانجليزية والروسية ظلت مبعثرة على خط يبلغ طوله مائة ميل ، من ليج إلى غنت . هنا حدث تأخير لم يكن بذى خطر كبير على آمال نابليون فى النجاح ، إلا أنه كان ذاقية عظيمة لاعدائه . ذلك أن عبور نهر السامبر (Sambre) ، الذى وجب القيام به بعد ظهر يوم ١٥ ، لم يتم إلا ظهر اليوم التالى . والنتيجة أن نابليون لم ينزل للقتال فى اليوم السادس عشر ، حتى كان الحلفاء قد أحاطوا بالخطمة علما . فأسرعت الجيوش الانجليزية والروسية للاتصال بعضها ببعض لمنع تقدمه ؛ ولم يحن ظهر ذلك اليوم إلا وقد جمع بلوخر عند ليني (Ligny) ثلاثا من الفرق الأربعة المؤلف منها جيشه (البالغ عدده ٩٠.٠٠٠ تقريباً) ؛ بينما أرسل ولنجتون الأمداد بسرعة إلى كاتربرا (Quatre Bras) ، على مسافة ستة أميال تقريباً غربى الخطوط البروسية ، الممتدة على طريق بروكسل - شارلوا . هذا وكان الدوق قد قابل القائد البروسى فى

(١) انظر مصور رقم ٧ - البلجيك - لمتحقق من ميادين آخر الحروب النابليونية .

الصباح ، ووعدته بالتقدم لمساعدته إن هو لم يهاجم .
من خصائص القائد العظيم أن يهيمن على حركات جيشه ، بحيث
يتمكن بسرعة من أن يجعل مركزه ملائماً لأي ظرف من الظروف
الفجائية المحتمل وقوعها . رجع نابليون إلى معسكره عند شارلوا
الساعة الثامنة مساء اليوم الخامس عشر من هوكتا ، لبقائه على صهوة جواده
سبع عشرة ساعة . غير أن قلبه دق طرباً ، لعلمه أنه نجح في عبور نهر
السامبر ، وأنه رد إلى الورا المراكز العسكرية الأمامية ، التابعة لفرقة
زيتن (Zielen) الروسية ، والتي أرسلت لسترموقف الحلفاء . وفيما عدا
ذلك لم تكن لدى نابليون معلومات وثيقة ، سوى أن الفرق الروسية
الأربع مبعثرة على مساحة واسعة ، وأنه لا يحتمل الثامها بسرعة للقتال
في اليوم التالي . ولذلك قسم جيشه قسمين ، نصب القائد ناى علي
الجناح الأيسر ، والقائد جروشى (Grouchy) علي الجناح الأيمن ، وأبقى
تحت قيادته احتياطياً يمد به أحد الجناحين حسبما تستدعى الظروف .
صدرت الأوامر إلى القائد ناى ليكون على تمام الأبهة للتقدم نحو
بروكسل عن طريق شارلوا ، وأعطيت تعليمات إلى الجناح الأيمن
للزحف على فلوريس (Fleurus) ، واما جهة من يجد هناك من
الروسيين . اعتقد نابليون أن الروسيين لن يتيسر لهم الوقوف أمام
زحف جروشى بأكثر من أربعين ألف مقاتل ، وأن ناى سيقا صعوبة

قليلة في اختراق المرا كز الإلمامية الشرقية ، التابعة للجيش الاتنجانزى
لهولندي . ومن ثم تحول الحال العامة بطيئها إلى أحسن ما يرام .
إذ بعد تحطيم الفرقة البروسية ذبر المحمية عند فلوريس ، بفضل تفوق
الفرنسيين ، يتحول الأمبراطور غربا لمساعدة ناى ، ويدخل بروكسل
في صبيحة اليوم السابع عشر ، ومن هناك يتقدم للقضاء على الجيش
المختلط تحت قيادة الدوق ولنجن .

وعلى الرغم من إخفاق ذلك التقدير إخفاقا تاما ، بسبب سرعة
التسام جيش بلوخر ، فإن خطط نابليون كانت موضوعة بحيث يمكن
تسويتها مع كفاءة نجاحها أكثر في الأحوال الجديدة . ذلك أنه لما
وجد نفسه عند لني أمام الجيش الرئيسى البروسى ، المؤلف من تسعين
ألف مقاتل — لا أمام جزء منه مكون من أربعين ألفاً — قرأه
على تطويق عدوه ؛ وأرسل إلى ناى يأمره أن يترك بجيشه ، أو على
الأقل بجزء منه ، الطريق المؤدية إلى بروكسل ، وأن ينقض على جانب
البروسيين ومؤخرتهم ؛ وقرر أيضاً أنه بينما يقوم ناى بذلك ، يشترك
هو على رأس ستين ألفاً مع البروسيين ليعيط بجناحهم الأيسر ،
ثم ينقض على جناحهم الأيمن وقلبيهم . بدأت تلك الخطوة في الساعة
الثالثة ، حين قال الأمبراطور لجيرار (Gérard)^(١) : « من الممكن

(١) ولد الكونت إتيان موريس جيرار (Comte Etienne Maurice Gérard) سنة ١٧٧٢ . دخل الجيش متطوعاً وأظهر مهارة فائقة . ولما ولد نابليون من جزيرة إلبا ، قد جيرار

أن يقرر مصير الحرب بعد تلك اللحظة بثلاث ساعات . وإذا نفذ ناي أوامري بدقة ، فلن يفلت من يده مدفع واحد من مدافع الأعداء .،،

كاد يتقرر مصير الحرب في ميدان ليني ، الذي كان آخر انتصارات نابليون وأشدّها في العنف ، مما نقش في قائمة الملاحم العنيفة التي اشترك فيها . إذ انجلى البروسيون عن مراكزم في الساعة العاشرة و٠ مدحورين اندحاراً لا يتصوره العقل ،، كما تنبأ لهم الدوق ولنجن- غير أنهم ظلوا قوة منظمة ، قادرة على التمهق بتماسك وانتظام . وعند الغروب وجه نابليون فرقة الحرس نحو قاب الجيش البروسي ، حتى أجلاه عن الميدان . لكنه لم يحرز النصر المنشود ، ويرجع السبب في ذلك إلى سلسلة طويلة من الغلطات اضطرته إلى الاشتباك في المعركة ، دون أن تحصله مساعدة رجل واحد من مركز قيادة ناي . وأول تلك الغلطات أن القائد ناي الشجاع المملوء نشاطاً ، الذي كان أركان حربه عبارة عن ياور عسكري فقط — تقدم على طول طريق بروكسل بتأنيه الممهود ، الذي جر عليه تلك المرة النكبات . فبدلاً من إقحام مراكز العدو في كاتربرا ، في الساعة التاسعة أو الحادية عشرة ،

فرقة في ليني وجرح في وافر . وبعد سقوط نابليون ، أبدت الحكومة الجديدة حيرار عن فرنسا . ولم يتمكن من العودة إلى الباحتى علم ١٨١٧ . وظل حيرار حتى عين مارشالاً في الجيش الفرنسي سنة ١٨٢٠ . واختاره الملك لوى فيليب وزيراً للحرية . وتوفي في باريس عام ١٨٥٢ .

حين كان أمير أورانج لايملك سوى ٧٨٠٠ مقاتل تحت إمرته ، فإنه أجل القتال إلى ما بعد الظهر ، حين وصلت الأمداد لعدوه ، الذي بلغ عدده أربعة أمثال عدده في المساء . ولذلك كان ناى غارقاً إلى منكبیه في كاتبربرا ، لا يستطيع أكثر من منع ولنجتن عن مساعدة بلوخر. على الرغم من ذلك كان هناك عامل لو استخدمه نابليون لثال النصر الكامل الذي ابتغاه لتقرير مصير القتال . ذلك أن فرقة القائد ديرلون (D'Erlon) المؤلفة من عشرين ألفاً ، والتابعة لقيادة ناى ، كانت تسير متأخرة نحو كاتبربرا ، حتى أتى في الساعة الرابعة وربع الساعة ياور عسكري من قبل نابليون بتعليمات مكتوبة ، تأمر الفرقة بالسير فوراً نحو لينى . فأنجحت الفرق الأربعة شرقاً ، حتى أصبحت على مرأى من نابليون في مكان غير متظر . إلا أن أمراً من ناى وصل إليها يلح في طلب العودة فوراً إلى كاتبربرا . أطاع ديرلون أمر رئيسه المباشر ، فدل بذلك على عدم تبصره ؛ وبذلك مضت تلك الفرقة ، المؤلفة من عشرين ألفاً ، في طريقها جيئة وذهاباً بين الميدانين ، دون أن تعمل شيئاً ؛ وكان من المحتمل أن تقرر مصير القتال في أحدهما .

كانت قيادة نابليون في الميدان حتى تلك النقطة ممتازة بعزم ومهارة . فقد أدهش أعداءه بالسرعة والتكتم في زحفه ، وأصاب موضع الضعف في مكان الاتصال بين الجيوش المعادية ، وأجلى البروسيين

بعد أن حملهم خسارة خمسة عشر الفا . إلا أن عدم التمكن من القضاء على بلوخر، قضاء سريعاً مبرماً، يرجع إلى أسباب لم يكن لنابليون عليها سلطان، مثل رداء التعاون بين فرق ناي، وغلطة ديرلون، وفساد أعمال أركان الحرب في كلا الجناحين. لكن، في صبيحة ١٧، وقع نابليون في غلطة خطيرة، لا تقل عن تراخي ناي في زحفه إلى كاتربرا، أو غياب ديرلون عن ميدان لينى . ذلك أنه استنجد ببناء على خليط من التهاون واعتلال الصحة والأعياء، لآبناء على تمحيص الحقائق تمحيصاً كافياً أن البروسيين لم تعد فيهم قوة للقتال، وأنهم يجرون أذيال الخيبة في حيرة مرعبة تاركين ولنجتى، متبعين طرق مواصلاتهم عن طريق نامور وليسج . لذلك تخلل حركاته الحربية ساعات كلها سكون كان فيها حقه : مثلاً طاف راجياً حول ميدان القتال لترويح النفس، وتحدث مع قواده عن الحالة السياسية في باريس، بل وفكر في تسريح جيشه للراحة يوماً كاملاً . ولم يصدر التعليمات النهائية إلى جروشى إلا عند الظهر، ليتعقب البروسيين على رأس ٣٣,٠٠٠ مقاتل و ٦٩ مدفعا؛ ولم يذهب لنجدة ناي إلا الساعة الثانية بعد الظهر . فلو أنه قام بذلك الزحف قبل ذلك بأربع ساعات، لأمكنه مهاجمة الدوق ولنجتى بجيش يبلغ ضعف عدد جيش الدوق. إنما الذي حصل أنه جاء متأخراً قليلاً ليفسد حركة التفهمز، الذي سببه المطر الهاطل

كالسيل ، وما قامت به الحيلة البريطانية من الأعمال الباهرة (١) .
 في تلك الليلة المظرة من يوم السبت اتخذ الدوق مركزه على
 مون سان جان (Mont St. Jean) ، وهي أكمة واقعة على مسافة أحد
 عشر ميلا جنوب بروكسل ، اختارها الدوق بثاقب نظره لصلاحيها
 لآساليه في الدفاع . وفي مواجهته ، على بعد ١٣٠٠ ياردة ، مرتفع
 معروف باسم لابل أليانس (Le Belle Alliance) — نسبة
 لاسم مزرعة واقعة على قته — كانت تصل طول الليل كتائب متسالية
 من جيش متعب جائع يقوده نابليون . إلا أن الأباطور كان أثقل
 مدفعية وأكثر رجالا : إذ كان يمكنه أن ينصب ٢٤٦ مدفعا مقابل
 ١٨٤ ، وكان يمكنه أن يسير ٧٤٦٠٠٠ مقاتل مدربين مقابل ٦٧٠٠٠٠
 منهم أربعة وعشرون ألفا فقط من الأنجائز .

حصل الاتفاق على الدفاع عن مون سان جان بعد التحقق من
 إرسال مساعدة بروسية . وفي باكورة يوم ١٧ ، تلقى ولنجتن
 خبرا مؤداه أن البروسيين يتقدمون ، لا شرقا كما كان يتوقع نابليون ،
 بل شمالا في اتجاه الوافر (Wavre) — وهي قرية على بعد ثلاثة عشر
 ميلا تقريبا من ميدان واترلو . رد الدوق على الضابط ، الذي حمل إليه .

(١) علم الدوق ولنجتن بواقعة لينى في الساعة السابعة صباحا . لما نابليون فلم يصله شيء من
 اخبار القائد ناي ، ولم يكن في مقدوره حينئذ ، بعد تلك الواقعة ، أن يتحرك قبل الساعة الثامنة
 صباحا . (المؤلف)

ذلك النبأ ، أنه إذا أمكن الاعتماد على المساعدة ، ولو بفرقة بروسية واحدة ، فإنه يظل في انتظار نابليون عند مون سان جان ، ويشتبك معه في القتال ، وإلا يكون مضطرا لتضحية بروكسل ، وللتقهقر إلى ما وراء نهر الشلت . ثم وردت رسالة ، في ساعة متأخرة من مساء السبت إلى مركز القيادة البريطانية العليا ، أدت إلى تقرير الانتظار . ومؤدى تلك الرسالة ، أن جيش بلوخر يتجمع عند الوافر ، وأن في إمكان الدوق أن يعتمد على مساعدته . وعلى ذلك لم يكن من سوء التقدير ، مع اعتبار الأحوال التي تملأ مفترق الطرق ، أن تصل المدافع البروسية حوالى الظهر ، فتصوب نيرانها على الميمنة الفرنسية ، وتخفف الضغط الواقع على المراكز البريطانية .

كان ولنجتن هو المنتظر في تلك اللعبة ، بينما كان الدور على نابليون . وكانت الخطة الانجائزية تنحصر في الدفاع عن أكمة مون سان جان ، حتى تصل الفرقة البروسية الوحيدة ، التي انتظرها ولنجتون ، والتي قال بدقته المعهودة إنها الشرط الأساسي للنجاح . غير أن نابليون تأخر حتى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحا لبدء الهجوم ، مع أن الحالة كانت تستلزم الاهتمام بالدقائق والثواني . وقد علل ذلك التأخير بوصول بعض الأمداد الفرنسية بعد الأوان من جهة ، وبالحالة الأرض ، التي جعلتها الأمطار أحوالا

تتمرد معها نقل المدفعية والخيالة من جهة أخرى . ومهما تكن أهمية تلك الاعتبارات ، فإن نابليون لم يكن ليحفل بها ، لو أنه ظن أن تسعين ألفا من البروسيين ، على مسيرة أربع ساعات من معسكره ، قد عقدوا النية على الانضمام لولنجتن في أثناء اليوم . إلا أن نابليون ، على الرغم من وصول خبر من القائد جروشى فى الساعة الثانية صباحا ينبئه باحتمال زحف البروسيين نحو الواقع ، استبعد احتمال إفساد بلوخر عليه كل حركاته الحربية ، على اعتقاد أن الجيش الروسى قوة قهرت وخارت عزائمها ، لا تزيد على أربعين ألفا ، ولت الأدبار ، وشطرت شطرين : انساب الأول شرقا نحو لسيج ، والثانى شمالا نحو بروكسل . وعلى ذلك أرسل فى الساعة العاشرة صباحا رسالة إلى جروشى لمهاجمة البروسيين عند الواقع ، ولم يهلع كثيرا لما عرف ، عند الساعة الأولى بعد الظهر ، أن فرقة بولو القائد (Bulow) البروسية على مدى البصر : إذ عدها فرقة واحدة لا تزيد على ثلاثين ألف مقاتل ، وليس وراها ما يظاهرها ، فلو تحرك جروشى بسرعة من جمبلو (Gembloux) ، لا أصبحت تلك الفرقة بين نارين ولقضى عليها القضاء الأخير . فى ذلك الوقت قال نابليون للقائد سولت : " كان بيدنا فى هذا الصباح تسعون بنطا فى صالحنا ، والآن لا يزال عندنا ستون مقابل أربعين " .

بذلك التفاؤل الذى يترتب طبعا على الشجاعة والحيلة ، والذى

يكون أحيانا حليف الرأي العنيد ، أزدري نابليون ولنجتن ورجاله .
فقد قال لسولت ، الذى أسف لفصل قوة كبيرة كتلك التى ذهبت
تحت قيادة جروشى ، لأنه عرف الانجليز فى الحروب الأسبانية :
« وؤكد لك أن ولنجتن قائد ردىء وجيشه ردىء مثله » . ثم أنه لم
يصدق رى (Reille) ، وهو قائد آخر شهد الحرب الأسبانية ، فى
قوله أن المشاة البريطانية لا يؤثر فيها الهجوم المباشر ، ولا يمكن التغلب
عليها إلا بالخدع العسكرية ، بل عقد النية على استخدام خطط المفاجأة
السريعة ، التى خدمته فى كثير من وقائعه ، والتى توجت بالنصر حديثا
عند لى ؛ فباعت الصفوف الانجليزية الضعيفة ، ثم يخترق قلب
الجيش البريطانى بهجوم أمامى عام ، بعد أن يصلبه ناراً حامية من مدفعية
المركزة . ولقد كان المزمع أن يستعين نابليون فى إنفاذ تلك الحركة
بعملية تضليل قصيرة نحو مزرعة هوجومنت (Hougoumont) الواقعة
يقرب خط تقدم الجناح البريطانى الايمن . وبعد أن أتم نابليون
كل شئ ، جلس إلى خوان صغير وأمامه مصوراته ، وتوقع أن يوم
الواقعة الستين من وقائعه سيكون يوما مجيدا .

اتخذت واقعة واترلو إجمالا شكل سلسلة من الهجمات الهائلة ،
تظاهرها نار حاصدة من المدافع عن يمين قلب الخط البريطانى ويساره ،
وسلسلة من المقاومات المستبصلة من الجيوش البريطانية والألمانية .

حصل في توجيه تلك الهجمات المشهورة غلطان مهمتان ، ربما كان نابليون بريثا من ارتكابهما : ذلك أن الهجوم العظيم الذي بدأته فرقة القائد ديرون على قلب الجيش الإنجليزي ، في الساعة الواحدة بعد الظهر ، كان مكونا من أربعة أقسام ضيقة الجبهة عظيمة الطول (بالنظر إلى أن القسم كان مكونا من ثمانية أوطر مصطفة الواحدة تلو الأخرى) . فكانت فرقة ديرون هدفا بديما ليران المشاة البريطانية ، في حين كانت قوتها على إجابة تلك النيران غير وافية . غير أنه جرت عادة نابليون أن يترك الحركات الحربية الصغيرة لقواده ، ولذلك فالنظام الرديء الذي سارت عليه هجمة ديرون ، غلطة يسأل عنها القائد دون رئيسه . أما الغلطة الثانية فكانت أشد خطرا من الأولى ، إذ ترتب عليها كل الأدوار التالية في القتال . وتفصيل تلك الغلطة أنه في منتصف الساعة الرابعة ، والمشاة البريطانية لم تنزعزع بعد من مراكزها ، أسرع ناي مخترقا عرض الوادي — لو صح أن نسمى المنخفض القليل العمق الواقع بين المرتعين بذلك الاسم — على رأس قوة كبيرة من الفرسان لمهاجمة المشاة في أرضهم . حين إذ ذاك ابتدأت سلسلة من الهجمات الراكبة العنيفة ، التي ضاعت سدى ، ضد البسالة المتينة التي أظهرتها المربعات البريطانية والألمانية . ومعنى ذلك أن الهجمة الأولى كانت بلا شك سابقة لأوانها ، ولم تنزعزها قوات كافية . إلا أن هؤلاء الذين

يعتبرون أن كلمة تخرج من فم نابليون ، أو حركة حربية يأمر بها ، منزهة عن الخطأ يعتقدون أن الهجوم ابتداء بدون علمه .

كسبت الواقعة بفضل مهارة ولنجتى وشجاعته ، وثبات الجيوش الالمانية والالمانية، وبفضل زحف البروسين، الذين بدأوا يؤثرون في مرا كز نابليون بعد الساعة الرابعة مباشرة، ولم تأفل شمس اليوم حتى حولوا ارتداد نابليون هزيمة منكرة . ولو أن جروشى توخى السرعة ، لأمكنه تأخير الزحف البروسى ، غير أنه كان من المستحيل عليه منع: إذ كان عند بلوخر ما يكفى لمحاصرته ، وفوق ذلك فرقان لمساعدة ولنجتى. ولكن هل كانت تتغير نتيجة الحرب، لو أن نابليون اقتصر على إرسال ثلثة من الفرسان بدل فرقة كاملة لتعقب العدو المتقهقر من لىنى؟ أو لو أنه أرسل الحرس القديم أكثر تبكيرا ودفعة واحدة؟ ذلك محتمل ، ولكن لا يمكن الجزم بما كان يحصل . ربما ارتكب نابليون غلطات ولكن عقله كان صافيا ونشيطا كعادته. وعلى رغم توقعه صبيحة يوم ١٧ ، كانت أعماله فى أثناء القتال فوق طاقة رجل عادى: فإنه استيقظ يوم واترلو — وكان يوم أحد — الساعة الواحدة صباحا ، وطاف بالمواقف الأمامية ، ثم عاد فى الساعة الثالثة، فسمع تقارير الكشافة والعيون ، وأصدر أوامر جديدة . وفى الساعة التاسعة ركب إلى ميدان القتال ، حيث بقى حتى الليل مشرفا على مجرى الحركات الحربية ،

ومُصدِّراً الأوامر بمهارة وعزم ومثابرة . ولما انكسر الجيش انكساراً لا يجبر ، بذل كل ما فى وسعه سدئ ليلم شعث الهاربين ؛ ثم ركب مسرعاً ، حتى وصل إلى شارلڤيل (Charleville) ، الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى . ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن نابليون لم يسترح أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وأنه بقى ممتطياً جواده أكثر من سبع وثلاثين ساعة ، أثناء أربعة الأيام الحرجة التى استغرقها القتال . ظل نابليون يغالب القدر المحتوم حتى بعد وائرلو ، وذلك من خصائص نفسه الوثابة . كتب من فيليبڤيل (Philippeville) إلى أخيه يوسف يقول إنه مازال من الممكن تعبئة ٣٠٠٠٠ رجل ، وأنه مع المثابرة والشجاعة يحتمل إنقاذ كل شئ . وفى الشرة التى حررها لجريدة المونيتور (Le Moniteur) يوم ١٩ يونيه ، صور النكبة كنتيجة فزع مجهول السبب فى ساعة الانتصار . ولما وصل باريس يوم ٢١ يونيه ، كان أول ما جال برأسه أن تمنحه الهيئة التشريعية سلطة ديكتاتورية لأنقاذ الدولة . لكنه لم يعد رجل أيام انقلاب برومير . ولما أصرت الغرقتان التشريعتان على تنازله فى الحال لم يقو على الامتناع . وفى ٢٢ يونيه وقع على التنازل ؛ وبقي بضعة أيام فى باريس ، والراع تهتف له عند قصر الأيڤيزيه (Elysée) ، يفكر هل يثير الروح المعنوية ، ويذكرى نار فتنة داخلية . إلا أن النفس الأباطورية ، التى جعلته

قديماً بزدري الرعاع ، أنقذته من خاتمة غير مشرفة كهذه . وبينما هو ينسحب إلى قصر ماليزون (Malmaison) ، ابتداءً فكره يتحول إلى حياة جديدة في أمريكا يصرفها في الكتابة والأشياء . وفي ٢٥ يونيه كتب رسالة وداع إلى الجيش الفرنسي ، تعد من أعلى صحف الأدب ، إذ ضرب فيها بأسلوبه الثرى الجلى على نعمة الثقة بالنفس وعواطف الرجولة . ثم جاءت الأنباء ، بعد ذلك بأربعة أيام ، بأن الروسيين تحت قيادة بلوخر صاروا على مقربة من باريس ، فالتخذ طريقه نحو البحر ، بعد أن رفضت الحكومة المؤقتة بخشونة ما عرض هو عليها من خدمة فرنسا كفائد تحت أوامرها .

ولما رأى أخيراً أن الأرض لم تعد آمنة ، وأن البحر يهوج بالطرادات الانجليزية ، أظهر فضيلة اقتضاها الضرورة ، وكتب إلى الأمير القيم في إنجلترا كتاباً يعلن « أنه أتى مثل ثيمستوكليز ^(١) ، ليحتمى بكرم الأمة البريطانية ، وليطلب الحماية تحت قوانينها . قد يأسف قارئ التاريخ أن حياة حافلة بمختلف الأعمال وأبهراء مثل حياة نابليون ،

(١) ولد ثيمستوكليز (Themistocles) في أثينا حوالي ٥١٤ ق . م . وهو سبلى كبير ، أصبح الزعيم الأكبر في أثينا ، وإليه يرجع الفضل في إقناع البلاد من حكم الفرس . ثم تغيرت الحال ، وأصبح مكروها من قومه لصلفه وكبريائه . وفي عام ٤٧١ ق . م . اتهم بالاحتلاس في أموال الدولة ، فحكم عليه بالابتعاد ، فرحل إلى بلدة أرجوس (Argos) ، حيث لهم بالتأمر على الحكومة القائمة ، فهرب إلى آسيا خوفاً على حياته ، وتزل على ملك الفرس فأكرم وقلدته ، وطش هناك في رغد من العيش في بلدة مغنيسيا (Magnesia) حتى مات .

لم تصادف خاتمة سارة بين الأشراف الأنجليز ، أو في جو الجمهورية الأمريكية الحرة . لكن الحكومة البريطانية ، لما عليها من الواجب نحو السلام العام في أوروبا ، ولعمدها مع الحلفاء ، كانت مضطرة للعمل على ألا يعود نابليون لأزعاج العالم بدوى مدافعه مرة أخرى . لذلك أرسل إلى جزيرة صخرية ، في مهب العواصف ، في أقاصى المحيط الأطلسي . وهناك في الخامس من مايو سنة ١٨٢١ ، كان نابليون دمرى كغليون هائل يحمل بالسكنوز ، ناء بأثقاله ، قائمة أدقاله في وجه الأفق الغربي ، . وبعد مرض مبرح طويل تحمله بشجاعة ، استغفر نابليون الاستغفار الأخير عن تلك الخطيئة القديمة ، التي لم يجتأعن أصلها ، لا لقينها ترجع إلى النزاع بين الثورة الفرنسية ، والنظام الأوربي القديم . وقضى وهو في السنة الثانية والحسين من عمره ، وكان أكبر من ولجتن بثلاثة أشهر .

يتمنى كل شخص لو أن نابليون وقع في واترلو ، وهو يقود حرسه القديم ، وشفق الليل ينتشر في عرض السماء الصيفية . غير أن الأسر في سنت هيلانة ، مع ما شفق عن الجانب الحقير من حلق مختلط ، لم يخل من الأهمية التاريخية ، ولا من ثمرات السمو الفكرى . ذلك أن حياة نابليون العملية لم تنته بصعوده إلى ظهر السفينة بليروفون (Bellerophon) التي حملته إلى منفاه ، ولا بنزوله إلى ميناء جيمستون (Jamestown) في جزيرة سانت هيلانة ، بل بقيت في رأسه سياسة

يريد اتباعها، ودور يريد أن يلعبه . قال في سانت هيلانه : « سترهن الأيام أن واقعة وائرلو خطر على الحريات الاوربية ، كما كانت واقعة فيليبي (Philippi) ^(١) خطراً على حريات الدولة الرومانية » . وفي وسط الظلام الرجعي الذي تنبأ نابليون بحلوله ، أبصر من بعيد بارقة أمل للابن الصغير الذي لقبه يوما ملك روما . ولقد وضع أمله في قيام فرنسا يوما ضد أسرة نصبت عليها بقوة الجيوش الأجنبية ، أسرة تميل إلى نظام بائد ومذهب عتيق ؛ واعتمد على أنه بمجرد بزوغ شمس ذلك العصر الحر ، سيذكر الفرنسيون الأمبراطورية وحكومتها ، التي قامت على أكتاف الشعب تدعما الأنظمة الحديثة ، وتحيط بها هالة من الفخار . لذلك وضع نابليون في محادثاته ومذكراته في سنت هيلانه تلك الأوجه من حياته وسياسته ، التي كانت أكثر قبولا في عصره ؛ وأملى ملخصات عن الحروب الأولى في إيطاليا ومصر والشام ، حينما بنى أساس مجده في خدمة الجمهورية ؛ وقال عن نفسه في بعض تلك المحادثات إنه الصديق المخلص للسلم والحرية والحقوق القومية . وكذلك كانت وصيته السياسية خليطا من الحقيقة والرياء ، مكتوبة بروح عصر مستقبله قريب . ولقد عاش على اسم تلك الوصية ابن أخى

(١) فيليبي بلدة قديمة في مقدونيا ، بناها فيليب أبو الإسكندر الأكبر ، وكانت مشهورة بنجاح القهب والفضة فيها انتصر أوكنافيوس ومانطونيوس ، سنة ٤٢ ق م ، على الثائرين الذين قتلوا سيدهم يونيوس فيسر ، فانتقموا له ؛ وقبضا على أزمة الأمور من بعده .

نابليون ،الذى تولى إمبراطورا على الفرنسيين يوم ذكرى مرور السنة السادسة والا ربعين على واقعة أسترلنز ، وبعد ذلك بقليل كان من مؤسسى الوحدة الإيطالية .

حدث نابليون يوما عن نفسه فى سنت هيلانقال : وواتى جلمود صخر قذف فى القضاء ،، ، فصور شروده الجنونى فى التاريخ بشهاب ثاقب . ولا عجب فأنه لما استعرض بأعجاب حياته المدهشة ، اعتقد أنه ليس من المخلوقات التى تسلك المعابر الضيقة المحدودة ، بل قوة عنصرية من قوى الطبيعة، مجردة عن الحب والكراهية ، أخرجت للعالم، وسيرت بحكم تنازع البقاء الكامن فيها . ورأى أن كثيرا ماعلق صغار الرجال حياتهم على مبدأ واحد ، وتمسكوا بنظريات قديمة ، واحترموا تقاليد شعوبهم ، فكانوا نظريين مقيدين بوساوس الطبقات المفكرة التى عاشت بين ظهرانيهم. أماعطاء الرجال فيعملون كوميض البرق . ومن لوازم عظمتهم أن يسيروا إلى الأمام بقلب ثابت ، وأن يتجرّدوا من الاحساس بالتعب الناتج من المضي فى الأمور ، وأن يكونوا ممن لا يشعرون بفعل الإرادة حتى فى أشد الحالات . قال نابليون فى ذلك الصدد : ووالرجال القوى هو الذى يكون كل شىء عنده معناه العقل والحركة فى وقت واحد ، بحيث يقرر بسرعة مايرتأيه بعد تفكير عميق ؛وحينئذ فشجاعته كلها قطعة واحدة ،، . ذلك

ما جعل حياة نابليون عجيبة ؛ لكن الذى يدعو إلى عجب أكثر أنه اعتقد في كثير من الأحيان أن حياته كانت من لزوميات العصر للقضاء بدقة وحزم على تقلب الظروف وشدة الاحوال .

دلت الماسات التى وجدت مخيطة بالمعطف ، الذى تركه نابليون فى عربته بعد وائترلو ، على الروح التى سار بها فى حياته الجريئة ، وهو يشعر دائما ، حتى فى أوج عظمته ، أنه يمشى على شفا جرف . أجل ! يعرف كل مطلع كيف كان نابليون وهو إمبراطور ، ينسل من قصره ، ليتحدث إلى العمال وأرباب الحوانيت ، ليعرف الشعور السائد فى المدينة . وكذلك ما كان للقوة أن تنتج أمانه ، أو أن تهدىء الأحساس بالخطر الذى يأتى مع حياة منصرفة إلى الأشياء العظيمة . وهكذا ظل نابليون طول حياته كالقرصان يتربأ أعداءه ، ويشتم أقل ريح للخيانة فى الجو .

ولقد ملئت كتب بذكر أعماله الطيبة وكلماته الحسنة ، وكأها تدور حول أن نابليون ، فيما عدا الظروف التى تضاربت فيها الأبطال ، كان دائما مملوءا لطفًا ونجدة . نعم إنه أراق دماء بلا حساب ، غير أنه لم يرقها جزافا ، بل استخدم القسوة بقدر ما استلزمت الظروف ، مع الاهتمام بوضع السيف فى موضع السيف . مثل ذلك أنه وافق متكرها ، وهو قائد صغير ، على إعدام ٢٥٠٠ أسير تركى ، ساموا الضباطه بشرط

أخمان حياتهم . ومن الغريب أن يدافع بعض النقاد عن ذلك العمل ، حتى في العصر الحديث ، على مبدأ استحالة الوثوق من الأسرى إذا تخلى سبيلهم ، واستحالة إطعامهم إذا أبقوا . ثم يمضي الزمن صيرت الحروب نابليون لا يهتز للمذابح ، يشهد بذلك أنه كتب في وصف المذبحة الشنيعة التي حدثت عند بور ودينو يقول إنها « أبهى موقعة » ، رآها (١) .

لما أوسع الفرق بين ذلك وبين وصف ولنجتزئ عندما حدثت اللادى شلى (Lady Shelley) بعد موقعة واترلو ! قال : « أطلب من الله أن تكون هذه آخر موقعة أشترك فيها . لما أكون في وسط المعركة ، أكون مشغولاً بدرجة أنني لا أحس بشيء . لكني أشعر بالحزن بعد ذلك مباشرة ، حتى لا أستطيع التفكير في العز والفخر ، لأن العقل والعواطف تكون منهوكة . وأني أشعر بالشقاء حتى في ساعة الانتصار ؛ وأعتقد أن أكبر شقاء بعد شقاء الهزيمة هو النصر » .

على رغم أن نابليون كوّن بعض أصدقاء مخلصين ، وظل طول حياته قادراً على المصارحة والملاطفة في أحاديثه مع كل أصناف وطبقات الرجال ، إلا أنه كان لا يعتمد عليه في حسن الذوق أو الصدق أو عمل الخير . كذلك لا يمكن اختياره كمثل للفضيلة في الأمور الداخلية . وإن

(١) نقلاً عن خطاب تحت يد اللورد كروفورد اقتبس المؤلف منه تلك العبارة : —

“C'est le champ de bataille le plus beau que j'ai encore vu.”

(المؤلف) .

قائمة المحبوبات ، اللأئي كان يجري وراءهن بدون احتشام وبدون عواطف
في أوقات فراغه، تكفى للدلالة على أنه لم يكن أعلى أو أحط من
المستويات المعتادة في عصره بين أمثاله . على ذلك لم يكن نابليون طاهر
الذيل ، إلا أنه لم يكن عبد شهواته ، ولم تقم السياسة الفرنسية على
النزء عن المحسوية والدسائس مثلما قامت في أيامه ، منذ أيام سان
لويس : أذ وقف نابليون يدير شئون الدولة ، ودليله أطماعه الهائلة ،
لا يحيد قيد أمثلة ، في وسط ممثلي بأحداث النعمة المتراحمين النهمين .
ولقد كان قلب نابليون ينبس بالجمال الأماكن ذات الاتساع العظيم ،
وللصوت الغامض الذى يصدر من تموج البحر ، والجمال الصافي المنبعث
من الليالى المتألقة بالنجوم . أما ماخفى من صائر محاسن الطبيعة مثل
ميل زهرة ، أو حسن لونها ، وتغريد طير ، ونقش الشتاء على شجرة ،
فلم تسترع نظره ، وأن استرعت ، فأنها تنبذ كما تنبذ روايات راسين ،
التي كان يمتزها صالحة فقط للشبان . وتفسير كل ذلك أنه كان من
ضروريات ذوقه في الجمال أن يكون الشيء عظيما ، ومن ضروريات
ذوقه في العظمة أن يكون الشيء مما يرفع الأخلاق ، ويقوى الإرادة .
أمام جلائل النيات . ذلك أيضا هو تفسير عدم ميل نابليون للخيال
والفسكاهة والطرب ، وخفة الروح ، وحب الجمال من أجل الجمال ،
وغير ذلك من العناصر اللازمة لحياة الفنون وتقدمها . قال في ذلك الصدد :

«وآه ! أيها الذوق الجميل : توجد إحدى عباراتك القديمة لا أعتقد بها . إن ما يسمى أسلوباً سواء أكان حسناً أم رديئاً لا يؤثر في . إنى لا أتأثر إلا بقوة الفكر ، ، . على ذلك لم يكن قياسه للآداب والفنون قياس الرجل الذي يحب الجمال ، بل الذي يحب العمل ، ويحكم على قصة بموضوعها وأشخاصها ، وعلى صورة بمغزاها لا بقنها . قال عن صورة ترموبيلي (Thermopylae) ^(١) تصوير دافيد ^(٢) : « إن موضوعها ردىء . ألا ترى أن ليونيداس ^(٣) هُزم ؟ ، ، . ذلك أن نابليون لم يفهم بأى حق يخرج مصور عن حدوده ، ويخلد هزيمة قائد عاды ، فكان ألا أجدر في نظره أن يكون ميدان الفنون والآداب مكافأة الجدارة وزينة النجاح .

وعلى الرغم مما تقدم ، ليس من الحقيقة القول بأن الأشياء العظيمة في الآداب لم يكن لها معنى عند نابليون ، أو القول بأنه كان عاجزاً عن تحرير قطع أدبية ذات قيمة . فالرجل الذي قال للجمعية محي الله والبشر ،

(١) و (٢) و (٣) ترموبيلي محرشيريين إقليمى تساليا ولوكريس في اليونان القديمة . وعند هذا الممر وقف ليونيداس ملك إسبارطة لصد الفرس سنة ٤٨٠ ق . م . نجح ليونيداس وغيره يونانيا يكره الإسبارطيين بدل الفرس على طريق فوق الجبل ، فسلكوه . وانقضوا على مؤخرة الجيش الإسبارطى ، وأقنوه عن آخره ، ماعدا واحداً تركته يد المقادير ليقتل القصة . وقد دخلها المصور الفرنسى جاك لوى دافيد (Jacques Louis David) الذى ولد في باريس سنة ١٧٤٨ . وهو من أشهر المصورين ، وكان من أعوان الثورة ، ومن أكبر المحبين لنابليون وأقرب المدققة . فلما سقط نابليون في الصورة فذهب إلى بروكسل وأقيم بها حتى مات سنة ١٨٢٠ .

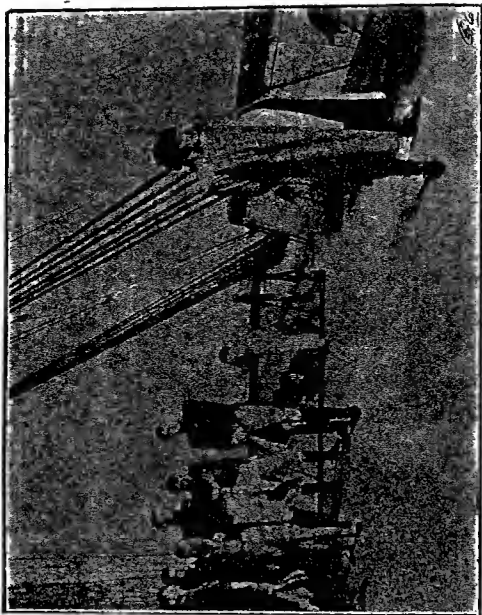
وهي طائفة سخيفة مدعية : « هل تبحثون عن السناء ؟ إذا كنتم فأنى أدلكم : اقرءوا صلاة الأله ، ، مثل ذلك الرجل كان يحس بلاشك بتأثير الجمال الساذج . ثم أن بعض نشراته ، التي كان يمررها بعد ثوران القتال مباشرة ، تعد نماذج بديمة في الأسلوب الفرنسى ، الموجز المتوقد ، اللطيف هنا وهناك بمس خفيف من الخيال الشعرى ، والمفخم في بعض العبارات بنفثة بلاغة حقيقية . ولقد أخذ كثير من النقاد المحصنين على نابليون بعض سقطات في علم البيان ، وحكموا على رسائله بالابتذال ، وقلة الذوق في الزخرفة . لكن نابليون لم يطلب حكمهم . والواجب هنا ذكره أنه لم يقصد في نشراته وإعلاناته مخاطبة الطبقة الوسطى ، ذات الأردية السوءاء ، بل جنود فرنسا وعامتها . قال نابليون مرة : « وما نجح العظماء الذين غيروا العالم ، بواسطة التسلط على الزعماء أبدا ، بل بالتأثير على العامة » ، . ولذلك كانت كتابات نابليون للعامة ؛ ولم يسبق أبداً أن ضربت تلك النعمة الجامعة بين الوطنية والفضار ، من أجل استهواء العامة ، في أى دولة قبل دولة نابليون . ومثل كتابات نابليون مثل فلسفة روسو ، كلاهما محدود في صف لغة قواد العامة . وعلى ذلك فنابليون أمير الصحفيين ، وأبو المراسلين الحريين ، وممهد الطريق في فن تكييف رأى العام باستخدام الصحافة ؛ فهو أستاذ الشركات الصحفية العظيمة ، التي تنشر في العصر الحاضر غباوتها المطبقة على جيل متألم .

قال تاليران ، وهو ناقد قاس بسبب ما لحقه من الأذى ، إن نابليون ذو رأى ثاقب دائماً في ساعة الزوية ، وإنه في حياته المفعمة بالحوادث ارتكب ثلاث غلطات سياسية خطيرة فقط ، وهى إسبانيا والبابا والروسيا . ولوسلنا جدلاً بأن بحش المؤرخين الحديثين سيضيف إلى قائمة الغلطات المتقدمة ، فلن نستطيع البخل بالأعجاب لمهارة نابليون في استخدام الظروف ، تلك المهارة التى حلت مسائل كثيرة في السلم والحرب ، والتى قضت على كثير من الأخطار ، والتى حولت عدة مرات الهزيمة انتصاراً . مع ذلك ستبقى مسألة ، إلى أى حد كانت نهاية أعمال نابليون متفقة مع سمو الأخلاق ، موضوع المناقشات : إذ لا يخفى أن الغزو من أجل الغزو هو المثل الأعلى في نفس المتوحش ، وأن الواجب قبل التماس الأسباب التى تدعو للحروب ، أو تكوين الأمبراطوريات ، إثبات الغرض الذى من أجله تنشب الحروب ، وتقام الأمبراطوريات ، أمام محكمة العدل العام . وإنا بحثنا الأمر ، فأى حكم أكثر شناعة وتوحشاً من السيطرة على الدنيا بالسيف ، بصرف النظر عن هدر الدماء والشقاء والحراب الناتجين مباشرة عن تلك العملية ؟ أى نتيجة طيبة ، أو ذات قيمة ، يمكن الحصول عليها من إذلال شعب ؟ لا نعرف رأى نابليون هنا ، فهو لم يناقش هذا الموضوع . إلا أننا نعرف أن الفخار كان غايته ، وأنه وجد الطريق الموصل لتلك الغاية فى الفتح .

«وأنه كان يميل غالباً لقياس الفخار بمقدار ما يحدثه من الدمار . ولذلك
ففعلى الرغم من خدمات كثيرة وعظيمة فى القانون ، وطرق الأثارة ، وفى
التقدم الأئبى والعقل فى فرنسا ، سيقى نابليون المثل الحديث العظيم
للك الجرأة ، التى كانت السبب فى المآسى قديما ، والتى لا تنفق
أبدأ مع مناسبات الحياة البشرية .



تالايون في طريقه الى البنى



بعض كلمات نابليون

- القوة موضع الاحترام دائماً .
- حب الوطن أول فضيلة في الإنسان المتدين .
- لا تصبح الأمم حكيمة إلا بالتجارب .
- المحنة مدرسة لتخريج العطاء ؛ فواجب الملوك إثارتها ونشرها ، لأنها تثير النفوس وتحرك القلوب ، وفي استطاعتها حقاً تكوين الأبطال .
- الناس كالأرقام الحسائية ، قيمتها بأوضاعها .
- يجب أن يكون قلب السياسى في رأسه .
- تبين الأمر يتم لك بلا عناء .
- نقص نظمنا الحديثة في خلوها مما يثير الوجدان ؛ مع أن الإنسان لا يساس إلا من طريق الوجدان ، ولو أمكن سياسته من غير ذلك الطريق لكان حيواناً أعجم .
- اختيار الموضوعات للأحداث طريقة فاسدة ، وجدير بهم أن يقرأوا الكتب المطولة ، ليحيط خيالهم بجلال الأعمال .
- التاريخ مرآة لفقول البشر .

- الحب مشغلة الحامل ، ومضيعة الجندى ، وعثرة الملك .
- التجنيد الإجباري ؛ أساس نشأة الأمم ، فيه تقوم أخلاقها وتكون عاداتها .
- التعليم والتاريخ ألد أعداء الدين القويم .
- لا أرى في الدين سر تقمص الروح ، بل سر النظام الاجتماعي ؛ لأنه يقول أن الناس عند الله سواء ، وذلك يمنع الفقير من اغتيال الغنى .
- وحدة القيادة أول لزوميات القتال .
- أعد نفسي أجراً رجل حربى ظهر في الوجود .
- أول صفة القائد العام التفكير الهادئ .
- ما زلت مغزماً دائماً بالتحليل . وإذا قُدر ووقعت في شرك الحب ، أحل عاطفتي بالدقة التامة ، فإن محاسبة النفس منفعة مهما تطل .
- مهما تبلغ من الذكاء فلست بفاهم سر قلبك . وإن كل ما تعرفه عنه أنه قطعة من جسمك ، يخرقها عرق ضخم يجري فيه الدم سريماً إذا ركضت .
- جلال الأشراف وسحرهم ولبدا القدم والثبات ، وهما الشيطان الوحيدان اللذان عجبت عن خلقهما .
- القائد العبقري لا بد أن يكون متصفاً بالفضائل ، لأنها السبب

في طاعة الجند واحترامهم إياه .

— لندن هي مصدر شرور العالم وأضراره .

— الضابط العظيم هو الذي يبلغ به الحرص أن يكون مستعداً
لصد مفاجآت عدوه من أى جهة ، فأذا عجز عن ذلك دل
على سوء مركز جيوشه .

— لو نجحت "لا" صبحت إنجلترا من ملحقات فرنسا ، فإن الطبيعة
كوتتها لتكون جزيرة فرنسية مثل أولرون ^(١) أو قرشقة .

— الدستور الذي لا يعترف بالأشراف يشبه الكرة في مهب الرياح .

— قيام الأشراف (الأرسوقراطية) نظام ثابت ، فأذا قضى

عليه بين النبلاء ، تحول مباشرة إلى البيوتات الغنية ذات الجاه
والنفوذ من الطبقة الوسطى ، وإذا قضى عليه من بين هؤلاء ،

بقى واجتمع في ظل زعماء المصانع والشعب .

— العمل ديدنى . ولدت ورئيت للعمل . لقد أخطت بوظيفة

رجلى وعرفت مدى بصري ، ولكنى لم أدرك بعد حدود عملى .

— كان غرامى فى التأسيس لا فى الامتلاك . إنما أردت امتلاك

ناصية الفخار والشهرة .

— العالم اثنان : الشرق والغرب ، والدليل على ذلك أن فرنسا

وإنجلترا متماثلتان فى العادات والدين والأفكار .

(١) جزيرة أولرون (Oléron) واقعة قرب الساحل الفرنسى شمال خليج بسكاي .

- فلان كذوب، ولا حرج عليه أن يكذب أحياناً إن لا يكذب دائماً.
- إراقة الدماء تدخل في عناصر الأدوية السياسية .
- فكرت كثيراً في مشروع تقسيم فرنسا إلى عشرين أو خمس وعشرين أقلماً حرياً كل بحيشه .
- أنا لا أعرف بالضبط معنى تدخل الحب في السياسة .
- خطابك يدل على حذق عظيم ، وهذا ليس ضروريا في الحرب ، وإنما الضروري الدقة ومتانة الخلق والنشاط .
- الديانة مادة مهمة في النظم العامة لتهديب القتيات ، إذ الواجب تدريبهن على الاعتقاد والطاعة .
- العلماء وأولو النهى كالنساء المتدللات في نظري . انظر إليهم وحدثهم ؛ ولكن إياك أن تستوزر أحداً من العلماء ، أو تزوج إحدى أولئك النساء .
- إذا كنت حاكماً فلا تنقض ما أبرمت .
- هناك أناس يجيدون القول ، ولكنهم يعجزون عن أضعف الأعمال .
- يعتبرون على فقرنا في الأدبيات ، ولكن ذلك ليس من شأنى .
- إذا انصف ملك بالرحمة فنصيب حكمه الفشل .

فهرس الأعلام والبلدان المهمة

مرتبة بترتيب الحروف الهجائية

- أبركربي ، ١٢٥ .
 أبنسبرج ، ٢١٥ .
 أبو قير ، الواقعة البحرية ، ٧٣ .
 » » البرية ، ٧٦ ، ١١٦ .
 اتحاد الرين ، ١٦٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٧ ، ٢٤٩ .
 أنهم ، ١٠٥ .
 أنزبرج ، ٢١٥ .
 أنجل ، ٢١٦ .
 أنسج ، نهر ، ٤٣ ، ٤٨ .
 أوانجوز ، ٢٠٦ .
 أوسيس - سير - أوب ، ٢٥٣ .
 أرفرت ، ٢١١ .
 أركولا ، ٢ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٢١٨ .
 أسين - إسليج ، ٢١٧ .
 أسترلتر ، ٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ .
 ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٢٨١ .
 أستورياس ، مقاطعة في إسبانيا ، ٢٠٦ .
 إسكندر الأول ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢١١ ، ٢٢٦ .
 إفريقيا ، ١١٨ .
 إلبا ، جزيرة ، ١٥٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
- الأزهر ، ٧١ .
 الألب الشمالية ، جمهورية ، ١٢٢ ، ١٢٧ .
 آل ، نهر ، ١٧٦ .
 الأرحاب ، حكومة ، ٢٣ .
 الآن ، نهر ، ١٦٠ ، ٢١٤ .
 الأبيرو ، نهر ، ٢١١ .
 الأيسار ، نهر ، ٢١٥ ، ٢١٦ .
 الألبونة ، نهر ، ٤٩ .
 القنري ، القائد النسوي ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ .
 الأمانة ، حكومة ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٩٧ .
 الأهرام ، واقعة ، ٧٠ ، ٨٠ .
 الستر ، نهر ، ٧٠ ، ٨٠ .
 الأورنجيري ، ٨٦ .
 ألم ، واقعة ، ١٦١ ، ١٦٢ .
 أليان ، حلق ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٣ .
 أميليا ، ٤٧ .
 أنقيب ، ٢٣ .
 أندلوسيا ، مقاطعة في إسبانيا ، ٢٠٦ .
 أوتان ، ٨ .
 أوجيرو ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ .
 أودينو ، ٢٤٩ .

اورشتات ، ۱۷۳ .
 أولرون ، جزيرة ، ۲۹۱ .
 ليونيان ، جزر ، ۶۵ .
 بارا ، ۲۴ ، ۲۵ ، ۳۶ ، ۳۷ ، ۳۸ ، ۶۰ .
 باسقا ، ۱۶ .
 باقرا ، ۳۳ ، ۱۲۲ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ ، ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۸۹ ، ۲۵۰ .
 بال ، صلح ، ۱۶۲ .
 باولي ، ياسكال ، ۵ ، ۶ ، ۷ ، ۱۵ ، ۱۶ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۸۷ .
 بايلن ، ۲۰۹ ، ۲۱۱ .
 بايون ، ۲۱۲ .
 بت ، ۸۷ ، ۱۵۸ ، ۱۹۶ .
 باتزون ، ۱۶۴ .
 باتوناو ، ۱۶۰ .
 بتولييه ، ۷۷ .
 بتنيه ، ۴۰ ، ۶۷ ، ۲۱۴ ، ۲۱۵ .
 بوجل ، نهر ، ۱۷۶ .
 بتاندوت ، ۱۶۴ ، ۱۶۵ ، ۲۴۵ ، ۲۴۷ .
 بتتا ، نهر ، ۴۵ ، ۴۷ .
 بتر ، بحر ، ۵۳ .
 برويسش — ايلار ، ۱۷۵ .
 بريمير ، انقلاب ، ۸۴ ، ۸۶ ، ۱۱۲ ، ۱۶۴ ، ۱۹۶ ، ۲۷۷ .
 برون ، ۱۱۴ .
 برين ، مدرسة ، ۸ ، ۹ ، ۱۰۳ .
 بشجرو ، ۶۱ ، ۱۰۳ .
 بلاستنز ، ۲۳۹ .

بلوخر ۲۴۲ ، ۲۴۴ ، ۲۴۵ ، ۲۴۶ ، ۲۴۷ .
 ۲۵۱ ، ۲۵۲ ، ۲۵۳ ، ۳۱۲ ، ۳۱۵ ، ۳۱۷ .
 ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۲ ، ۳۲۳ ، ۳۲۶ ، ۳۲۸ .
 البو ، نهر ، ۴۱ .
 بوتزن ، ۲۳۷ ، ۲۳۸ .
 پورتاليس ، ۱۱۰ .
 پورسيه ، ۳۶ .
 پورميديا ، نهر ، ۱۱۹ ، ۱۲۱ .
 پورودينو — واقعة ، ۲۲۲ ، ۲۳۵ ، ۲۸۳ .
 پورين ، ۱۷ ، ۶۶ ، ۷۸ .
 پوساكوه ، مرتفعات ، ۲۲۸ .
 پوسترنال ، بحر ، ۵۳ .
 پوسيوه ، ۱۰ .
 پوشبورن ، ۱۰ .
 بولو ، القائد النسوى ، ۲۵۲ ، ۲۷۳ .
 بوليو ، القائد النسوى ، ۴۱ .
 بونايرت ، ايلز ، ۱۵۸ .
 بولين ، ۱۳۲ .
 حيروم ، ۱۴۲ ، ۱۷۸ ، ۱۸۷ .
 شارل ماري ، ۴ .
 كارولين ، ۳۶ .
 لوسيان ۱۵۴ ، ۱۸ ، ۱۹۶ ، ۱۹۷ .
 لويس ، ۴۲ ، ۱۵۷ ، ۱۸۷ ، ۲۰۸ .
 تيليون ، موضوع الكتاب .
 يوسف ، ۹ ، ۱۴ ، ۱۵۶ ، ۱۵۷ .
 ۱۶۸ ، ۱۷۱ ، ۲۰۸ ، ۲۱۰ ، ۲۷۷ .
 بوهاريه ، المركيز ايسكندر ، ۲۷ .
 جوزفين ، ۲۷ ، ۲۸ .
 بوجين ، ۴۵۶ ، ۱۶۷ .

بارس ، جبل ، ٥٣ .
 بارس ، واقعة ، ٢١٩ .
 بارس ، سهر ، ٥٣ .
 بلان ، ٣٧ .
 بجران ، ١٣٥ ، ١٥٩ ، ١٨١ ، ٢٢٥ .
 ٢٥٤ ، ٢٨٧ .
 التحالف الاول ، ٣١ .
 الثاني ، ١١٣ ، ١١٥ .
 الثالث ، ١٥٨ .
 تريون - مجلس آل - ٨٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ .
 تريبور ، ثورة ، ٢٢ .
 توليه ، ١١٠ .
 تشيف ، واقعة ، ٤٢ .
 تلس ، مباحة ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
 توجوت ، ٥٤ .
 نورس - فسر ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ .
 توسان لوفتر ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
 تيو ، ٢٦ .
 تيدود ، ١٠٩ .
 تين ، هنري ، ١٩٥ .
 الجامعة الفرنسية ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٦٠ .
 جروشي ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٠ .
 جونو - مدام ، ١٨١ .
 جونو ، القائد ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ .
 الميرنديون ، ١٩ ، ٩١ ، ٢٢٢ .
 الميرجوري ، التقويم ، ٢٢ .
 جريوفا ، ٣٤ ، ٣٦ .
 جير ، ٣٦ ، ٣٧ .
 جورطن ، ٤٤ ، ٨٤ .
 جمهورية ماوراء البو ، ٤٦٥ .
 جوير ، ٥١ ، ٥٣ .
 جروس - يرن ، ٢٤٢ .
 جوليين ، ١٧٤ .
 جنيناو ، ٢٦٢ .
 الجلفست ، ١٩٣ .
 جودوا ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
 جيلو ، ٢٧٣ .
 الحجة الفرنسية على مصر ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ .
 ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢١٣ .
 الحجة الروسية ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ .
 الحجة الايطالية ، ٢٨ ، ٣٠ .
 الحجة السورية ، ٧٤ ، ٨٠ .
 الحزب الحقول المتطرف ، ١٩ .
 حزب القويان ، ١٩ .
 حزب الحيليين ، ٢٠ .
 حزب السهل ، ٢٠ .
 الحرس الاهلي ، ٢٥ .
 حجر رشيد ، ٧٩ .
 حسن لندن ، ١٤٨ .
 الحصار القاري ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ .
 ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ .
 دافيدوفتش ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ .
 حاقو ، ١٧٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .
 دايهان ، القوق ، ١٠٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .
 ٢٠٧ ، ٢٥٨ .
 ديرلون ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ .
 دلتون ، ١١٤ .

معين
 الاهدل

بارس ، جبل ، ٥٣ .
 بارس ، واقعة ، ٢١٩ .
 بارس ، سهر ، ٥٣ .
 بلان ، ٣٧ .
 بجران ، ١٣٥ ، ١٥٩ ، ١٨١ ، ٢٢٥ .
 ٢٥٤ ، ٢٨٧ .
 التحالف الاول ، ٣١ .
 الثاني ، ١١٣ ، ١١٥ .
 الثالث ، ١٥٨ .
 تريون - مجلس آل - ٨٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ .
 تريبور ، ثورة ، ٢٢ .
 توليه ، ١١٠ .
 تشيف ، واقعة ، ٤٢ .
 تلس ، مباحة ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
 توجوت ، ٥٤ .
 نورس - فسر ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ .
 توسان لوفتر ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
 تيو ، ٢٦ .
 تيدود ، ١٠٩ .
 تين ، هنري ، ١٩٥ .
 الجامعة الفرنسية ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٦٠ .
 جروشي ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٠ .
 جونو - مدام ، ١٨١ .
 جونو ، القائد ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ .
 الميرنديون ، ١٩ ، ٩١ ، ٢٢٢ .
 الميرجوري ، التقويم ، ٢٢ .
 جريوفا ، ٣٤ ، ٣٦ .
 جير ، ٣٦ ، ٣٧ .

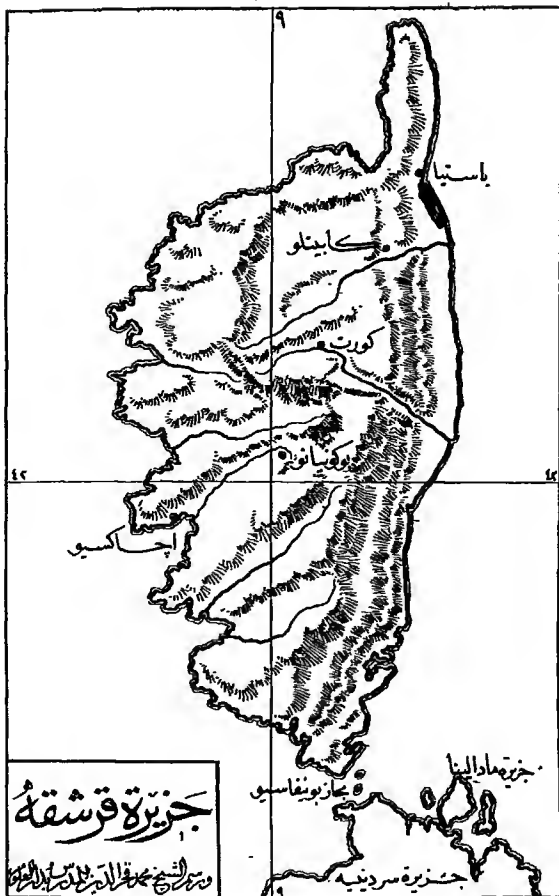
فريديور ، انقلاب ، ٦١ .
 فردان ، ٢٥ .
 فرمزر ، القائد النسوى ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .
 فوبوا ، القائد ، ٤٥ ، ٤٨ .
 فلاخ ، ٥٣ .
 فريديلاند ، موقعة ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ .
 فونتبيلو ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٠٣ ، ٢٥٤ .
 فيلثيف ، أمير البحر ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
 فالفسكا ، الكونتس ، ١٧٤ .
 قائد ، القائد ، ٢٤٤ .
 فيليبييل ، واقعة ، ٢٧٧ .
 قرشقة ، جزيرة ، ١٠٤٠ ، ١٠٧٠ ، ١٠٩٠ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠٠ ، ١٦٠٠ .
 ١٨ ، ١٦ .
 القانون المدني ، ١٠٨٠ ، ١٠٩٠ ، ١١٠٠ ، ١١١٠ ، ١١٢٠ .
 القاهرة ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ .
 التفصيلة ، حكومة ، ١١٢ .
 التفصيل الاول ، ٨٨٠ ، ٩٦٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٠ ، ١١٤٠ ، ١١٤٠ ، ١٢١٠ ، ١٢٥٠ ، ١٢٧٠ ، ١٢٩٠ ، ١٣٢٠ ، ١٣٩٠ .
 ١٩٤ .
 قانون الميراث ، ٩٤ .
 قوانين القابلات ، ٩٥ .
 كادودال ، جورج ، ١٠٤ ، ١٠٥ .
 كارنو ، ٢٩ ، ٢٩٠ .
 كلباسيريس ، ٨٩ .
 كاتريياخ ، نهر ، ٣٤٢٠ .
 كنتربرا ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .
 كايوفورميو ، مساعدة ، ٦١ ، ١٢٢ .
 كراي ، القائد النسوى ، ١١٥ ، ١١٦ .
 كرازون ، واقعة ، ٢٥٢ .

كلرمان ، القائد ، ١٢٠ .
 كلير ، القائد ، ٦٨ ، ٧٧ .
 كوازداثوقتش ، القائد النسوى ، ٤٤ ، ٤٣ .
 كوبهاجن ، واقعة ، ١٢٥ .
 كوينزل ، السيليبي النسوى ، ٦١ .
 كولم ، واقعة ، ٢٤٤ .
 كونستان ، بنجلان ، ٢٦٠ .
 كونوسوف ، ١٦٥ ، ٢٢٥ .
 كولانكور ، ٢٥١ .
 لابل أليانس ، ٢٧١ .
 لان ، القائد ، ٦٨ ، ٢١٧ .
 لارونير ، واقعة ، ٢٥١ .
 لاندشوت ، ٢١٦ .
 لايياخ ، ٢٣٩ .
 لمران ، ٨٩ .
 لجنة الامن العام ، ٢١ .
 لبحر ، ٢١٤ .
 لكثير ، القائد ، ١٣٢ .
 لون ، واقعة ، ٢٥٢ .
 لوبين ، حدة ، ٥٣ .
 ليجيلت ، حصن ، ٢٠ .
 ليزج ، واقعة ، ٢٦٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥٠ ، ٢٤٨٠ ، ٢٥٠٠ .
 ليني ، واقعة ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ .
 ٢٧٤ ، ٢٧٦ .
 مالك ، القائد النسوى ، ١٦٠ ، ١٦١ .
 ماتوا ، حصار ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٣ .
 ميثا ، القائد ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١١٤ .
 ١١٨ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

ناي ه ميشيل ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ .
 ناربون ، الكونت لويس دي ، ٢٣٣ .
 الناصرة ، ٨٠ .
 النسيم ، نهر ، ١٧٧ ، ٢٣٦ .
 هوش ، القائد ، ٤٤ ، ٦١ .
 هونتلين ، واقعة ، ١٢٣ .
 للدن المنسية ، ٢٢٥ .
 هوجفتر ، السيلبي النسوي ، ١٦٥ .
 هونلولوه ، القائد البروسي ، ١٧٣ .
 واجرلم ، واقعة ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ .
 واترلو ، واقعة ، ٢٢٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ٢٧١ .
 ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ .
 وافر ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .
 ومستقاليا ، ملكة ، ١٧٨ ، ١٨٧ - ١٨٩ .
 ولتجن ، العوق ، ٢٨ ، ٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨ .
 ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ .
 ياقا ، ٧٤ ، ٨٠ .

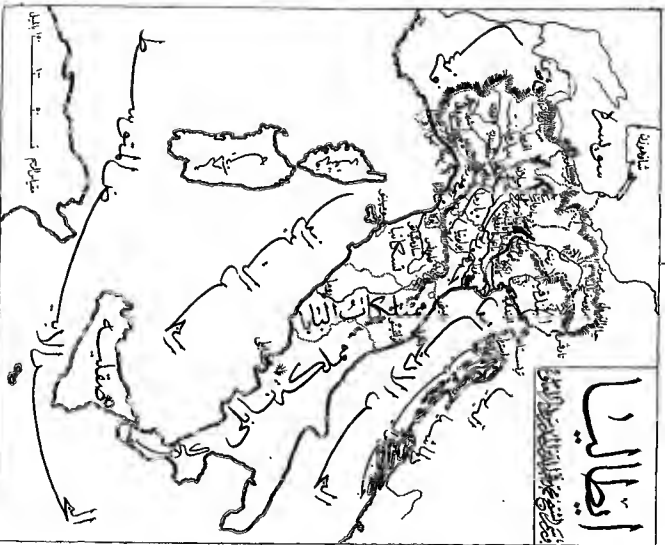
ملاس ، القائد النسوي ، ١١٥ ، ١١٧ -
 ١١٨ ، ١٢٠ - ١٢١ .
 مترنيخ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ .
 مورد ، القائد ، ٤٤ ، ٦١ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٤١ .
 مورا ، القائد ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ ،
 ٢٤٥ ، ٢٦٢ .
 مارمون ، القائد ، ٦٨ ، ١٢٠ .
 منتقت ، واقعة ، ٤١ .
 للنشيو ، نهر ، ٤٢ ، ١٢١ .
 المين ، نهر ، ٤٢ ، ١٢١ .
 مانسار ، ٨٧ .
 مارنجر ، واقعة ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٨١ ، ١٩٤ .
 ماربه ، ٢٢٥ ، ٢٥١ .
 مونجيرلي ، واقعة ، ٢٥٢ .
 مونتر ، ٢٥٢ .
 نلسن ، ٦٩ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٥٩ .

مصور رقم (١)

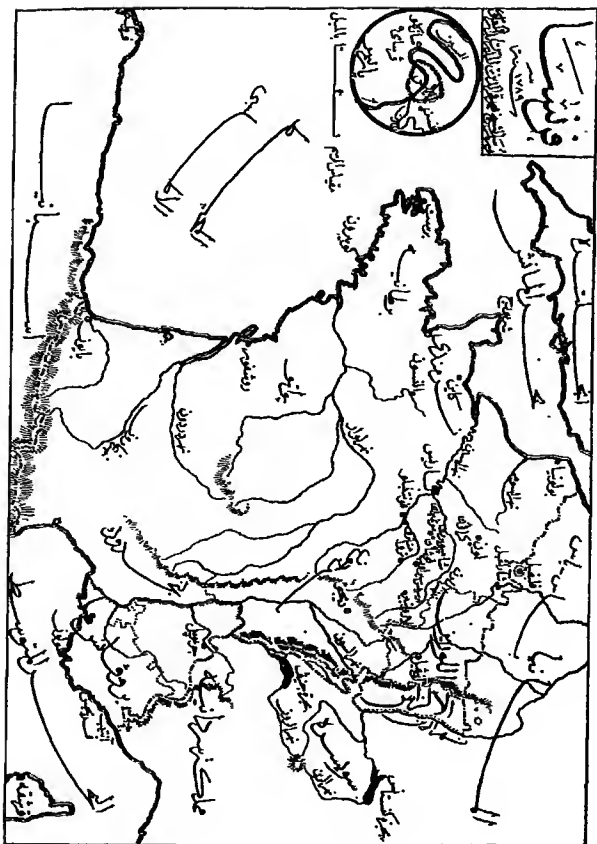


ایتالیا

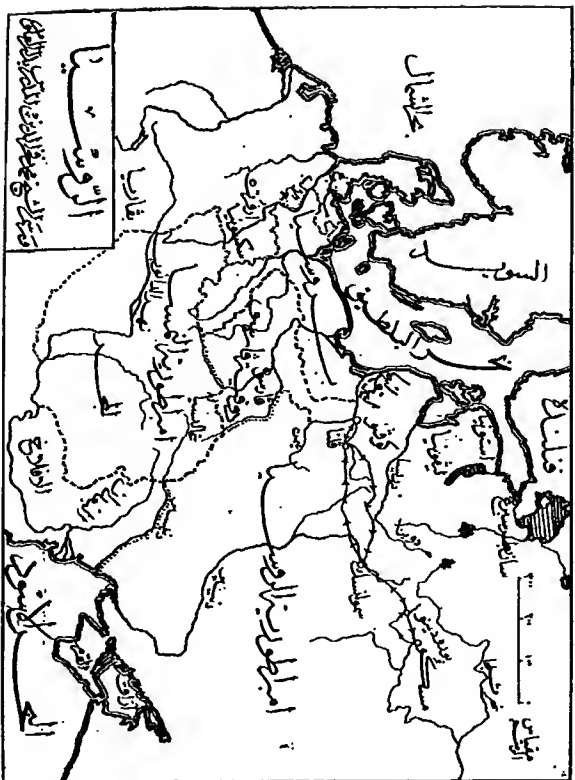
بعضی اشخاص و بعضی اشخاص و بعضی اشخاص



مقیاس ۱:۱۰۰۰۰۰



(۶) رقص





Bibliotheca Alexandrina



0379492